الرواية الحائزة على المركز الأول في مسابقة جرير للسرد القصصي عام ٢٠٢٠م

رواية

لا تنتحر داخل مكتبة

ولاء عوده أبو غندر

إحدى مبادرات جرير لإثراء المحتوى العربي

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...ليست مجرد مكتبة ...not just a Bookstore

مسابقة جرير للسرد القصصي

مكتبة ١٣٥١

مكتبة | 1351

لا تنتحر داخل مكتبة

مكتبة | 1351

لا تنتحر داخل مكتبة

رواية

بقلم: ولاء عودة أبو غندر

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى 2021

حقوق النشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2021. All rights reserved.

مكتبة

t.me/soramnqraa

14 9 23

تحديد المسئولية / إخلاء المسئولية عن الضمان: في حين أن الناشر أو المؤلف قد بذلا قصارى جهدهما في إعداد هذا الكتاب، إلا أنهما لا يقدمان أي تعهدات أو ضمانات فيما يتعلق بدقة أو اكتمال محتويات هذا الكتاب ويخليان مسئوليتهما تحديدًا من أي ضمانات تتعلق بقابلية التسويق أو الملاءمة لغرض معين. لا يجوز لمندوبي المبيعات أو أوراق المبيعات المكتبية تقديم أي ضمانات أو تمديدها. قد لا تلائم النصائح أو الاستراتيجيات الواردة هنا وضعك الخاص. يجب عليك استشارة أحد المهنيين إذا دعت الحاجة. لا يتحمل الناشر ولا المؤلف أي خسارة في الأرباح أو أي أضرار تجارية أخرى بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر الأضرار أو العرضية أو التبعية أو غير ذلك من الأضرار.

Copyright © 2021 by Walaa Auda Abu-Ghandar.
This translation Published under license with the original
Publisher JARIR BOOKSTORE
All rights reserved.

الإيحاء

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾

المحتويات

الفصل الأول 1

الفصل الثاني 19

الفصل الثالث 47

الفصل الرابع 65

الفصل الخامس 81

الفصل السادس 147

الفصل السابع 179

الفصل الثامن 201

الفصل التاسع 213

الفصل الأخير 235

الفصل الأول

الوعي هو أعظمُ شرٍّ أخلاقي لا يمكنُ للإنسانِ إلا أنْ يُدركه.

ليو تولستوي

كلٌّ شيء انبثقَ من الظلمة؛ إنَّنا أبناء الظلام.

وهل في الوجود كائن لم يكن لولا طور الظلام؟!

وهل مثله للعشاق ستار، وللشعراء أوتار، ولليائسين مقابر، وللصوص أوكار، وللتائبين إزار؟!

وهل تمايزت الألوان وعُرف الإصباح لولاه؟!

نعم، إنَّنا من الظلام وعبره سائرون، فإما إلى شروق وإما إلى غروب؛ إنَّنا حقًّا أبناء الظلام؛ لذا قررتْ أنْ لا تُشعل المصباح، وتشاهد مكْتبتها للمرة الأخيرة غارقة فيه!

نعم، ستكون الأخيرة.

هكذا خاطبت فؤادها اليائس، ولكن لماذا على الرغم من العتمة كانت قادرة على رؤية الرفوف، بل حتى معرفة أماكن الكتب وتحديدها بدقة!

يبدو هذا مُدهشًا! ولكنّه الاعتياد.

يا لهذا الاعتياد ما أشدَّ لُطفه، وما أشدَّ بؤسه!

إنه يسرق منَّا الاندهاش، ويُذهب روعة الإحساس، يُوهمنا بالأمان ثم يقتلنا دونما أكفان.

كان هذا ما تفكر فيه وقد أطلقت بصرها، وتوقفت عند كل رفٍّ لحظات كأنّها تُعانقه بلا أذرع، ثم خاطبت روحها ساخرة:

- لماذا أحاكمُ الاعتياد اليوم؟! وأحاكمه على ماذا؟! هو الذي اغتال من أعماقي كل شيء عدا الإنسان.

الإنسان؟! أخ، ما الإنسان؟! بؤسٌ وأي بؤس هو! هذا المخلوق السائر على اثنتين، بين اثنتين، وهو موعود بإحدى الاثنتين، وراحته في اثنتين، ودهره كله اثنتان وكأنَّ الدنيا كلها ما أقيمت إلا لاثنتين!

نفضت أفكارها باثنتين على الخدين، وراحت تسأل نفسها:

ما الذي أصابني الآن؟! لماذا أُكثر الثرثرة، اليوم، على غير المعتاد؟! أين كنت؟

نعم، المكتبة، لقد حفظتُ أماكن كل كتابٍ فيها واعتنيتُ به كما تعتني الأم بولدها، لم أكن أسمح لأي كتاب منها بأن يغادر باسم الإعارة، وهل تُعير الأم أبناءها؟! ولكن عندما يَتلبَّسني جنّي الطائية، وأصبح كريمة فإنّي سرعان ما أوافق على الإعارة ولكن مع اشتراطات تعجيزية، جعلتني أبصر على وجه كل من يستعير مني، تلك الابتسامة التي نرسمها عادة في قاعة المحاضرات عندما يبدأ دكتور ما بسرد مسيرته الحياتية والعلمية علينا.

لَمستْ طرف أحد الرفوف وربَّتت برقَّة على رءوس الكتب، وقعت يدها على كتاب تعرفه بشكل غلافه المميز والضخم. ابتسمت بفتور وهي تنطق باسمه: (تدهور الحضارة الغربية لمؤلفه سبنجلر).

"التمدن نهاية العمران!" هكذا انتهى الكتاب.

لماذا أشعر أيضًا بأنّ الوعي هو ختام الحياة، ختام السعادة، واستهلال الشقاء؟!

كان تولستوي محقًّا: "الوعي هو أعظم شر أخلاقي"*

---

* يوميات ليو تولستوي، الجزء الأول 1847-1857م.

تلحُّ على ذاكرتها قصيدة (الرندي) لتفرض حضورها؛ فتستجيب لها وتنشد أبياتها دون وعي: لكل شيء إذا ما تم نقصان!

تبسّمت بيأس، ولمست كتابًا دون قصد، فسقط على الأرض، انحنت لترفعه، فتمكّنت من تمييزه على الرغم من الظلام، هذا الغلاف الأبيض المميز وهذان الظلان الأسودان اللذان يرقصان؟!*

تُرى كيف لم تفكر في ذلك من قبل؟! لماذا هما أقرب إلى الظل؟ هل لأنّنا في الحقيقة لسنا سوى مجرد ظلال على هذه الأرض؟!

شدَّت قبضتها على الكتاب معبِّرة عن ضيقها وتذمُّرها من سطوة أفكارها، وعجبت لماذا تُقحم رأسها بمزيد من التساؤلات وهو مقدم على الموت!

أعادت الكتاب إلى مكانه، ولكنَّ يدها لمست خطأً كتاب (طوق الحمامة)، أسجدت النظر إليه وإلى الرف الذي يحمله؛ كانت قد جمعت فيه أقرب الكتب إلى قلبها، ودون أن تدرك، كانت أفكارها غارقة في نجوى يائسة، وراحت تسأل: كيف أخبر (ابن حزم) بأنَّ الطوق خان الحمامة فضلَّت طريقها؟! وكيف أخبر (بيجوفيتش) بأنَّ الحريةَ هي التي هربت؟! ومَن يخبر (أورويل) بأنَّ السنينَ كُلها صارت عجافًا! أعلم (شو) أنَّ الموتى لا يثورون؟! يا (مالك) إنَّ التأملات زمن التلقين جريمة! يا (جارودي) الكل متهم والعالم كله محاكمة!

أصبحت رؤيتها ضبابية؛ فراحت تمسح عينيها وقد فرَّت من شفتيها كلمات كاشفة عن كل ما في أعماقها من يأس: لا بأس، كل شيء سينتهي اليوم.

نظرت إلى الرفوف مودعة، قبل أن تتجه إلى مكتبها وتجلس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* إشارة لغلاف رواية زوربا اليوناني طبعة مسكيلياني.

تقـع أمام بصرها مباشرة نافذة بستائر بيضـاء تشفُّ عمَّا خلفها، لقد تعمَّـدت أن تضع مكتبها في هذا الركن بالتحديد؛ لتقابل الشمس كل صباح وهي تكتب، لقد أحبت الشمس طوال حياتها ولكنَّ الظلامَ أحبها أكثر.

وها هــي النافذة تبدو مظلمة للغاية - كروحها المتعبة - وتبدو الشجرة الكبيرة بجوارها شبحًا واقفًا يتربص للانقضاض عليها في أية لحظة.

أرهبتهـا الفكرةُ الأخيـرة، وراحت تعترفُ لروحهـا: عشتُ طوال حياتي أخـاف قصص المـوت والأشبـاح ومصاصـي الدماء - سامـح الله أولئك النسـوة العجائز- هل كان لزامًا عليهن؛ لإبقائنا في المنازل، حشو رءوسنا بتلـك القصصـ المرعبة التي جعلـت كلًّا منَّا يرتجف من ظلـه إلى اليوم، والبعضـ الآخر يُمارس قصَّ الكذب بامتياز، وآخر يُصدق كل ما يُروى على سمعـه كأنَّه حقيقة لا تقبل النقاش، أما أنا فأصبحتُ كاتبة! والكتَّابُ في كل وادٍ يهيمون!!

أضاءت مصباح مكتبها فانتشرت أضواؤه الخجول في كسل.

أبصرتْ طـرف ورقة متمردة ظلَّت تقاوم الانطـواء داخل درج المكتب، تذكـرت أنَّهـا الورقة التـي كتبتها البارحـة كرسالـة وداع أخيـرة، فتحتها وشرعت في قراءتها:

(ما طعم الظلمة؟!

لم تعد تعني لي شيئًا، لم تعد تملك تلك الهالة المخيفة حولها..)

أمسكت عن القراءة؛ فقد غلب على ظنِّها اهتزاز المكتبة!

تيقَّظـت حواسها وارتجف فؤادهـا، وكأنَّ هذه الهزَّة التي صنعها خيالها جاءت سخرية مما كتبته البارحة!

ابتسمت ساخرة، وغارت عيناها في أسى عميق.

يبدو أنني أسخر من نفسي بنفسي! لقد اعتدتُ ذلك، نعم، إنَّ ما نمارسه نحن معشر الكتَّاب هو الكذب، ولا شيء آخر!

رفعت عينيها وأطلقتهما فـي كل اتجاه؛ لتقاوم دموعها، لاحظت اهتزاز ضـوء المصبـاح، ففطنت إلى أنَّـه مصدر الخيـال الذي أوهمهـا باهتزاز المكتبة، فابتسمت ساخرة من خوفها.

وجّهـت نظرها لأعلى المكتبة التي ثبتتها بمسامير قوية ذات يوم، كانت حريصة على ألا تسقط فوق رأسها؛ فمهما بلغ حُبها وعشقها للكتب لم تكن ساعتهـا راغبة في نهاية كنهاية الجاحظ، رغم توقهـا لمثلها الآن، وخاصة في هذه اللحظة.

وللمرة الثانية شعرت بأنَّها تَهتزُّ بشكل أقوى من السابقة، اتسعت عيناها ونطقت: إنني واهمة!

صرفـت بصرها ووجّهتـه إلى مكتبهـا، عدَّلت المصبـاح وسلّطته على الورقة وشرعت تقرأ رسالتها الأخيرة:

"ما طعم الظلمة؟!

لم تعد تعني لي شيئًا، لم تعد تملك تلك الهالة المخيفة حولها.

بتُّ أفكِّرُ في الأمر من ناحية أكثر دقة.

عندمـا أنظر إلى الأشياء حولي، في كل شيء، أرى ظلمة، حتى الشتلات التـي أتفنن في اقتنائهـا ووضعها على مكتبي، أرَى ظلمتهـا المنعكسة على السطح.

كلٌّ الوجوه التي تخاطبني هي كذلك.

كلٌّ روح في داخلها ظلمة؛ وربما كل شيء انبثق بداية من الظلمة.

تمـر على خاطري تلك الذكريات البائسة مـن طفولتي التي كنتُ أخاف فيها من الظلمة، فهربت باتجاه الشمس، دومًا، دومًا باتجاه الشمس!

فكنتُ الفنانة. وصاحبة الصـوت الجميل، والإلقاء البارع، كنتُ الممثلة التي تُضحِك الجمهور المدرسي والجامعي وتُبكِيه أيضًا!

كنـتُ الرسامة، والمصـورة، والمصممـة، كنتُ متعـددة المواهب كما يقولون؛ كنتُ كل شيء ولم أكن أي شيء!

لقد توهجت، توهجتُ كثيرًا حتى احترقت، وكان احتراقي باردًا لا يُشبه أي احتراق ولكنَّه أوصلني إلى النهاية نفسها عندما ذرَّنِي رمادًا تائهًا.

توهجتُ في سن باكرة وهذا سرُّ تعاستي.

كان عليَّ أن أحمل نجاحًا كبيرًا وفشلًا يفوقه أيضًا، وكان هذا كفيلًا بقذفي إلى الظلمة حتى تَلبستْنِي أو تلبستُها، لا فرق.

ما طعمُ الظلمة؟!

لا شك أنَّه ليس سيئًا إلى هذا الحد، ففي الظلمة تختفي الملامح وتصبحُ كل الأشياء متساوية. في الظلمة لا أحد أفضل من أحد، ولا أحد يُحب أحدًا أو يَكرهه، الكل متساوون في كل شيء؛ لأنَّه لا وجود إلا للفناء؛ البقاء هو الوهم.

الظلمةُ أو الموتُ لا أدري كيف صار يلحُّ عليَّ مؤخرًا.

تلك الفكرة التي كانت تُرعبني أصبحت الآن أمنية!

إنني أعجبُ حقًّا من هذه القدرة التي أمْلكها، أشعر بالموت وهو يأكل جوفي وقلبي شيئًا فشيئًا، أشعرُ بتآكلي وأنا على قيد الحياة، ومع ذلك ما زلتُ قادرة على الضحك، وعلى مشاركة غيري الضحك.

ما زلتُ أينما حللت أنثر الابتسامات على الوجوه.

الآن فقط أدركت أنني لم أكن أصنع تفاؤلًا كما كانوا يقولون- نعم كانوا يقولون ذلك- حتى إن أستاذتي قطعت محاضرتها ذات مرة لتقول فقط: إنني أشعر بالتفاؤل حال رؤيتك.

ما الذي حدث؟! هل كنتُ حقًّا متفائلة وفقدتُ تفاؤلي؟! كلا.

كنتُ ألعب فقط دور المهرِّج على الرغم من معاناتي من فوبيا المهرِّج.

إنه يُخفي وجهه بالعديد من الأصباغ ثم يفتعل المواقف المضحكة التي نضحك منها دون أن نتمكَّن من رؤية تعابير وجهه الحقيقية.

أنا كنــتُ كذلك، كل مشاعــري افتعال، كل فرحي افتعــال، وحتى بكائي وحزنــي، لا شيء صادق ألبتة، كل شيء كان كذبًا. كل شيء لم يكن له وجود حقيقي.

اليــوم ويا للمصادفــة! وقعتُ في يــدي رسالة خطتها لــي صديقتي قبل تسعــة عشر عامًا، كانت تتحدث عن شخصيتي، ويــا للعجب! اكتشفت أنني لم أتغير كثيرًا وأنا التي ظننت أنني نضجت بما فيه الكفاية!

ما زلتُ كما أنا ثقبًا أسود أبتلع وأبتلع ثم أفنى من قشة!

ولكن ربما يحقُّ لي أن أتساءل: ما الذي يدفعني إلى ذلك؟

لأكن صادقة، إن حُزنِي محاصر!

نعم، مــا يؤلمُ أكثر ليس الحزن، بل إخضاع حُزنك للمحاكمة، أن تحزن لأمر ما وتُعبِّر عنه، هو شيء طبيعي، ولكن أن يخضعَ شُعورك للرفض الدائم ويُقاوم ولا يُعترف به، فهذا ما لا يحتمل.

ليسَ من السهلِ أن يَخضع حُزنك للمحاصرة!

ثم إنني ثائرة، ثائرة على كل شيء.

ثائــرة على فشلي وهذه الحيــاة التي أحياها وهذا الوســط الذي أعيش فيه.

ثائرة على هذه الدنيا القذرة وكل شرورها التي لم تبقِ للخير متسعًا.

ثائــرة حتى على روحــي الحائرة الواقفــة. ثائرة على كونــي كاتبة، إنَّها لتعاســة أن يكون المرء كاتبًا؛ إنني على يقين أنَّ كتَّاب الرواياتِ هم الأشقى علــى الإطلاق؛ ليس مــن السهلِ على المرء أن يكونَ مؤمنًا ويكون ملحدًا، أن يكــون صالحًا ومفسدًا، أن يكــون أخلاقيًّا وأن يكون في الوقت نفسه عدميًّا، ليســ من السهــل أن تكون سعيدًا وتعيسًــا أيضًا، ففي لحظــة ما- طالت أم قصرت- سيجدُ الروائي نفسه وقد تاه ولم يعد يعرف أفكاره الحقيقية! وفي مرحلــةٍ مــا سيدرك أنَّه لم يكن ســوى وعاء تقيأت فيــه كل الأنفس عذابها،

فأصبح غارقًا في أوحال من خطايا وذنوب وعذاب وتيهٍ أشد من تيه اليهودي الإسكافي!

اللحظة التي يُعلن فيها الروائي عن نجاحه هي نفسها اللحظة التي ينبغي فيها أن يعلن عن موته أيضًا وفقده لذاته.

ما يفعله الروائي في الحقيقة - يستوي في ذلك من كان أخلاقيًّا ومن كان مؤدلجًا لفكرةٍ أو سُلطة - هو امتلاؤه بغيره وكل امتلاء سينسكب، كل امتلاء سيؤدي إلى التطرف؛ لذلك أعتقد أننا، معشر الروائيين، مهما كانت رسائلنا إنسانية أو مؤدلجة ستنتهي بنا الحال جميعًا كشياطين متوَّجة؛ إما أن تكون وحشية كأقنعة أفريقية، أو جميلة كلوحات النهضة، ولكن في كل الأحوال، لا تمتّ للحقيقة بأية صلة.

إنني أتساءل ألف مرة: ما الذي نجنيه حقيقة من كل ذلك؟ إن العالم قاسٍ بما فيه الكفاية ليُحاكم روائيًّا ما على روايته، قاسٍ بما فيه الكفاية للَّعب مع كلماته لعبة فكّ الأحاجي وتحميلها ما لا تحتمله، قاسٍ بما يكفي ليُقيِّم عمله بنجمات وأرقام! قاسٍ بما يكفي ليقتبس ما نطق به أبطاله ويُظهرها على أنَّها آراؤه النهائية!

إنَّه لقدر فظيع ذاك الذي نعيشه.

ولكن ما الذي بوسعي فعله يا ترى؟! كنتُ قد كتبت ذلك على نفسي منذ أن مارست الكتابة مبكرًا، ولم يعد عليّ سوى انتظار موت يُخلِّصني من إدمانها.

ولكن ما طعمه؟!

إنني متعبة من نفسي، من روحي، من كوني كاتبة، ومن كل شيء يُشبهني.

أكان كثيرًا عليَّ قليلٌ من التقدير؟! قليلٌ من الحريةِ وتقريرُ أسلوب حياة؟! أم إنَّ رغباتي سافرة إلى حد الرجم؟!

وذاك المرض، ذاك المرض لا أعرف له اسمًا أو تشخيصًا، بيد أنني أشعر في أعماقي بأنَّه يقربني من الظلمة.

اثنتا عشرة سنة أو أكثر وهو يُرافقني حتى أَلِفْتُه. فما الذي تعلمتُه منه؟!

لقــد تعلَّمتُ أن أبدد وجعي بإيقاع جسدي لوجــع أكبر، كنتُ أُشتت الألم بألم أكبر منه، كنتُ أحرق جسدي بالماء الحار. كنتُ أمارس هذه الطقوس لأتخلص من الألم، كنتُ أخدع دماغي، وأصوِّر له أنني قديسة رفضتْ تبديل دينهـا فأُحرقت بتهمة الهرطقــة ولم أكن أعلمُ أنني كنتُ أحرق روحي أيضًا وأُسارع في فنائها.

لــم أعد أحبُّ أو أريد أن أحبَّ، بل أصبحــتُ أشمئز من كل عاطفة وأرى أنَّها محض هراء.

لماذا نحبُّ من الأساس ونحنُ نعلم أننا مَن سيتأذى في النهاية؟!

صـــار غاية أمانيَّ أن أُترَك وحيدة خاليــة من أي شيء، وكل شيء، ولكن فيما يبدو، حتى هذه الأمنية كثيرة عليّ.

لا شيء يتغيرُ بالكتابة.

هذا مــا فهمته مؤخرًا، كنتُ أظــن أنني أملكُ سلاحًــا يُمكِنُه على الأقل التخلص مني.

ومن حماقاتي ومن كل ما يسوؤني.

أخلقُ به عالمًا يُمكنني التحرك فيه بكل حرية.

يمكننــي فيــه أن أسيرَ دون أن أعبــأ بأي أحد، أن أتحــدثَ كما أريد، أن أفعل ما أريده دون خجل أو خوف، أن أفعل فيه ما أقتنع به وحسب، أن أحقق مجــدًا وأنهــي الشر وأكون أنــا البطل! ولكن كان كل ما أفعلــه هو أنني أخلق خبــالًا يُبْهر القرَّاء لا غير، بينما يبقى كل شيء كما هو؛ لذا أعاود المحاولة وأخلــق شخصيات أخرى وأخرى، وكلها أنا، كلها أنا المُحْتبسة في أعماقي، لا جديد ألبتة.

إنني محاصَرة حتى من روحي!

أحيانــًا أفكر: لمَ عليَّ أن أكون هكذا؟! لماذا لا أجعل الأمور أكثر بساطة وأقتنع بكل شيء؟! إنَّ الاقتناع أسهل من التغيير.

ولكـن حينما أعود إلى الوراء: أدركُ تمامًـا أنني منذ البداية كان كل ما أسعى إليه هو أن أُبصرَ كما أنا بالضبط.

عندما كنت طفلة كنت أريد من والديَّ أن يُبْصراني جيدًا.

مـا حيلتي كوني الوسطـى: فهذا يجعلنـي نوعًا ما بعيدة عـن نظرهما؛ فللأماكن سطوتها، للأماكن كلمتها، وللأماكن أقدارها أيضًا.

إننـي أكره الوسط في كل شـيء، حتى في مشاعري. إنني حقًّا مُتطرِّفة، أحبُّ بقوة، وحينما أكره فإنني أكره بالقوة نفسها.

كان كل مـا أحـاول إثباته هو أننـي لست سيئة كما يظنـون، لست شقية إلـى هذا الحد، ما كنتُ أدرك حينهـا أن هذا الطبع سيلازمني حتى الكبر. وحينما كبرت أدركت أن العالم سيئ للغاية وأن العيش فيه هو الأسوأ، ليتني أدركت ذلك مبكرًا. لربما لم أعتد على خوض المعارك الخاسرة.

إننـي مضطـرة إلـى التعبير عنِّـي في كل وقـت، مضطرة إلـى الشرح، مضطرة إلى التبرير، مضطرة أن أعاكس كل شيء.

ولا أدري هـل الأمور هـي من جاءت معاكسة لـي، أم إنني حقًّا مضطرة إلى أن أعاكسها؟!

اليـوم شعرت بأن كلَّ الحب في أعماقي قـد مات، لقد لفظته بكل قوتي، وقذفتـه بعيدًا عنـي آلاف الكيلومتـرات، لكن مع ذلـك كان انتصاري يبدو كانتصـار قائد كتيبة، لا يـدري أيستقبل التهاني على انتصـاره أم التعازي على قتلاه؟!

لقد كان انتصارًا خاسرًا.

وما عدتُ قادرة على الإكمال، لقد فقدتُ شغفي بكل شيء.

ثمـة عجز يَشلُّني حتى بـتُّ غير قادرة على التحرك لا إلى الأمام ولا إلى الخلف.

إنَّني مُعلقة كأنَّني أنتظر شيئًا ما فقط دون أن أمضي.

ويا له من بؤس!

لقد أدركتُ أن ما أنتظره ليس سوى تلك الظلمة.

ولكن ما طعمها؟!

تغضَّـن وجهها وأزعجتهـا الدمعة التي تمرَّدت فوضعـت لها حدًّا بيدها وراحـت تمسحها وهي تَعِدُ نفسها بأنَّها ستكـون الأخيرة، طوت الورقة وثمة ابتسامة متألمة على شفتيها طوتها واستبدلت بها أخرى ساخرة وهي تغرق في ظلام أعماقها: لا بد أنَّني كتبتُ هذه الفوضى تحت تأثير سُكْر اليأس!

لماذا تتخـذُ مشاعرنا هي الأخرى بفعل اليأس شـكلًا حداثيًّا؟! فتخرج سائلـة بلا ملامح، وبلا نقطـة ارتكاز، كل شيء فيها قائـم بذاته ومنفصل عن البقية!

أخ؛ يا لبؤس هذا اليأس؟!

كنتُ أتساءل: لمـاذا قرنه يعقوب عليه السلام بالكفر؟! لقد فهمت الآن لماذا، أشهد أن اليأس كفر، وأي كفر هو!

لماذا أحطُّ من شأن الكتابة الآن؟! لماذا فعلتُ هذا في خطابي الأخير؟!

هل كنتُ سأصل إلى عمري هذا لولاها، نعم، إنَّ أعمارنا مقدرة من عند الله، ولكن أعتقد أن الكتابة هي أيضًا قدر.

لا يهم ما شكله ولكنَّه قدر.

إنَّـه قدر بائس لنعيشـه، فأن تكون كاتبًا يعني أنـكَ أحطت عُنقك بحبل الإعدام؛ في أية لحظة سيلتفُّ ويخنقك.

أولئك الذين يَعتقدون أنَّ الكتابة ترف ووجاهة اجتماعية، الذين يقتاتون بهـا ويتلوَّن قلمهم وفق أكل عيشهم، أتمنـى لو كنتُ قادرة على أخذهم معي الآن؛ سيجدون في الجحيم الخبز المناسب لهم.

صحيـح أنَّ الكتابـة تربِّت علـى أكتافنا وربمـا تهبنا عناقًا فـي أحايين كثيـرة، وتُهـذِّب ثوراتنا العمياء، ولكنَّها تسلبنا أعز مـا نملكه، في حين أننا نظـن أنها تمنحنا إياه -أعني الإنسانيـة- فبينما تصرخ أقلامنا احتجاجًا علـى كل ما تراه من مأساة وظلم في هذا العالم البغيض، يتسلل صوت بارد

إلى أعماقنا يُخبرنا بأننا قد أدينا واجبنا وهذا يكفي؛ لذا ربما الصمت خير من الكتابة؛ إنَّه على الأقل يُبقي نيراننا مشتعلة.

ولكن الحياة بلا كتابة هي جحيم أيضًا ولا شك.

ما الذي أفكر فيه الآن؟ هل أبحثُ عن حلٍّ لهذه المعضلة؟!

أبعدت الورقة بحركة تنمُّ عن الانزعاج ورغبة دفينة في التخلص منها، دفعت نفسها إلى الوراء قليلًا؛ لتتمكَّن من إخراج الدواء وهي تُمنّي نفسها بـ" لا تفكير بعد اليوم".

اليوم سأحطمُ قيودي وأُمكِّن لهذا الجسد؛ ليُحلق عاليًا ويسمو ويرتفع.

أمعنت النظر في شريط الدواء، ولاح في خاطرها سؤال موجع: ولكن... إلى أين يا ترى؟!

ارتجفت شفتاها وهي تُجيب: إلى الجحيم طبعًا، فما الفرق؛ ليكن من جحيم إلى جحيم!

أخرجت الأقراص، وهي عازمة أن لا تراجع بعد اليوم، عازمة ألا تكون مجرد فكرة تُحاصرها من وقت إلى آخر كشبح يخنق كل إحساس بالحياة داخلها، وما إن همَّت بقذفها في جوفها حتى لمست يدها طرف ورقة تمرَّد جزء منها وخرج من الدرج، لم تنتبه لها إلا هذه اللحظة؛ ولأنَّها تُحب التنظيم؛ وضعت الدواء جانبًا وفتحت الدرج وأدخلتها فيه، ولكنَّها توقفت قليلًا؛ لقد تذكرت أن هذه الورقة تحوي مقالًا كُتب ليُحاكمها، أعني مقالًا كُتب لأنه أراد لها الخير والأفضل. ولأنَّها إنسانة ذات حس صوفيّ آثرت الاحتفاظ به على الرغم من كل شيء، لا لاقتناعها بما فيه، بل لغايتها الملحَّة في تدمير روحها دائمًا.

نعم، تدمير؛ لا يمكن أن تكون مقالات كهذه توجَّه إلى كاتب ما سوى لتدميره، مهما لبست من ثياب النقد والنصح والتوجيه والإرشاد وحب الخير والأفضل والمصلحة!

أخرجت صوتًا لضحكة مكتومة ساخرة، وهي تُمعن النظر فيها ثم خاطبت نفسها: متى سيفهم النُّقاد أن نقدًا أكاديميًا يقول: إنَّ هذا المشهد حريٌّ أن يُحذف، وآخر حريٌّ أن يُكتب، لا يُقدم إلى الرواية ولا إلى الكاتب أي شيء، وأنَّها ليست إلا عبارات إسمنتية وُضعت فوق نص حي فقتلته. نعم، إن بعض النقد هكذا.

والأمر نفسه ينطبق على أولئك القرَّاء الذي يُحاكمون نصوصنا، بعض القراءات تُشعرك بأنك دخلْتَ غرفة مظلمة للاستجواب وفوقك إضاءة، مثل تلك التي نشاهدها بالضبط في أفلام السبعينات - لا أدري لماذا لم يخطر ببالي غيرها- المهم أنَّها إضاءة صفراء تُضفي جوًّا مرعبًا وهي تهتزُّ في السقف مع كل سطر يطرحه في وجهك ضابط الاستجواب!

لماذا قلتِ هذا هنا؟ ولماذا حذفته من هنا، ومن رأيي المتواضع لو كان هذا هنا لكان أفضل، ولا أعلم لماذا يصرُّ الجميع على أن آراءهم متواضعة؟! مع أن غالبيتها ليست آراءً!

بعض الشخصيات غير واقعية، والخيال فيها غير واقعي- ولماذا يُراد من الخيال أن يكون واقعيًا أصلًا ؟! هل عالمنا جميل إلى هذا الحد؛ لدرجة ترغبون فيها أن يكون الخيال مشابهًا له؟!

أما أصحاب العبارة القاتلة: "جيد، ولكن نتمنى منك الأفضل في القادم"، فإنهم لا يُدركون أنَّهم بذلك يقتلوننا، في حين أنهم يُبالغون في تجميل نصوص أدنى مما نكتبه قيمة وفنية؛ فقط من أجل أن يتطور أصحابها ولا يُحبَطون في بداية الطريق، أما نحن مَن قطعنا نصف الطريق وأنتجنا كثيرًا فإن معيارية الحكم تختلف عندنا كأنَّنا ندفع ضريبة تقدُّمنا! ضريبة نجاحنا!

لا يعلمــون أنَّهــم بقولهم هذا حكمــوا علينا بلعنة دوريــة الليل*، لقد دفع صاحبها ضريبة نجاحه فيها غاليًا، وكل ما أنتجه بعدها أُهْمِل بحجة المزيد من البهاء والدهشة كدهشة دورية الليل، فمات وحيدًا فقيرًا!

وبعد، أصبح كل ما أنتجه جميلًا وفذًّا!

متــى سيعلمــون أن كلَّ عمل فني يخرج كقطعة واحــدة من رحم الكاتب، لكل عملٍ جوُّه ومزاجه الخاص، لقد فصلوا كل شيء في هذا الحاضر اللعين باسم الحداثة، وعجزوا عن أن يفصلوا أعمال الروائي وقارنوا بينها!

حينمــا يقولون: إنَّ هذا أجود ما كتبتــه أو ذاك، وهذا النص أفضل مما قبلــه أو أســوأ منه، لماذا لا يُخفضون صوت ضجيجهــم؟! ألا يعلمون كم أن هذا قاس علينا؟ يمكنهم أن يُمعنوا في تشريحنا بعد موتنا كما يشاءون.

قــرأْتُ لشكسبير ذات مرة: "الجحيم يَسَع الجميع"، بودي لو أتمكن من أخذهم معي جميعًا.

تبًّا، كيف وصلت إلى هذه النقطة؟! هل أريد عبثًا أن أطيل أمد شقائي؟!

لماذا أفكر في كل هذا الآن؟! لماذا ألتقط هذه الأفكار؟!

إنه موت سيئ لا شك؛ ذاك الذي يأتي ونحن بكامل وعينا.

أمسكــت ياقــة قميصها وراحــت تُوسعهــا لتصرف نوبــة الاختناق التي انتابتها وهي تنظر إلى الدواء ثم مدَّت يدها والتقطته. أدركت أن أعصابها تالفــة للغاية مــن ارتجاف أصابعها، ومــع ذلك أخرجــت الأقراص، وما إن همَّــت بابتلاعهــا حتى راعهــا فوق روعها صــوت كتاب قرر فجــأة أن يَهْجر الرف تمردًا واتخذ له مكانًا على الأرض!

وجَّهــت ضوء المصباح إليه، لعنته في أعماقها- نعم لعنته ولا تستنكروا ذلك: فالأم تلعن أبناءها أحيانًا- يعلم هذا اللعين أنَّها تحبه وأنَّها لن تَدَعه وحيدًا هكذا دون رف!

---

* إشارة إلى لوحة "دورية الليل" أو "الحارس الليلي" التي رسمها الفنان رامبرانت وكان من نجاحها الذي حققته أن كل لوحة قدمها رامبرانت بعدها كانت تُقارَن بها وتُرفض، فكانت كاللعنة عليه!

فنهضـت مـن مكانها، كان الكتاب قـد فُتح وبدت صفحـة من صفحاته تستحثهـا على البقاء وتغويهـا لقراءتها، فردَّت عليها وهـي تلقي نظرة عن يمينهـا لمكان تحفظه جيـدًا، مكان خصصته للحـرب والسلم: لو كان ثمة سبـب يدفعني للبقاء أكثر فهـو رغبتي في قراءة (الحربُ والسلام)* ، نعم، فـذاك الكتاب الـذي اشتريتَه وخنتَه ولـم تقرأه وتركته علـى الرفّ هو من سيظـل يُطـاردك يوم البعث مـع قطعة الطعام المتبقية فـي طبقك التي لم تأكلها وأنت صغير.

إنّ هـذا أكثـر مـا يُخيفنـي الآن، بـل إنَّ مـا يخيفني حقيقة هـو رغبتي المتزايـدة في التفكير ونشر الأوهام! وهذا يدفعني لأفكر وأعتقد أنَّ اليأس مصدر من مصادر الأوهام لا شك.

انحنـت لتلتقط الكتاب ووقعـت عيناها على صفحة حَـوَت رسمة لرموز راقصـة، فعرفـت أنَّه كتاب (شرلـوك هولمز)**، وقبـل أن تصل يدها إليه توقفـت؛ راعها أنَّ الرموز بدأت تتحركُ وتهتزُّ هي الأخرى، أغمضت عينيها لوهلة من رعبٍ تملَّكها، شعرت به في برودة أطرافها فجأة.

فتحت عينيها، كانت الرموز ثابتة في محلها فعلمت أنَّها واهمة بلا شك.

أغلقـت الكتـاب وأعادته إلى مكانه علـى عجل كأنَّ فـي داخلها شكًّا ما بـأن ما رأته من هزٍّ ورقْصٍ، اليوم، كان حقيقة: خشيـت أن يعود فيتحرك مـن جديد، كمـا أنَّ عقلهـا الروائي شمَّر عـن ساعديـه وراح يحيك مزيدًا مـن الدراما والقصص، وعلى الفور بـدأ يستعيد حكايات الجان والمكتبات الملعونة والمسكونة.

ولكنَّهـا أخرسته، وضربت المكتبة بخفة وهي ترجو سقوطها فوقها علَّها تكْفيها عناء تناول تلك الأقراص!

---

* إشارة إلى رواية تولستوي الشهيرة (الحرب والسلام).

** إشـارة لقصة الكاتب البريطانـي (آرثر كونان دويل) بعنوان: شرلـوك هولمز - مغامرة الرجال الراقصين.

نعـم أقراص، هذا ما اختارتـه ليكون سبيل عبورها إلـى الجحيم، فهي تكره رؤيـة الدماء بعد كل شيء، والدماء هي السبب في تعاظُم هذه الرغبة داخلها حتى باتت ملحَّة ولا يمكنها إلا أن تستجيب لها.

رفعت كفها، كانت بـاردة مصفرة وتدعو إلى الرثاء، خلَّلت أصابعها في أطـراف شعرهـا الذي ينتهي عنـد رقبتها، هو الوحيد الذي لـم يؤذها ولم يعارضها يومًا، ولكن يبدو أنه كان مرغمًا وأن حقيقة صمته ومراعاته لها لم تكـن إلا وليدة ضغط دكتاتوري قصت مـن خلاله كل أطراف مقاومته حتى صار على هذا النحو الرجولي على الدوام.

إذن كُلنـا نمارسـ الدكتاتورية علـى كل من هم تحـت سلطتنا، تبسَّمت ساخـرة عند هـذا الخاطر، ولكن في الحقيقة هي أيضًـا أحبت هذا الشكل الـذي اتخذته لشعرها، لقد كان يُذكرها بطفولتها التي قضتها وهي تمارس كل ألعـاب الصبيـان الخطرة، حتى والدها كان يُناديهـا باسم صبي ويقول فـي أحيان كثيرة: إن ولادتها كأنثى جاءت خطأً وأنَّها ابنه الثالث، كان يقول ذلك وهو يضحك.

لاحـت على شفتيها بسمة مشتاقة لتلك الأيـام ثم اتسعت عيناها فجأة؛ لقد لمحـت شيئًا كاد يسقط فوق رأسها ويُحطِّمـه، لم يكن سوى كتاب آخر تمرَّد وتوسَّد الأرض!

مـا بـال كتبي، اليـوم، متمردة؟! هـل التقطـت آذانها لفظـة الدكتاتور فقـررت القيام بثورة ضدي؟ هل ستأمرني بالرحيل من هنا؟ أما كان عليها أن تكون أكثر شجاعة وتسقط كلها فوقي إذن؟!

انحنت وهي تتمتم انزعاجًا؛ لتلتقطه ولكن..

هـذه المـرة رأت الحـروف العربية تـدور وتتحـرك حتى شكَّلـت حلقة راقصة!

رفّت أهدابها مرارًا غير مصدقة ما تراه. ازدردت ريقها بصعوبة وظنّت أنّها فقدت عقلها، ولكنّ حلقة الرقص استمرت وتسارعت حتى لم تعد تُميز الحروف من بعضها. وفجأة أضاءت الحلقة ثم شعرت بقوة كبيرة تسحبها إلى داخلها.

أُغلق الكتاب وخلت المكتبة منها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

داخل كل منَّا (هاملت) حائرًا، وربما تجدُ نفسك ذات يوم مثله
عالقًا بين حَدَّيْن: أكونُ أو لا أكون.

كانت تشعرُ بوخز في أماكن متفرقة من جسدها، ظنَّت أنَّها في الجحيم، ولكن لمَ يبدُ الأمر كأنَّ أحدًا ما يريدُ إيقاظها! اشتدَّ عليها الوخز. ومع ذلك ما زالت عيناها تقاومان بشدَّة رافضة أن تُدرك الخبر، ولكنَّها استجابت أخيرًا عندما شعرت بيد أمسكت بكتفها وبأخرى صفعت وجهها حتى التوى عنقها، أجبرها ذلك على فتح عينيها لتقع على نصلٍ عملاق متصل بماسورة حديدية، نظرت لأعلى فأبصرت وجه رجل يلبس قبعة حديدية أثارت استنكارها، وما إن زوت عينيها يمينًا عنه حتى انتفض الرجل الذي كان ممسكًا بكتفها، ووقف ينفض يديه كأنَّه قد مس شيئًا قذرًا، وبسرعة تناول سلاحه المُثبت على الأرض الذي لم يكن إلا رمحًا آخر، فأدركت أنَّها جالسة على الأرض وأن أربعة رجال مسلحين يلبسون ملابس من طراز قديم يقفون أمامها، أخرج الآخران سيفيهما، فرجعت خطوة إلى الوراء في فزع.

هل أنا أحلم؟! مَن هؤلاء؟!

كان هذا ما يدور في رأسها، أشار أحدهم إليها وهو متجهم الوجه وصرخ بصوت مرتفع، فتراجعت خطوة أخرى إلى الوراء ثم ثبتت مكانها عندما اندفع الآخران وقاما بإحاطتها، أدركت أنَّها محاصَرة ولكنَّها لم

تفهـم كلمة واحدة مما كانوا يقولونه، كانـوا جميعًا يتحدثون بلهجة غاضبة وحانقة وكان من الواضح سخطهم وريبتهم تجاهها.

تقـدم أحدهـم منها ففزعت، وعندمـا أصبح قريبًا جـدًّا غطّت وجهها بكفيها وهي تصرخ متوسلة: ابتعدوا، أنا لم أفعل شيئًا مطلقًا.

لـم يكترث بتوسلاتهـا ولبَّبها حتى انكشف جزء مـن رقبتها وكتفها. ثم دفعهـا لتنهض فوقفت مذعورة، اقتـرب آخر منها وقام بشـدِّ ذراعيها إلى الخلـف وقيَّدها بقسوة حتى خُيل إليها أنَّها تنـزفُ الآن ثم دفعها من كتفها لتمشـي فتبعته مستسلمـة. ولكنَّها تباطأت قليلًا وهي تصـرخ معترضة: أنا لستُ مذنبة لأعامَل على هذا النحو؟! أنا لا أفهم شيئًا؟!

حدجها بنظرة غاضبة أخرستها؛ فراحت تستوضح وجوه البقية؛ تلتمس شفقـة أو رحمـة ولكنَّهـم لم يكونـوا يختلفون عنه فـي شيء، كانـوا جميعًا ينظرون إليها بريبة وقسوة، ازدرت ريقها ثم تبعتهم صامتة.

ولأول مرة لاحظت أغصان القمح حولها، عادت لتدير رأسها إلى الوراء حيث كانت مستلقية، فعلمت أنَّها كانت نائمة فوق حقل قمح دون أن تدرك!

هزَّ الرجل الذي بجوارها كتفها بقسوة لتعتدل وتتابع طريقها.

أطلقـت عينيها حولها، لمحت مـن بعيد ثلاث نسـاء منحنيات يلتقطن شيئًـا ما من الأرض، تذكرت على الفور لوحة اللاقطـات، كانت تُعلقها في غرفـة المكتبة، وكن يُشبهنها بالفعل، فكل واحدة منهن تلبس فستانًا طويلًا مزمومًا من الوسط، ومنديلًا على شعرها.

منديل!

علـى الفـور خفضـت رأسها لتنظـر إلى قدمهـا، كانت حافيـة، وتلبس المَنامـة، ولـم تكن منامـة عادية بـل مُنفِّرة وغيـر متناسقة الألـوان؛ كان القميصـ والبنطال من طقميـن مختلفين تمامًا؛ فغمرهـا الخجل، ولكنَّها اعتـادت فعل ذلك في المنزل دون اكتراث، وكان السبب الحقيقي يكمنُ في

فوضى دولابها الدائمة؛ ولأن كتابة الروايات علمتها أن تضع لكل شيء مبررًا بشكل فني، فإنَّها كانت تعزو فوضى دولابها - على الرغم من بذلها الجهد لترتيبه- إلى وجود جنِّي يختبئ فيه، وظيفته الوحيدة هي إثارة الفوضى في الدولاب ولا شك أنَّه كان أيضًا صديقًا للجنِّي المختص بإضاعة جواربها دومًا على الرغم من عدم جزمها بذلك حتى هذه اللحظة.

سرعان ما غادرها الخجل عندما وقعت عيناها على اليد الضخمة التي تقبض على معضدها وتشدُّها بقوة فأدركت وضعها البائس والصعب، عليها أن تفهم أولًا ما الذي يحدث؟! وكيف وصلت إلى هنا؟!

اللاقطات انتبهن إلى وجودها فاقتربن حتى إنَّ إحداهن قد تحدثت ووجهت سؤالها إلى الرجل الممسك بذراعها، وحينما نطق كان رذاذ فمه قد طار وحطَّ بعض منه على كتف الكاتبة؛ فاشمأزت وهي تُدير رأسها عنه، ووجدتها فرصة لتشاهد اللاقطات عن قرب، واللاتي كنّ أيضًا ينظرن إليها في الوقت نفسه في استطلاع وفضول تام على الرغم من انشغالهن بالحديث مع الجنود، فشعرت بأن شيئًا ما يبدو غريبًا؛ ملامحهن!

ملامحهن تبدو مألوفة لها!

في تلك اللحظة تجمهر أيضًا الأطفال وراحوا يرمقونها بفضول، واقترب رجلان من اليسار ليشاهدا، ولكنَّ الرجال المسلحين أبعدوا الأطفال ثم تابعوا طريقهم، فمالت برقبتها؛ لتنظر إلى الرجلين اللذَيْن كانا ينظران إليها أيضًا بدهشة واستنكار، أما هي فقد شعرت بأن وجهيهما مألوفان أيضًا!

حتى هذا الحقل شعرت كأنَّها شاهدته من قبل على الرغم من أنَّها لم تسافر ولا مرة واحدة، ولكن كل شيء يبدو مألوفًا على نحو غريب! والعجيب أيضًا أن الجميع هنا يلبسون ملابس ذات طراز قديم!

اقتربوا من قصر على طراز قصور شرق آسيا، أثار دهشتها واستغرابها، كانت بوابتاه خشبيتين، وكان يقف عليهما رجلان، فتحا البوابة بمجرد أن

شاهدا الرجــال المسلحين وسمحا لهم بالدخــول، وهنـاك شـاهدت حديقة جميلــة لم ترَ مثلها من قبل، خطف أنظارهــا تمثال فيلٍ على يمينها، وحوله حوض يخرج من خرطومه الماء، لو لم يكن هذا الرجل ممسكًا بها لاندفعت لتشاهــده من قرب، إنَّها تضعفُ للغاية أمام النوافير والتماثيل وكل الفنون، وتندفــع إليها بحماسة لا تقل عــن حماستها حينما تشتري كتابًا وتضمه إلى مكتبتها.

كانت مشغولة بالنظر إلــى التماثيل على يسارها التي كانت تزين طريق المبنــى الرئيس، عرفت من خــلال تأملها أنَّها على الأقــل تُشبه إلى حد ما التماثيــل البوذيــة واليونانية، وبسبــب انشغالها لم تشعر بــأنَّ الرجل الذي يسوقهــا قد توقف، فتقدمت عنه دون وعي، فما كان منه إلا أن سحبها بقوة من الحبل فارتدت إليه متعثرة، ثم بكل قسوة أرغمها على الجلوس وأجبرها علــى خفض رأسهــا، كان واضحًا أنــه لا يريدها أن تشاهــد الرجل المقبل عليهــم، جلس بجوارهــا مستندًا إلى ركبتيــه كما فعل الآخــرون، غير أنهم كانــوا قــد وضعوا أيديهم فوق أفخاذهم، أما هو فقــد كان يضع واحدة على فخــذه. والأخرى كان يستخدمها للضغط علــى رأسها والحرص على إبقائه منخفضًا، ومع ذلك تمكَّنت من رؤية تلك القدمين وهما تنزلان من درجات السلــم وتقتربانِ منها وتتبعهما عدة أرجل. وما إن وقف بمسافة قريبة حتى تحــدَّث وسأل الرجــل الممسك بها، فرفــع رأسه قليلًا ليُجيبــه، وبعد حوار بسيــط دار بينهمــا لم تفهم منه شيئًــا، أمسك الرجل بذقنهــا ورفع رأسها ليُشاهدهــا زعيمهم كما تصورت هي، وما إن شاهدته حتى اتسعت عيناها، ولو لم تكن يداها مقيدتين لقطَّعتهما لشدة الجمال الذي رأته!

ولولا أنَّها تعرف أنَّه من المستحيل أن يكون يوسف لظنَّته هو. كانت أمها تقــول: "إن بعضــ الجمال يتحدَّث"، ولا شك أنَّهــا كانت تعني هذا بالضبط. بــدا لها أقرب إلى تمثــال يوناني عاجي صُنع بمحبــة، أو لوحة من اللوحات

الباروكيـة، أو أنه نرسيس -وحق له ذلـك - بل ربما لو شاهده نرسيس لغار منه.

كان ذقنـه صغيـرًا وشفتـاه حمراويـن، وعينـاه - على الأخص - هما الأجمل على الإطلاق.

كانـت مشدوهـة إليه ولم تُحـرك أنظارها عنه وهو ينصـت إلى جنوده الذيـن وقفـوا بجـواره يتحدَّثـون وارتفعـت أصواتهـم وكان واضحًـا أنَّهم يتشـاورون في أمرها؛ فقد كان كل واحد منهم يتحدث إلى هذا الزعيم كما ظنتـه. ثم يعود لينظر إليهـا ويتابع حديثه، ارتجف قلبهـا وتملَّكها الخوف، ولوهلـة ظنت نفسها في برج بابل؛ فلم تكن تسمـع سوى البلبلة، وهي، فيما يتضـح لها، ليست بلبلة في صالحها مطلقًا. نظـر إليها نرسيس كما سمته، كان يلبسُ قميصًا حريريًّا أبيض بياقة طويلة على طراز القرن التاسع عشر، وفوقه معطف أسود طويل، أما شعره فكان بنيًّا يميل إلى السواد أكثر، تحرَّك وبدا واضحًا أنه يقصدها، وعلى الفور غضَّت طرفها وتملَّكها ارتباك وخوف لـم تشعر به من قبـل، سمعت صوته، لم يكن بالمرتفـع ولا بالمنخفض، ولا الرخيـم ولا الحاد، كان مميـزًا، وهو سبب آخر يدفعك إلى النظر إليه، كان واضحًـا أنَّه يُحدثها وتكررت الجملـة، فرفعت رأسها قليلًا وشاهدت حذاءه اللامـع، كان الرجل الذي بجوارها قـد فقَدَ صوابه، فعاد ليُجبرها على رفع رأسها بالقوة فأوجعها مرة أخرى، وهنا رأته بوضوح أكثر، وراودها إحساس غريب حياله إحساس بالنفور!

أثار ذلك حيرتها؟ كيف تنفر من جمال كهذا؟!

شعـرت أيضًـا بأنَّها شاهدت هذه الملامح من قبـل، لا لم تشاهدها في اللوحـات الباروكية ولا في تماثيلهـا، لا نرسيس ولا غيره، لقد كانت مختلفة وشاهدتها ولكن أين؟ لماذا ذاكرتها تبدو عاجزة الآن عن التذكر؟!

خفضت عينيها خجلًا. وعلى الرغم من الخوف الذي غمرها والإحساس بالنفور، كانت نسمة الهواء التي حركت أطراف بنطاله الأسود قليلًا قد نشرت رائحة عطر زهور الليلك الفواحة فأنعشتها لحظة.

أدام النظر إليها ثم قال كلمة لم تفهمها، ولكن سرعان ما عرفت القصد منها عندما وقف الرجل الذي بجوارها ودفعها لتقف، وعندما اعتدلت ورفعت رأسها اقترب منها نرسيس، وراح يتوضَّحها، شعرت ببرودة أطرافها وأنَّ ثمة ما يسحبها نحو الأرض؛ كأنَّ الجاذبية الأرضية قد ازدادت فجأة!

إن أردت أن تربك شخصًا ما وتخرجه عن طوره، فانظر في عينيه مباشرة دون أن تطرف، إنَّ هذا كفيل بجعله يشك في نفسه وهذا ما حدث معها، فحينما طال وقوفها وهدأت بلبلتهم وأطال هذا النرسيس الجميل النظر إليها، خرجت الكلمات من شفتيها مرتجفة: صدقوني أنا لست مذنبة ولم أفعل شيئًا، لماذا لا يُحدثني أحد ما بلغة أخرى؟!

لاحت على وجوههم نظرات الاستنكار، بمن فيهم نرسيس، صمتت تراقبهم لحظات قبل أن تكمل: هل أبدو لكم كشيطان؟! لماذا تنظرون إليّ هكذا؟! هل النوم في حقل قمح جريمة؟!

ثم تابعت بتهكم: أم أن السبب يكمن في ملابسي المنسقة؟!

اتسعت أعينهم غاضبة، فتراجعت خطوة إلى الوراء! وراقبت إيماءاتهم بوجل وراحت تلوم نفسها: هل يُعقل أنهم فهموا ما قلته؟! لماذا زاد استنكارهم إذن؟!

عادوا ليتحدثوا ويُعلِّقوا، وهذه المرة كان من الواضح أنَّ حنقهم قد ازداد حيالها، حتى نرسيس الجميل انقلبت نظراته المستطلعة إلى نظرات غاضبة هذه المرة!

لقد أدركت أنَّهــا أخطأت بحديثها، ليتها صمتت ولم تتحدث، كزَّت على أسنانهــا وراحت تُراقب حركات شفاههم الغاضبة وهي تلعن استعجالها في أعماقها.

هل أُشبه مجرمًا هاربًا أو شخصًا مريبًا يشتبهون به، أو قاتلًا متسلسلًا يا ترى، حتى ينظرون إليَّ على هذا النحو؟!

غطَّـت وجهها بيديها وفرَّت منها صرخة مكتومة جعلتهم يصمتون فجأة ثم نطقت: كيف أصبحت هنا؟ هل ابْتلعنِي ثقب أسود؟!

استوعبـت أنها تحدثت بما فكرت فيه بصـوت مرتفع جعلهم يصمتون، فأبعدت كفيها ونطقت: لم أقصد شيئًا.

ثم أردفت: ولستُ شريرة كما تظنون.

راقبـت وجوههم، ولاحظت اشتـداد استنكارهم؛ فراحـت تكرر وتؤكد: أقسم لكم أنني لم أفعل شيئًا.

ثم أشارت إلى الخلف وتحامقت وهي تقترح: لذا دعوني أعد إلى الحقل، وأبحث عن...

قالــت ذلك وقد خطت خطـوة إلى الوراء، فلمحت يـد أحد الرجال وهو يضعهــا على غمده؛ ويهم بإخـراج سيفه، فانتفضت وأردفـت: لن أتحرك، كنت أمزح طبعًا.

في تلك اللحظة دارت أعناق الجميع يمينًا؛ حيث علا صوت دندنة جميلة خرجـت من في رجل كان ينزل درجات السلم ويقترب منهم، لم تتمكن من مشاهدته إلا حينما وقف بمحاذاة نرسيس، وكان أول ما شاهدته هي أسنانه البيضــاء التي لمحتها من خلف رقبة الزعيـم، فمالت برأسها قليلًا لتتمكَّن مــن مشاهدته، فرأته يبتسم، لكن يبدو أن الأمر لم يَرُق لنرسيس؛ لقد كان واجمًــا ويسدد إليه نظرات ازدراء، ومع ذلــك لم يبد على الآخر أي انزعاج وعبَــر من جـوار نرسيس بهـدوء، ودنا منهــا ليُعاينها هو الآخـر، فاعتدلت وراحت ترمقه بإمعــان، لم تكن ملابسه بفخامة نرسيس، كان يلبس بنطالًا

أسـود وقميصًـا أبيض طويـلًا، وقد ظهر جزء من صدره الـذي عُلِّقت عليه قـلادة غريبة الشكل، وفي وسطه رَبـط نطاقًا عَلَّق عليه سيفه، وقف أمامها بالضبـط، لم يكن جميلًا ومبهـرًا مثل نرسيس، ولكنَّه لـم يخل من جمال، كانت لملامحه لمسة هادئة وباردة تبعث الاطمئنان بالنفس، ولكنّ ثمة شيئًا غريبًا فيه لم تستطع معرفته. ولم تعلم لماذا خفضت رأسها سريعًا بمجرد أن أصبـح ماثلًا أمامها، وفوجئت به وقد ثبـت يديه على كتفيها، ثم تحدَّث بشـيء ما وضحك بصوت مرتفـع فدفعها ذلك لتنظر إليه، ترك كتفها ودار بنصـف جسده نحوهـم وما زال ممسـكًا بكتفها الأخرى وقـال عدة كلمات جعلـت بقية الرجال يبتسمون ويدارون ابتسامتهم كأنَّهم يخافون شيئًا، لكن نرسيس لم يضحك ولم يبتسم!

مـا بال هذا النرسيس لا يبتسم قط؟! يبـدو أن أصحاب الجمال المُبْهر يتعالـون ويتكبرون عن التبسُّم؛ لأن البسمة بالنسبة لهم ليست إلا كالورنيش على لوحة مثالية!

هكذا كانت تُفكر وهي تنظر إليه وهو يحدِّق متجهمًا في الرجل الممسك بكتفهـا ثم قـال شيئًا، فأظلمت ملامـح الآخر وتبـددت ضحكته، ومع ذلك استطـاع أن يحتفـظ بطيـف ابتسامـة شاحبة علـى شفتيه، كانـت تراقب الإيمـاءات بانتباه شديد، وشعرت بـأن علاقة هذين الاثنين متوترة إلى حد مـا، وهـذا الممسك بكتفهـا الآن لا شك أنَّ لـه مكانة ربما لا تقـلُّ عن هذا النرسيس ذي القميص الحريري.

للإيمـاءات دلالات لا تستوعبهـا اللغة أو أنَّها في كثير من الأحيان تُعطي دلالات نحاول أن نخفيها باللغة.

شعـرت بأصابعه وهي تضغط على كتفها بقـوة أكبر، كان واضحًا أن رد فعله هذا من أثر حديث ذلك النرسيس، كأنَّه يُفرغ غضبه الخفي فوق كتفها على الرغم من برودة ملامحه وابتسامة شفتيه.

عـــاد لينظر إليها، ولأول مــرة تلحظ شيئًا غريبًا آخر في حركته، شعرت بأنَّها غير متزنة أو أنَّها لا تملك بوصلة، ودون شعور أبعدت رأسها إلى الوراء قليلًا في حرج، كانت عيناه هما أكثر ما لفت انتباهها، كانت ساخرة! ولوهلة مــرت بخاطرها عينــا (فولتير) الساخرتان في لوحتــه المشهورة، وأحسَّت بأن عينيه تُشبهانهما إلى حد كبير باستثناء أنَّ فيهما غموضًا غريبًا.

قــال شيئًا لنرسيس ثم فوجئــت به يُمسك كتفها الأخــرى ويميل برقبته نحوهــا فاتسعت عيناها ذاهلة وأمالت رقبتها إلى الوراء عاجزة عن تخمين مــا ينوي فعله، أغمضــ عينيه ومال عليها أكثــر فأغمضت عينيها وخفضت رأسها قدر ما تستطيع وتغضَّنت كل ملامحها خوفًا؛ خشيت أنْ يهمَّ بتقبيلها؛ كانت حركته لا تشــي إلا بذلك، امتلأ رأسها بالاحتمالات المنتظرة، وبدأت تُعيــد قراءة المشهد من جديــد، هؤلاء الذئاب كانوا يتشــاورون في التعدي عليهــا وقتلهــا، وعليهــا أن تصبح جاكي شــان الآن، وتقفز إلــى الوراء بقوة خارقة وتُمزق حبال يديها بعد حكِّها على حواف أقرب تمثال وو..

طارت كل أفكارها الروائية الخرقاء تلك، بعدما أحست أنَّ رأس صاحب عَينيّ (فولتير) أصبح قريبًا من كتفها، ففتحت عينيها ونظرت، كان بالفعل قد أمال رأسه ولكن بموازاة كتفها!

فخفضــت كتفها قدر ما تستطيع؛ لئلا يلامســ ذقنه، وعجزت أن تفهم وتفســر فعلتــه، لاحظت أنه كان يشــمُّ رائحتها! وعلى الفــور تذكَّرت أنها لم تستحم البارحة فأشاحت وجهها بحرج، وحينما شعرت بضغطة خفيفة على كتفيهــا عادت لترمقه باستغراب، لاحت انحناءة خفيفة على زاوية فمه، هل كان يسخر منها؟ هل رائحتها فظيعة إلى هذا الحد؟!

سرعــان ما أخرجهــا من زوبعة أفكارهــا تلك وأبعد رأســه وراح يُحدِّث نرسيــس، لكنّ ثمة شيئًا قد تغير في صوته تمكَّنت من ملاحظته، أضف إلى ذلــك أن التوتر كان واضحًا على وجهــه، أمالت كتفها الأخرى علَّها تتخلص من يده لكنَّــه كان مُحكمًا قبضته عليها، وخــلال محاولاتها المستميتة هذه

توقفت فجأة بعد أن شعرت بأنه أرخى قبضته أخيرًا ثم رفع يديه عنها ولكنَّه عاد وربَّت على كتفها اليسرى مرة واحدة جعلتها تنظر إليه بدهشة، ثم عَبَر من جوارها وهمس إليها بكلمات لم تفهم منها شيئًا لكنَّها شعرت حيالها بالاطمئنان، وشعرت بأن هذا الرجل بالتحديد على خلاف الجميع يقف في صفها، ولكن لماذا؟! وما الذي يدفعه إلى ذلك؟!

التفتت تتبعه بنظراتها وهو يُغادر نحو البوابة، لكن ذلك لم يدم حتى خروجه. فقد التفَّ حولها الرجال، فعادت تنظر إلى نرسيس، لم تلحظ أنَّه قد شاهد الرجل الذي غادر قبل قليل وهو يهمس إليها، كان وجهه مظلمًا، ونظراته قاسية، وكان واضحًا أنَّه أعطى أوامره التي حتمًا لم تكن لصالحها؛ فلا تزال مربوطة اليدين وسيقت مرة أخرى إلى مكان تجهله.

عندما انعطفوا بها يمينًا وعبروا الحديقة، لمحت ذلك الرجل صاحب عينيْ (فولتير) يتَّكئ على السور وهو مكتِّفٌ ذراعيه وقد أغمض عينيه، كان يبدو كتمثال لرجل أرستقراطيّ من القرن التاسع عشر.

عبروا من جواره وثمة ما يدفعها لتحدِّق إليه، هي شاهدته من قبل، هذا الشعور لازمها مع الأغلبية هنا، ولكن على وجه التحديد تشعر تجاهه بشيء مختلف، كأنَّها تعرفه على وجه الخصوص!

دفعها الجندي لتتقدم فتابعت طريقها، وظلَّت تلْوي رقبتها بإصرار لتُشاهده إلا أنَّه ظلَّ على حاله خافضًا طرفه!

مشت معهم طويلًا ثم وجدت نفسها أخيرًا داخل زنزانة، وأُغلق الباب عليها. فأدركت الآن أن ذلك النرسيس اللعين والمغرور قد أمر بسجنها! الآن يبدو شعورها بالنفور حياله مبررًا.

حاولت أن تعترض وتسأل عن السبب، ولكن بدا كل ذلك عبثًا حينما تنقطع اللغة.

راحت تُعاين زنزانتها بيأس، كانت خاوية من كل شيء ما عدا نافذة تسمح بدخول ضوء القمر، ولكنَّها مُرتفعة جدًّا ولا تستطيع الوصول إليها، تساءلت: إنَّ أي إنسانٍ لن يصل إلى طولها، فلماذا وضعوا القضبان عليها؟!

أطلقت تنهيدة ثم اتخذت لها ركنًا في الحجرة واتكأت عليه، وراحت تفكر في كل ما حدث لها منذ الصباح، بل منذ الليلة الفائتة. ما الذي حدث يا ترى؟!

كل ما تذكره هو لحظة دخولها المكتبة، ثم لم تعد تذكر شيئًا، خيَّم عليها الضيق وحطَّ عليها بأثقاله، فراحت تمسح على ذراعها لتشغل نفسها، ثم عادت لتُفكر: ما الذي حدث؟ كل ما أذكره هو أنني ولجتُ المكتبة! فكيف أصبحت هنا فجأة؟! وذاك الحقل لماذا أشعر بأنَّني شاهدتُه في مكان ما؟ حتى ملامح الجميع بدت لي مألوفة. ذاك النرسيس، وصاحب عينيّ (فولتير) الساخرة!

هذا غير ممكن ولا منطقي ولا وارد؛ أن تكون في مكان ما ثم تستيقظ لتجد نفسك لا في مكان آخر بل في عصر لا يُشبه عصرك؛ فالمباني والأمكنة وطراز الملابس والأسلحة كُلها قديمة وتبدو لي من القرن التاسع عشر!

حسنًا، إنَّه حلم؛ فهذا ما يحدث في الأحلام، لا شيء مُتناسق فيها البتة؛ بإمكان سفينة ما أن تطفو وسط غرفة، وأن تُحلّق طائرة داخل منزل.

أنا أحلم وسأستيقظ.

ضربتْ خدها فشعرتْ بالألم، ولم تكتفِ بذلك بل راحت تقرص ساقيها! ألا يفترض أن أستيقظ الآن؟! هل يحتاج الأمر لأقرص نفسي أكثر وأوغل في ألمي؟! ولكن أليست القرصة والضربة داخل الحلم حلمًا؟! فلماذا أشعر بالألم؟!

هزَّت رأسها متبرِّمة وصاحت: كلا، إن تابعت التفكير بهذه الطريقة فسأصاب بالجنون.

نهضت ووقفت تحت النافذة، رفعت رأسها تنظر إلى حدها، وراحت تُحدِّث نفسها: هذا ليس حلمًا، إن ما عشته حقيقة، لقد شعرتُ بكل شيء حتى إن ذقني ما زال يُؤلمني من أثر قبضة ذلك الرجل وكتفي، كتفي...

في تلك اللحظة فُتح باب الزنزانة وظهر من خلفه أحد الجنود وهو يحمل بيده شيئًا ما، اقترب منها وناولها إياه، أخذته وعرفت أنَّه ثياب، رمقته برجاء وهي تحدِّثه: أريد ماءً وطعامًا.

لم يبد أي تعبير؛ فراحت تشير إليه بيدها؛ علَّه يفهم حاجتها إلى الماء ويبدو أنه قد فهم ما تريده ولكنَّه نظر إليها بازدراء وأغلق الباب خلفه، فعرفت أن حصولها على الماء الآن حلم.

ولكن لماذا يُعطيها الثياب ولا يُعطيها الماء؟!

نظرت إلى الثياب؛ كانت بنطالًا وقميصًا لونهما أسود، ولأول مرة تلحظ أن ثيابها قد بُهت لونها كأنَّه مضى عليها مائة عام، ناهيك عن بعض التمزقات التي لاحظتها للتو فقط، خلعتْها بخجل وخوف وعيناها تُحدقان ناحية الباب، وأدخلت البنطال والقميص سريعًا، ثم عادت إلى مكانها، ضمت رأسها بين ساقيها، ثم بدأ نداء الطبيعة يلحُّ عليها، بطنها يصرخ، ومثانتها هي الأخرى تصرخ وتتألم.

كل ذلك يثبت لها أنَّها لا تحلم، لكن ليس هذا وقته أيضًا، راحت تهزُّ رجليها علَّها تُلهي نفسها، ولكن حتى هذا لم ينفع.

إذن لتُفكِّر.

تفكِّر؟!

لقد أرادت أن تتخلص من التفكير، لكن يبدو الآن أنَّ التفكير هو الشيء الوحيد الذي سيساعدها.

تحدَّثت وهي تصرُّ على أسنانها: أشعر بأن أحدًا ما أراد أن ينتقم مني وقذف بي إلى هنا.

ثـم نهضت بحثًا عن شيء ما تُفرغ فيـه مثانتها، ربما الظلام منعها من الرؤيـة أول الأمر ولكنَّها في النهاية لم تجد شيئًا، وعندما أدركت أن الحيل قـد تقطَّعت بها انتصبت واقفـة في منتصف الغرفة ثـم تراقصت ساقاها وهي تصرخ: لن أحتمل، سأنفجر.

ثـم جمـدت فـي مكانها وجفلـت عيناها عندمـا لمحت ظـلًا يقف على النافذة، توضَّحت الأمـر وعندما تأكَّدت أنَّ شخصًا ما يقفُ فعلًا، صاحت: من أنت؟!

أشـار لها بالصمت، ففهمت واقتربت أكثـر لتُميِّز ملامحه فلم تستطع؛ لأنـه كان يحجـب ضـوء القمر بجسده، ولكـن عندما أمال رأسـه قليلًا إلى اليمين لينظر إلى الخارج، تمكَّنت من إبصار جزء من ملامحه، فعرفت أنَّه الرجل صاحب عينيّ (فولتير)، فسألته متعجبة: ما الذي تفعله؟!

لم تنتظر الإجابة وأردفت بيأس: نسيتُ أن لا أحد يفهمني هنا.

صـوت احتكاك شيء مـا بالخشب جعلها تحاول رفـع جسدها بأطراف أصابعهـا، كان الرجـل يقوم بنشـر خشب النافذة، فأوقعهـا ذلك في حيرة وصدمـة، فدنت وهي تسأل نفسها: ما الذي يفعلـه؟! هل يحاول إخراجي؟! أيعقل؟!

ثـم بسرعـة دارت أفكارها إلـى وجهة أخـرى؛ فأضاء وجههـا، وعلَّقت بصـوت مرتفـع: لقد شعـرتُ بذلك عندما همس لي، شعـرت بأنَّه سيكون منقذي، كما في الروايات.

لاحظـت توقفـه ونظرته المتهكمـة التي رمقها بها، فشكَّـت في كونه قد فهـم هذيانها الروائي قبل قليل، فأرتج عليهـا لحظات كانت خلالها تحاول اقتحامـه بنظراتها الحائرة، ثم سرعان مـا راحت تتابع ما يفعله بحماسة، تمكَّن من خلع العمود الأول ثم شرع ينشر الثاني ولكنَّه توقف فجأة؛ لقد سمع صوتًا يأتي من الداخل بينما لـم تسمعه هي، وبسرعة أعـاد وضع الخشبة الأولـى مكانها ثم قفز، أثار ذلـك استغرابها ولكنَّ سرعان ما سمعت صوت

أقـدام تقترب من باب الزنزانة ففهمـت سبب انصرافه وعادت إلى مكانها الأول. فتح الحارس الباب وراح يراقبها لحظات، ثم ألقى نظرة شاملة على الزنزانــة، وما إن رفع رأسه إلى النافذة حتى صرفته بحديثها وأشارت إليه وهي تضمُ كفها وترفعها إلى فمها لتُخبره عن رغبتها بالماء مرة أخرى، لوى فمه ثم أغلق الباب.

تنفســت الصعداء ثم وقفت وعادت إلـى النافذة وسمعت صوت الأقدام وهــي تتسلق الجدار فعلمت أنَّه قد عاد، وما هي إلا لحظات حتى كان جالسًا على طرف النافذة، ودون أن ينطق كلمة واحدة راح ينشرُ العمود الثاني.

بجسدها هذا يمكنها أن تخرج من خلال العمودين فقط، ويبدو أنَّه كان مدركًا لذلك، فما إن انتهى من نشره حتى أسند يده إلى الجدار ومدَّ الأخرى لها وفوجئت به يقول: هات يدك.

ظنت أنَّها واهمة ولكنَّه عاد ليُكرر طلبه: هات يدكَ بسرعة قبل أن يصل الجنود.

عندمــا لــم تجبه، ثبَّت يده جيدًا علــى الجدار وراح يمــدُّ الثانية قدر ما يستطيع، وهــذه المرة لاحظت أنَّه كان يمدُّها إلى الجهة الأخرى وهو يقول: ألا تسمع؟!

فاتجهت إليها ووقفت تحتها مباشرة ولم تستطع أن تلتقطها، على الرغم مــن محاولتها المستميتة، وأخيرًا عبَّرت عن عجزها قائلة: لا أستطيع، إنَّها بعيدة عني!

قال: اقفز، وحاول.

ثم مال بجسده أكثر، وهو يردف: قلتُ بسرعة.

أخــذت نفسًا ثــم حاولت أن تقفز، فشلت في الأولــى والثانية والثالثة ثم تمكَّنت من التقاط يده.

حــاول أن يرفعها وحاولــت أن تتسلَّق مستفيدة من بعضـ النتوءات على الجــدار، وبالفعل ما إن صعدت إلى حد معيــن واقتربت منه حتى تمكَّن من

رفعهــا فجلســت على حافة النافــذة، اعتدلت وعبَّرت عــن استنكارها: أنتَ تفهمني؟! تتحدثُ لغتي؟! لماذا لم تقل ذلك صباحًا؟!

أظهر استنكارًا وهو يجيبها: كان كلامكَ واضحًا لنفهمه.

تعجَّبــت قائلة: أتعني أن الجميــع كان يفهمني منذ الصباح؟! لكن أنا لم أكن أفهم ما...

قاطعها وهو يقول: بسرعة لنقفز.

نظرت إلى الأسفل مذعورة واعترضت: ولكن المسافة...

لــم تكمــل؛ إذ كان قد قفز ووصــل إلى الأرض ثم اعتــدل وهو يحثُّها: ما الذي تنتظره بسرعة، الجنود يقتربون، هيا.

اتسعــت عيناها وهي تعاين المسافة وصاحت معترضة: كيف سأقفز من هنا؟! أتظنُ أنني عباس بن فرناس مثلًا؟!

ولكنّه أخرسها قائلًا: اقفز.

فلم تجد بُدًّا من المقاومة والرفض، ولا خيار أمامها فأنزلت ساقًا وهي ترتجف، وتمتمت: لا شك أنَّه يمزح! إن قفزت الآن فستُكسر قدمي بالتأكيد.

ألــحَّ عليها بصوت مكتوم لئلا يُثير انتباه الجنود، وكان واضحًا أن صبره قد نفد وهو يتمتم: قلتُ بسرعة، ألا تفهم؟!

تأهبت للقفز لكن القفز وأنت جالس على حافة نافذة يبدو أصعب بكثير من القفز وأنت واقف.

شــرع ذراعيه فــي الهواء ليحثُّها أكثــر وهو يقول: لا تخــف، سألتقطك. اقفز.

أغمضــت عينيها وسرحــت بخيالها وراحت تُفكِّر لــو كان ما تعيشه الآن مشهــدًا من فيلــم أو رواية فسيكــون بالتأكيد المشهــد الكلاسيكي المبتذل الذي سيــؤدي إلى وقوعها بين ذراعيه، ومن ثــم وقوعها في غرامه، أخذت نفسًــا عميقًــا. وعلى الفور رمت نفسها ولكنَّها لم تقــع في غرامه ولا عانقت ذراعيــه حتى؛ بل وجدت نفسها علــى الأرض تضمها في عناق عنيف، كانت

يداها ممدَّدَتين وقد نالت من خدها الحصوات الصغيرة التي تحولت بفعل السنين إلى سكاكين صغيرة فتركت عليه خدوشًا هنا وهناك، وكان التراب قد التصق بهذه الخدوش التي انفتحت وسالت منها الدماء قليلًا.

شعرت بحرقة في خدها وراحة كفيها، فأيقنت أنَّ الجاذبية الأرضية قد نالت منها هي الأخرى، فتحت عينيها لتقع على حذاء فارسها المُنقذ مع وقف التنفيذ؛ صاحب عينيّ (فولتير) الساخرة والذراعين المعطلتين عن العمل، هكذا فكَّرت وهي تعتدل جالسة تنفض التراب من خدها وكفيها، وراحت تلومه: كيفَ وثقتُ بك؟! كان سقوطي مؤكدًا.

انحنى قليلًا وهو يعتذر: آسف، لقد أخطأت، هل أنتَ بخير؟

نهضت وهي تمسح ما علق على ثيابها وأجابته: نعم، ولكن أشعر بأنَّ أطرافي قد تكسَّرت...

صمتت فجأة؛ إذ أشار لها بالصمت وأغمض عينيه وأرخى سمعه.

أما هي فراحت تنظر حولها، كان المكان يبدو خاليًا تمامًا ثم عادت لترمقه بدهشة، كان على حاله ويبدو أنَّه يحاول التقاط صوت ما، حرَّك ساقه يمينًا ومدَّ يده ناحيتها ولكنَّه عاد ليخفضها، شعرت بحرقة خدها فراحت تحكُّه بأصابعها ثم فوجئت به يمدُّ يده لها مرة أخرى ولكنها شعرت لوهلة بأنه قد أخطأ ثانية في تحديد اتجاهها، عَزَتْ ذلك لإغلاقه عينيه وفتحهما فجأة، دفعها لتركض يمينًا ولم يكن أمامها خيار آخر غير أن تتبعه وحسب، توقف عن الركض، ثم دفع بها نحو الأشجار التي كانت على جانب الطريق، واختبأ خلفها وهو يقول: لا تُحدث صوتًا؛ الجنود قادمون من هناك.

أثار ذلك استغرابها؛ فلم تشاهد أحدًا ولم تسمع صوتًا!

لكن لم تمضِ لحظات حتى فوجئت بمجموعة من الجنود بالفعل تقطع الطريق الذي أشار إليه.

شعـرت بالخـوف إلـى درجـة جعلتها تتعـرق، ويبـدو أن منقذهـا شعر بارتباكها فضغط على كتفها ليطمئنها قائلًا: لا تخف. سأخرجك من هنا.

ومـا إن عبـر الجنود حتى خلع الرجل قميصه الأبيض الذي كان يلبسه فوق قميص آخر وأعطاها إياه وهو يقول: خذ هذا.

عاينته ثم أفصحت معترضة: الأسود لا يمكن تمييزه في الظلام بخلاف هذا!

وضَّح قائلًا: إنَّ لباسك الأسود هذا هو لباس المحكوم عليه بالإعدام.

جحظـت عيناها لحظات قبل أن تحيط رقبتهـا وهي تقول: إعدام! وهل كنتُ سأعدم دون محاكمة؟! أين أنا؟! مكتبة سُر مَن قرأ

نعـم صباحًـا، إنَّهم يُعدمـون كل شخص يشتبهـون به. إنَّهـم يشتبهون بكونك اللاجئ الذي هرب ولكنني أعرف أنه ليس أنتَ؛ يمكنني معرفة ذلك من رائحتك.

صمـت عن التوضيـحِ أكثر وهو يُشير لها بالصمـت، أما هي فقد فهمت الآن سـر تصرفـه الغريـب صباحًـا. وعندما تأكـد أن لا أحـد يتبعهم عاد ليسألها: أحقًّا لم تفهم شيئًا مما قلته لكَ صباحًا؟!

أقسمُ لكَ أنني لم أفهم ما قلتَه ولا شيء مما قالوه، ولا أعلم كيف يمكنني فهمك الآن!

لا يهم هذا الآن، لا أريد لأي إنسان آخر أن يُعدم لكونه لاجئًا فقط.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تسأل: وهل تقتلون اللاجئين؟!

أومـأ مؤكِّدًا، ثـم أمسك يدها ونهض وراح يُحرك رأسـه يمينًا وشمالًا ليفحص المكان، أما هي فقـد أحاطت رقبتها وهي تخاطب نفسها: ما هذا الجنون؟! أينَ أنا؟!

لمـا أدرك خلو الممر؛ شدَّ على يدهـا فأخرجها من سرحانها المذعور، ثم خرجـا بسرعة إلى الممر الخاوي وتابعا الركض، لكنَّها صاحت لتوقفه فجأة بعد أن أحسَّت بالتعب: مهلًا..

أدار نصف وجهه لها، فسألته: ما الذي يُحدث بالضبط؟ إلى أين نذهب؟

عندما طال صمته ولم يجبها أردفت: إنني في حيرة وشتات، ولا أعرف ما الذي حدث معي، ولا أفهم شيئًا مما يجري، وأظن أنني أحلم، أهذا حلم؟!

صرف وجهه عنها فجأة ثم قفز على الفور وجذبها إليه ليختبئ خلف شجرة وأشار إليها بالصمت فهدأت، ثم أمعنت النظر إلى عنقه المائل، وسمعته يقول همسًا: الجنود، أكثر من قبل.

أزاح كفه عن فمها ثم ثبته على كتفها وراح يُراقبهم، وما هي إلا لحظات حتى أصبحوا في الممر وبدأت أصواتهم تعلو وكان واضحًا أنّهم يبحثون عنها.

كزَّ على أسنانه ونطق دون أن يُحوِّل وجهه ناحيتها: لقد أخبرتكَ أن نسرع ولكنكَ تلكأت! لقد عَلِم الحراس بهروبك، ولا شك أن بوابات القصر كلها مُغلقة الآن.

انقبض وجهها مع قلبها ومضت عليها لحظات من الرعب ثقيلة قبل أن ينصرف الجنود فسألته ببراءة استنكرها: هل هذا يعني أنكَ ستسلمني إليهم؟!

أدار رأسه ناحيتها وظلَّ محدقًا إليها دون أن ينطق بأي شيء، أربكها ذلك، فغضَّت طرفها ونوت أن تتراجع إلى الوراء لتتحرر من قبضته ولكنَّه ثبتها أكثر وهو يعلِّقُ: أعلمُ شيئًا واحدًا، أنا وأنتَ مجنونان.

ثم صمت لبرهة، فاسترقت النظر إليه، ولاحظت استغراقه في الحيرة، فخفضت طرفها بيأس إلى الأرض وعلَّقت: لا بأس، يبدو أنني قد ورطتكُ بإنقاذي، حتى إن سلمتني أو لم تفعل، فسأموت على أية حال، إن كان قدري أن أموت غدًا فعليَّ أن أقبل ذلك.

عندما طال صمته مرة أخرى نظرت إليه، كانت ملامحه تشي بألم خفي وانزعاج واضـح، فدفعها ذلك لتردف موضِّحة: هل أزعجتك؟ أليس الموت هو مصيرنا في النهاية فلماذا نخاف منه؟! هذا كل ما قصدته.

أشاح بوجهه وقـذف إليها تعليقًا جعلها تقف مفكرة: تتحدثُ عن الموت كأنَّه لا شيء! عليكَ أن تتوقف عن ذلك.

ثم نهض وراح ينفض ما علق بيده من تراب، أما هي فظلَّت جالسة ترتب فوضـى جنانهـا، تقتحمه بعينيها محاولـة أن تقرأ تعبيـرات وجهه ومعرفة مصيرهـا الذي ينتظرها، فكلماتـه لم تكن كافية لإيضاح حقيقة ما يجري، وكلماتُهـا كشفـت عن مدى يأسهـا، ولم تعد قادرة علـى الاستمرار في هذه المكابرة، وفضحها سؤالها: هل ستتركني إذن؟

توقـف عن النفض وكشر عـن أسنانه متعجبًا، كانت هـذه المرة الأولى التـي تلحظ أن سنَّيه الأماميتين بهما فُرجة بسيطة لم تلحظها من قبل، مدَّ لها يـده وقال ليُزيح عنها هذا الخوف والقلق: لقـد جئتُ أصلًا لآخذك إلى منزلي فلا تخف.

نظرت إلى راحة يده ثم توضَّحته بنظراتها وهي تشعر بأنَّها تعرفه جيدًا أكثر من ذي قبل! حينما لاحظ تلكؤها حرَّك يده ومال قليلًا وهو يقول: أنت! لا وقت نضيعه.

نهضت تنفض ثيابها وهي تردُّ: اسمي...

قاطعها بقوله: أعرفُ اسمكَ جيدًا.

اسمكَ!

أبـدت استنكارًا وهي تفكر: هـل كان يَعتقد أنِّي رجل منذ البداية؟! كيف لـم أنتبـه إلى طريقة خطابه إلا للتو؟! يبدو أنَّنـي مضطربة جدًّا، ربما حتى هـم كانوا يعتقدونني كذلك، وهذه الثياب الرجالية التي أعطوني إياها خير دليل على هذا. ولكن كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟!

مدَّ يده مرة أخرى وهو يُؤكد: هيا بنا.

راحت تنظر إلى يده الممدودة وتُقنع نفسها: لا بأس لأبقي الأمر كما هو عليه، كنتُ أحب أن ألعب ألعاب الصبيان وأنا صغيرة، وشعري لطالما قصصته، وهذا المكان كله يبدو كحلم بشكل غريب!

وأخيرًا أمسكت يده، وانتابتها قشعريرة غريبة. إحساس مربك لم تشعر به من قبل، هي عواطف لم يختبرها أحد من قبل! فلم تقرأ عنها قط في كتبها، ولم يتحدَّث عنها أحد، ولم تكن لتدرك آنذاك أنَّه سيصعب عليها بعد ذلك تركها، هي التي اعتادت أن تتجاهل أشياء كثيرة فقط لئلا ترتبط بها، هي التي اعتادت ألا تقوم بالواجب حتى لا تضطر يومًا لتقوم بما هو أوجب منه، كان مذهبها الدائم في الحياة هو التخفف.

التخفف من كل شيء: من العلاقات، من المشاعر، من الناس، كل شيء ما عدا الكتب، ولم تفعل ذلك إلا ليسهل عليها المغادرة بلا أي ثقل.

ظلا يسيران مختبئين خلف الأشجار لمسافة طويلة، وكان واضحًا لها أن من يرافقها يعرف هذه المنطقة شجرة شجرة، كان طوال الطريق صامتًا ولكنَّه قبل أن يصل توقف وقال: ما أعرفه جيدًا أنَّ المصيرَ لا يعني بأية حال من الأحوال الاستسلام، بل يعني المقاومة. أنتَ أجهل شخص قابلته عجز عن فهم هذه البديهية!

لم تتوقع أن تتلقى هذه الإهانة منه، فتوقفت ترمقه مستنكرة، وهمَّت بسحب يدها وهي تردُّ: جاهل..

تلعثمت وهي تعيد: جاهل؟! كيف حكمت عليّ فقط من قول قلته تحت ضغط الخوف والقلق؟! أتعرف كم كتابًا أقرأ في السنة ؟! حتى تنعتني بالجاهل!

تابع سيره ولاح طيف ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يعلّق: لا يهمني عددها ما دامت لم تُعلمك فهم هذه البديهية.

حدجته بغيظ، شعرت بأنَّها تلقت إهانة لم تتخيل أن تتعرض لها يومًا، كيف يحكم عليها بالجهل من كلام قالته خوفًا؟! وما الذي قالته؟ هل

يعتقـد أنَّها تفهم أن الإيمان بالقـدر استسلام؟! لمجرد ذكرها الموت بتلك الطريقة! لم يكن هذا ما تعنيه على وجه الدقة.

توقفت فجأة بعد أن أربكتها الفكرة الأخيرة، وفطنت للتو أنَّها وإن كانت تنفي ذلـك لأنها تلقته وحفظته هكذا؛ فالإيمـان بالقدر لا يعني الاستسلام مطلقًا، والله لم يخلقنا لذلك، إلا أن أفعالها على الدوام كانت تؤكد النتيجة المعاكسة.

أزعجه وقوفها المفاجئ فسأل: ما الذي تفعله؟ لماذا وقفت هذه المرة؟!

لـم تفصح له وأمسكـت كفَّه ودفعته للمتابعة ولم تلحـظ الابتسامة التي كانت على شفتيه.

بعـد أن مشيا مسافـة طويلة توقف أخيرًا ورفع يـده مشيرًا إلى ما خلف الأشجار وهو يقول: هنـاك، أترى؟ هذا منزلي.

لـم تكـن قادرة علـى الرؤيـة لأنَّـه كان يحجبهـا إضافة إلـى الأشجار، فتجاوزتـه، وعندمـا تمكَّنت مـن رؤيته أطلقـت صوتًا ينمُّ عـن التعجب ثم علَّقت: أكنتَ تمزح معي عندما قلت: منزلي؟!

ابتسـم وهو يُجيب: يبدو أنـكَ لم تلحظ أيضًا أنه قريب جدًّا من القصر الـذي اعتُقلت بـه صباحًا فهـو يقع على جهـة اليمين منه. أنـتَ في مجمع الأسرة الحاكمة.

الأسرة الـ...

فغرت فمها من الدهشة ثم رفَّت أهدابها وهي تعلِّق: لا تخبرني بأن الذي قابلته صباحًا كان الملك أو شيئًا كهذا.

- لا، ليس الملك.

- ومَن يكون؟ لقد شعرت بأنَّه شخصية مهمة بالفعل!

- لا يُهمك معرفة ذلك في شيء.

قـال ذلك وقد تجهـم وجهه ولفَّتـه سحابة مـن الغم لاحظتهـا، فظلَّت صامتـة إلى أن أشار لها وهو يتجاوز الشجـرة ويقول: اتبعني إذن، واخفض رأسك جيدًا.

عندمـا عبرهـا وقف في الطريـق المرصوف فتبعته، وفـي تلك اللحظة شاهدهمـا الحارسان وهمـا يقتربان، ووجَّهَـا أنظارهما إلـى الشاب الذي يسير برفقـة أميرهما بثياب لا تبدو جيدة، حافـي القدمين وخافضًا رأسه على نحو مريب!

وعندما وقفا أمامهما خاطبه أحدهما بإجلال: سيدي الأمير.

وهنـا نسيت أوامـره ورفعت رأسها؛ فتمكَّن أحدهمـا من رؤية ملامحها بوضوح، ثم عادت لتخفض رأسها.

أشـار لهمـا الأميـر بفتح البـاب ثم عبـر وهو يوضّـح: إنَّـه صديق لي، تفضل يا...

عبـرتْ بجوارهما، وما إن أُغلـق الباب خلفهما حتـى تنفَّست الصعداء لكنَّهـا سرعان مـا عادت لتخفض رأسهـا بعد أن أمرهـا الأمير بذلك، كاد فضولهـا يقتلهـا وهي تعبر معه في حديقـة تُشبه إلى حد مـا الحديقة التي شاهدتهـا صباحًـا، لم تكن قـادرة على رؤية التماثيـل، وكان كل ما تراه هو أنصافها، ولأنَّها كانت مشغولة بالحديقة وتحديد نوع أزهارها وتماثيلها، لم تنتبـه إلى أنّ الأمير كان قد توقف إلا بعدمـا اصطدمت بظهره وآذته وآذت أنفهـا، فالتفت إليها منزعجًا، فأطرقت رأسها وهـي ممسكة بأنفها تعتذر: آسف؛ لم أكن أنظر أمامي.

تبدَّلت ملامحه سريعًا وقال محذّرًا: اسمع، إن سألك أي أحد فأخبرهم بأنكَ صديقي وأن اسمك هاملت.

لـم تَسَعْها الدهشة والاستنكار فسألت: هاملت؟! لماذا هاملت؟! أتعرف من يكون؟!

أدار ظهـره دون أن يجيـب وصعد الدرجات المؤدية إلـى داخل قصره، فلحقتـه ولم يَرُق لها صمته فراحـت تلحُّ عليه وتحثه ليجيب وسألت: أتعرف هاملـت شكسبيـر؟ كيف طرأ عليك؟! لماذا اخترتـه دون سواه؟! إنني أحب المسرحية ولكن..

أمسكت عن الكلام بعد أن التفت إليها بوجه مستاء وهو يعلِّق: أنت تثرثر كثيرًا، ما الغريب في هذا الاسم؟! إنَّه شائع هنا، وهو اسم خادمتي أيضًا.

تغضَّن وجهها محاولة الاستيعاب وهي تسأل نفسها: شائع؟! أقال خادمة أم خادم؟!

أسرعـت وحاولت أن تسبقه وهي تقـول: ولكنَّه بطل مسرحية لشكسبير، أتعرف شكسبير؟!

لـم يجبها إلا بشفتين متذمرتين، ثم سبقهـا ودخل من البوابة، فلحقته وقـد شُدِهِ لبها أمام ما تراه في القصر، كان أكثر ما لفت نظرها هو لوحات لأشخاص عُلقت على طول الممر، والغريبُ أن جميعها بدت لها مألوفة!

قطـع تأملاتهـا ودهشتهـا اقتـرابُ الخدم، وراحـت على الفـور تُراقب اعتناءهـم به، كانـوا يرمقونهـا من حين لآخـر في صمت وفضـول مخفي ولكـن أيًّا منهم لم يسأل عنها، ثم نادى علـى "بياتريتشا"، فراحت تترقب ظهور هذه البياتريتشا، وما هي إلا لحظات حتى أطلَّت معتذرة عن تأخرها، فشُدِهـت عيناها لرؤيتها؛ فقد كانت هـذه المرأة جميلة جدًّا وتملكُ ملامح دافئة تبعث على البكاء!

نعم، البكاء. لقـد كانت عيناها لوزيتين بلون العسل المصفى، وشفتاها حمراويـن ومدورة كقطـع الكرز، وشعرها بندقيًّا لامعًـا ومجعدًا قليلًا، لقد كان لجمالها شيء مختلف عن جمال نرسيس الذي شاهدته صباحًا.

شـيء لم تدرك ماهيته ولكنَّه خلق فـي عينيها دموعًا انحدرت على نحو مفاجـئ وغريب، جعلها تغضُّ طرفها محاولة إخفاءها، ثم عادت تراقب ما حولهـا لتتأكـد إن كان أحد ما قد شاهد ردّ فعلِهـا الغريب هذا، وفي الوقت

نفســه شعرت بأنَّها شاهدت هذا الجمال الحزيــن من قبل في مكان ما، بل شعــرت بأن هــذا المشهد خاصة قد شاهدتُه من قبــل، مشهد رؤية شخص لأول مرة ويدفعك إلى البكاء!

والغريــب أنَّ بياتريتشــا لم تنظر ولا ثانية واحــدة نحو هذه الغريبة التي فاضت دموعها لمرآها، أمرهم الأمير بالانصراف وأمر بياتريتشا بالبقاء، وعندمــا غــادروا أشار إليهــا وهو يُخاطبهــا قائلًا: عزيزتي، هــذا صديقي هاملت، وسينام هنا الليلة، جهزي له غرفة من فضلك، واعتني به.

أومأت موافقة وأخيرًا التقت عيناهما، وأطالت بياتريتشا وهي تتوضَّحها بنظراتها فصرفت الكاتبة وجهها في حرج، اقتربت منها وهي ترحبُ قائلة: مرحبًا بكَ سيد هاملت، تسرني خدمتك.

رمقتهــا مستنكرة هــذه المعاملة اللبقة التي كانت تقــرأ عنها في الكتب فقط ولم تحظَ بها ولو مرة واحدة، وحتى حينما استقدمت خادمة في منزلها ذات مرة، أصبحت هي الخادمة؛ لا تدري لفرط شفقتها أم لكبريائها!

لان وجهها عن بسمة حاولت أن تُخفيها، ولم تفسرها بياتريتشا إلا بمعنى وقح، فتجاهلتها والتفتت إلى الأمير سائلة: أتريدُ مني شيئًا آخر سيدي؟

هــزَّ رأسه بالنفي ثم غــادر المكان، تحرَّكت بياتريتشــا فتبعتها، وكانت عيناهــا تتفحص كل ركن في هذا القصر الجميــل بشغف كشغف الأطفال، وأخيــرًا توقفت بياتريتشا وأشــارت إلى أحد الأبواب وهي تقول: تفضل سيد هاملت، ستنام هنا هذه الليلة.

ثــم أدارت الباب، لتفتح أمامها عالمًا لم تشاهده إلا في الروايات فقط، سعــة الغرفة جعلتهــا تُفكــر بإمكانية إقامة سبــاق فيها! فراحــت تُعبر عن دهشتهــا بإطــلاق أصوات تنمُّ عــن الدهشة وهي تُطالع الأعمــدة وإطارات الصور المذهَّبة والستائر الشفافة والناعمة!

لـم ترتح بياتريتشا لموقفها المبالغ ولم يَرُق لها، لكن وجهها لم يبد أي تعبيـر عن ذلك، دنت منهـا وقالت: سيدي يُمكنك أن تختار من الدولاب أية ملابس نوم تروق لك. هل هنالك شيء آخر تأمرني به؟

التفتـت إليهـا وسألت: هل لي أن أطلب بعض الطعـام؟ أي شيء حتى لو كان علبة (روب)؛ أكاد أموت من الجوع.

حدجتها بياتريتشا باستياء، فارتبكت وأردفت على الفور: لا بأس، النوم خفيف مفيد للصحة.

خفضـت بياتريتشـا عينيهـا وقالـت: سأحضّـر لـك الطعـام حـالًا يا سيدي.

ثم غادرت الغرفة فأطلقت الأخرى جنونها ورمت نفسها على السرير ثم وقفـت عليه وراحت تقفز فوقه، ثم قفزت مـن علوّه وراحت تدور في الغرفة وترقص بفوضى، ولأول مرة تشعر بأنّها تريد حقًّا أن ترقص مثل زوربا، فلا يـزال في الحياة متسع للابتهاج والرقص، ولكنّها أظلمت فجأة وشعرت بأن روحها تغرق حينما عَبَرت في خيالها صورة المكتبة!

كان هذا هـو كل ما تتذكره: لحظة دخولها المكتبة في الليل، ولكن كيف انتهـى بها المطاف محكومًا عليها بالإعـدام ثم فجأة تجدُ نفسها في قصر أميـر وتُعامَل معاملة ملكية؟! هل ماتت يـا ترى وبُعثت من جديد؟! ما أسرع تبدل الحال!

توقـف سيـل أفكارهـا الفوضويـة عندما لفتـت انتباهها صـورة معلقة لشخص ما يُمسك صولجانًا ويضعُ على رأسه تاجًا مرصعًا بزمردة حمراء، ويلبسـن عباءة حمـراء مذهَّبـة حوافها. شعـره أبيض وكثيـف، ولحيته هي الأخرى كثيفة، عيناه متقدتـان تخلقان في عين النـاظر إليها شعورًا مربكًا، لكـن الغريـب هو شعورها بأنه هـو الآخر قد شاهدته من قبـل، ولكن أين؟! ومن يكون؟!

قطع تفكيرها دخول بياتريتشا، كانت تحمل صينية العشاء، ويبدو أن الرائحة سبقتها فتحرَّكت لها معدة الكاتبة وأصدرت أصواتًا مخجلة، فانقبضت ملامحها وهي تضع يدها على بطنها، تجاهلت بياتريتشا ذلك ووضعت الصينية على الطاولة وهي تقول: تفضل، سيدي، عشاءك.

على الرغم من قرقرة بطنها فإن فضولها كان أكثر إلحاحًا؛ لذا أشارت إلى اللوحة وسألت: عفوًا، من صاحب اللوحة؟

اقتربت منه وهي تسأل مستوضحة: أتسأل عمَّن رسمها؟

بل أسأل عن الموجود فيها، من يكون؟!

سددت إليها نظرات مرتابة قبل أن تجيبها: إنَّه الملك لير*، وهل يوجدُ أحد لا يعرف من هو الملك؟!

وجم وجهها لحظة وهي تكرر مستنكرة: الملك لير!!

أظهرت بياتريتشا بسمة ساخرة لا تُناسب ملامحها الملائكية وهي تعلّق: أنت لستَ صديق سيدي! هل أنت لاجئ هارب وأنقذك؟! لا عجب فهو طيب القلب ويحبُّ كل الناس دون أية اعتبارات لأصلهم، حتى أنا...

أمسكت عن الحديث فجأة؛ بعدما لاحظت انقلاب سحنة هاملت، كانت غارقة في فوضى وحيرة، تحاول ربط كل ما حدث معها وتفسيره، فاقتربت منها وهي تؤكد: ومع ذلك ينبغي أن تعرف أن الملك لير هو والد سيدي الأمير وشقيقه دوريان جراي، أقول لكَ ذلك لتُخاطب سيدي الأمير بما يليق بمقامه؛ إذ إنني لاحظت قلة تأدب منك حياله.

---

* (الملك لير) اسم مسرحية من مسرحيات وليام شكسبير. والملك لير هو واحد من أبطالها. وأهم صفة من صفاته أنَّه لم يكن يستمع إلا لما يحب أن يسمعه وحسب.

لم تعر الكاتبة اهتمامًا لملاحظتها الأخيرة، لقد كانت عالقة تفكر بآخر اسـم نطقته، أفصحت عن ارتباكها وصدمتهـا بنطقه: دوريان جراي؟! ثم أردفت كأنَّها تتساءل: وايلد*؟!

لكـنَّ بياتريتشا لم تعط لصدمتهـا أي اعتبار، اتجهت صوب الباب وهي تعلّق: سيبرد عشاؤك وأنت لم تتناوله!

وما إن همَّت بإغلاق الباب حتى أردفت: اسمي بياتريتشا تشينشي**.

فكانـت الضربـة القاضية التي تلقتها الكاتبة ولـم يعد عقلها قادرًا على الاستيعـاب، وبالـكاد صوّبت نظراتها نحـو محدثتها ببطء وذعـر وسألت: بياتريتشا.. أقلتِ: بياتريتشا تشينشي!!

لقـد أدركـت الآن السبب الـذي جعلها تشعـر بأنَّها شاهدتهـا من قبل، فمـن تقفُ أمامها الآن ليست إلا اللوحة التي رسمها غويدو ريني! وكانت قد أحبتهـا وتعلَّقت بها إلـى درجة أنَّها علَّقتها في غرفـة مكتبها، أحاط الذعر ملامحهـا، وأدركته بياتريتشا بفطنتها، فحاولـت أن تتلطف قليلًا فتبسَّمت وقالـت: بإمكانـكَ منـاداتـي تشينشي، هـذا لا يُزعجني؛ فهـو أسهل، ولكن سيدي يُفضل دومًا مناداتي ببياتريتشا. إن احتجت لشيء نادِني.

ثـم أغلقت الباب خلفهـا بينما ظلَّت هي واقفة فـي مكانها، وقد شعرت بموجـة عارمة من الصدمة والحيرة دفعتهـا وألقت بها داخل دوامة مظلمة وسحيقـة، وراحت تُراجع كل الوجـوه التي شاهدتها، الشـابّ الجميل الذي ظنته نرسيس لا شـك أنَّه هو دوريان جراي بطل أوسكار وايلد! وهذا الملك لير هو بطلُ شكسبير! و بياتريتشا بطلة لوحة ريني! والحقل الذي وُجدت فيه هو حقل من لوحة فان جوخ! واللاقطات!

---

* دوريـان جـراي هو بطل رواية (لوحة دوريـان جراي) للكاتب الإنجليزي الأيرلنـدي أوسكار وايلد. وهي شخصية معقدة.

** بياتريتشا تشينشي: هي فتاة أعدمت ظلمًا في القرن السادس عشر. وقد تعاطف مع قصتها الفنان غويدو ريني عام 1662م ورسمها قبل وفاتها. فكانت لوحتها هي أكثر اللوحات حزنًا على الإطلاق.

والأمير! أي أمير يكون؟! وهي، هي كيف أصبحت... هــــاملت!

شعرت برأسها يموج، هذا ليس حلمًا ولا ثقبًا أسود ولا بعدًا آخر ولا جنة ولا جحيمًــا، رفعت رأسها إلى الأعلى وشعرت بأن السقف يرتفع ويبتعد كأنَّه يهربُ منها، والغرفة قد أصبحت فجأة من عالم أليس العجيب، فدوَّت منها صرخة عالية لم يسمعها أحد: لقد ابتلعتني الروايات، ليُنقذني أحد ما!

الفصل الثالث

إنّ اللوحة الجيدة لا بد أن تكون في منزلة عمل صالح.

فان جوخ - رسالة إلى ألبير أورييه - 1890م

شعرت بيد ناعمة تُربِّت على كتفها، ففتحت عينيها لتجد سوادًا تتخلله خيوط حمراء فأدركت أنَّها نامت على السجاد!

رفعت رأسها قليلًا فأبصرت بياتريتشا ويبدو على وجهها السخط الذي انتقل بدوره إلى الكاتبة فاعتدلت جالسة وعلَّقت: لم يكن حلمًا إذن، هذه أنتِ مرة أخرى!

تجاهلت خيبتها وألقت عليها ما جاءت من أجله: إنَّ سيدي الأمير يطلبك لتناول الفطور معه، أرجو أن تتأهب بما يليق به، أرى أنكَ لم تبدل ثيابك البارحة!

دفعها تعليقها الأخير للنظر إلى ثيابها وتذكرت أنَّها فقدت وعيها فجأة بعد نوبة الذعر التي انتابتها بعدما شعرت بأن السقف تحرك وكاد يقع عليها، ثم وجَّهت نظرها إلى السقف لتتأكد إن كان يبدو كما كان البارحة، كانت بياتريتشا تراقبها باستغراب، وعندما همَّت بالوقوف استوقفتها قائلة: مهلًا، أريد أن أسألك عن شيء.

عادت لتعتدل وتنظر إليهــا بترقب لم يطل كثيرًا، فسرعان ما أفصحت عمَّــا تُفكــر فيه وسألــت: اصْدُقينــي القول: أحقًّــا أنتِ بياتريتشــا تشينشي نفسها؟!

لــم يعد بوسعها إخفاء سخطها وأظهــرت انزعاجها من خلال حاجبيها المنعقديــن وهي تجيبهــا بسؤال: ما الــذي تعنيه يا سيــد بـ(نفسها)؟! هل تعرفني من قبل؟ وهل يوجد غيري مثلًا؟

أعرفك؟!

نطقتهــا ذاهلة، ثــم تريثت قليلًا قبل أن توضِّح قائلــة: ربما أعرفك، أنا لــم ألتقــكِ من قبــل، ولكنني التقيتك، أنــتِ لا تعلمين كــم كان النظر إليكِ ملهمًــا، لا تعلمين كــم أنَّ عينيك وشفتيك اللتين تبتسمــان؛ لتُخفي خلفهما حزنًا عميقًا لهما أحرى أن يُخلَّدا في لوحة تحمل عنوان: الحزن الجميل، إنّ أمثالــك كانوا قادرين على منح الحزن جمالًا وسحرًا، لقد كنتِ صورة لبكاء الملائكة لو كانوا يبكون.

لــم تَــرُق لبياتريتشا هــذه الكلمات العفويــة التي أطلقتهــا الكاتبة وهي تسترجع في ذاكرتها لوحة ريني، ولم تفكر بها إلا كنوع من الغزل لاستجداء عاطفتها، فنهضــت على الفور دون تعقيب، لكنها توقفت قبل أن تغلق الباب وقالت: سأعود بعد قليل لاصطحابك سيد هاملت، أرجو أن تتأهب سريعًا.

ثــم صفعت الباب بقــوة جعلت الكاتبة تظن لوهلة أنَّهــا نجت من صفعة أخطأتهــا، نهضــت قاصدة الــدولاب لتُخــرج لها لباسًــا مناسبًــا، أبهرتها القمصان والبناطيل الفاخرة والثياب.

اختــارت أوسعهــا ومــن ظنت أنَّــه كفيل بإخفــاء تفاصيــل جسدها، ثم حملتــه متجهة إلى السرير لكن الخيال الــذي تبدَّى بجوارها وهي تعبر كسا ملامحهــا رعبًا؛ فأسقطت الثياب علــى الأرض، التفتت إلى الخلف فأدركت أنَّهــا قد عبرت مــن جوار مرآة للتو، ولكن ما لمحته كان شعرًا بنيًّا يميل إلى

الحمرة، ازداد ذعرها، فقررت أن تتأكد. خطت خطوات بطيئة نحو المرآة، وما إن التقت بنفسها حتى أفلتت منها صرخة مُرعبة، خُيل لها أنَّ الجدران قد اهتزَّت على إثرها! لقد كانت الصورة المنعكسة في المرآة ليست هي ولا تمتُّ لها بصلة!؛ كان شعرها الأسود قد أصبح بنيًّا، وعيناها عسليتين، وأنفها دقيقًا جدًّا بشكل مضحك!

لمست صورتها المنعكسة على المرآة ودارت عيناها من هول الصدمة وهي تُخاطب نفسها: هذه ليست أنا! ليست أنا!

ثم فرت من شفتيها: هذا هاملت! هاملت كما تخيله ديلاكروا* في لوحته، هل أصبحتُ هو بشحمه ولحمه واسمه؟!

مضت عليها لحظات وهي ذاهلة حتى وقعت عيناها على الحاجبين ولاحظت دقتهما، فكزَّت على أسنانها غيظًا وهي تعلِّق: حاجباي! تبًّا! لقد أصبحا كحاجبي الموناليزا!

ضربت الهواء بيديها وتابعت شكواها: لقد مضت قرون على هذه الموضة! تبًّا لشكسبير ولديلاكروا، ولمن أوقعني هنا.

أسقطت ثقلها على الأرض، وطافت بعينيها حائرة مفكرة ثم صاحت كأنَّها تخاطب أحدًا: ليوقظني شخص ما؟! أي شخص...

لو كنتُ سأكتب رواية جديدة، وأريد أن أنتقم من أحد، فإن هذا ما سأفعله بالضبط.

سمعت صوت فتح الباب فانصرفت إليه، كانت بياتريتشا تقف ممسكة بمقبضه، وكان واضحًا على ملامحها المذعورة والمستفهمة أن الصرخة هي من أتت بها، فعادت أدراجها على عجل.

أدركت ذلك الكاتبة فأشارت لها نحو المرآة وهي تقول بِنَفس متقطِّع: إنَّه... هاملت ... هاملت ديلاكروا، وليس أنا.

---

* إشارة إلى لوحة الفنان الفرنسي أوجين ديلاكروا (هاملت وهوراسيو في المقبرة).

زفـرت أنفاسها بعصبية معلنـة بذلك عن فقدها هدوءهـا وأعصابها؛ ولكنهـا مـع ذلـك استطاعت كبت غضبهـا وقالت وهـي تُغلق البـاب: سيد هاملت، سأقف بجوار الباب بانتظار أن تبدِّل ثيابك.

ثم صفعت الباب أقوى من المرة الأولى، أما هاملت المسكين فقد تنهد بيأس ثم وقف وقد رضي بمصيره المجهول والغامض ولم يَعد هناك مجال ليكون أو لا يكون، عليه فقط الآن أن يكون هاملت.

وضعـت عنها ثيابهـا المهترئة وارتدت الثياب الفاخـرة، ثم اتجهت إلى المـرآة وحدثت نفسها: يجـبُ أن أحاول إقناع نفسـي أن الأمر لا يبدو سيئًا إلى هذا الحد، لطالما اعتقدت أنَّ (ديلاكروا) كان فنانًا في تخيل شخوص شكسبير وخلقها على نحو حقيقي، ولكن لو كان الأمر بيدي لفضلتُ أن أملك ملامح الفتاة الجزائرية التي تحمل المصباح داخل الزنزانة في لوحته. إنَّ ملامح هاملت هذه جميلة ولكنَّها مضحكة، نعم مضحكة إلى درجة تجعلني أود أن أبكي الآن.

ثـم لماذا هاملـت؟! لماذا لم أكـن أوليفيا على الأقل؟! لمـاذا أصبحتُ بملامح رجل؟!

فكـرت أنَّ طراز ملابسهـا الآن لا يبدو مناسبًا لملامـح هاملت، ولكنَّها فكَّرت بالجـورب الذي يصل إلى الركبة، وحمدت الله أنَّها لن تضطر لذلك لتبدو مثله كما في اللوحة.

ألقت نظرة أخيرة على مظهرها، بنطال أسود بر باطين يشدان قميصها الأبيض ذا الياقة المرتفعة والمزركشة بطريقة رأتها مبالغة جدًّا.

قصـدت الباب وعندمـا فتحته وجـدت بياتريتشا تقـف بانتظارها كما قالـت، اعتذرت لهـا بلطف عن تأخرها ثم سارت معهـا نحو غرفة الطعام، لقـد أثار ذلـك استغرابها إلى حد كبير، فقـد كان القصر من الخارج يبدو علـى طراز شـرق آسيا، ولكنَّه مـن الداخل يبدو كقصر بـارون من القرون الوسطى!

يبـدو أنَّ الأشياء هنا تأخذ طابع عالـم (أليس)* العجيب وسيولته، هذا هو التفسير الوحيد الذي أقنعها.

فتحت بياتريتشـا الباب، وكما توقعت كانت المائـدة طويلة ذات كراسٍ خاليـة، ويبدو أن الأمير لـم يصل بعد، جلست حيث أشـارت لها بياتريتشا قبل أن تنصرف، فوجدتها فرصة لتُفكّر في حلٍّ لهذا اللغز الذي وقعت فيه، رفعـت عينيهـا للأعلى، كانت الثريـا كما توقعت عملاقـة وفخمة، اعتقدت فـي أعماقها أنه لمن الجميل مشاهدتهـا الآن؛ ثريا من هذا الطراز القديم وتضاء بالشموع!

دخلت إحدى الخادمات تحمل صينية بها أطباق خزفية وأكواب زجاجية، اقتربت منها، ثم وضعت الصينية وراحت ترصُّ الأطباق والأكواب، والغريب أنَّهـا أخذت وقتًا أكثر مما ينبغي في ترتيبها، مـا لفت انتباه الكاتبة ودفعها لتراقبها باستغراب، كانت تضع طبقًا وترفع الآخر ثم تعود وتضع غيره، على الرغم من أنَّ جميع الأطباق متشابهة!

ثـم تمتمت بصوت مسموع: أضع هذه هنا أم هنا؟ ربما تكون هذه أفضل من هذه؟ أضعها هنا أم هناك؟

لم تستطع أن تصمت أكثر من ذلك، وعبَّرت عن استنكارها بسؤال: هل يحتاج ترتيب الأطباق إلى كل هذا الوقت؟!

أبـدت نظرات مندهشة كأنَّها لم تلاحظهـا إلا للتو فقط، ثم لان وجهها عـن ابتسامة ناعمة وهي تجيب: يا سيدي، يبدو لي من ملامحك أنَّك تملك ذوقًـا رفيعًـا، هل لـكَ أن تُساعدنـي، أضع هـذه أم هذه؟! هل هـذه الكأس مناسبة أكثر أم هذه؟

لمـاذا كل هـذا التـردد؟! لا بأس معي في شـرب الشاي بكأسـ جبنٍ أو نوتيلا حتى! ضعي أيًّا منهما، وإن رمت الحق؛ لا أرى فرقًا بينهما.

---

* إشارة إلى الرواية الشهيرة (أليس في بلاد العجائب).

تبـرَّم وجههـا معبرًا عن استياء بالـغ وهي تردّ: لقد خيَّبـت ظني! وهذا استخفاف لا أقبله، نعم، الأمر يتطلب كل هذا الجهد.

حينئذ التفتا معًا إلى الصوت الذي نادى: هاملت، هل انتهيت؟!

غلب على ظنها أن الخادمة التي نادت تقصدها، ولكنها كانت تنظر إلى الخادمة الأخرى التي أجابتها على الفور: بقي القليل.

أبـدت اندهاشهـا بينما كانت هاملـت الأخرى تضع الطبـق الأخير، ثم عَبَرت من جوارها فأوقفتها متسائلة: معذرة، هل اسمك هاملت؟!

- نعم.

- ولكنكِ سيدة؟!

- وأين المشكلة في ذلك؟!

لم تجبها بشيء واكتفت بالنظر إليها فاغرة سارحة!

غـادرت الخادمـة وبقيت هي في الغرفـة وحدها تفكّـر: إنّ هذا المكان غريـب بالفعل! يبدو أنّ الأشخاص ها هنا من أبطـال روايات ومسرحيات ولوحـات أيضًـا، وهـم يحملون صفـات هـذه الشخصيات، فهـذه الخادمة كانـت مترددة! والتردد كان من أهـم ما يميز هاملت، لكن هذا يدفعني إلى التسـاؤل: لماذا أنا أيضًا هاملت ؟ بل إنني بملامح هاملت ديلاكروا! وماذا عن الأمير؟ أمير أية رواية يا ترى؟! أم لوحة؟!

فـي تلك اللحظة كانت بياتريتشا قد ولجت الغرفة واقتربت منها لتقول: معـذرة يـا سيد هاملـت، يبـدو أنَّ سيدي سيتأخـر قليلًا، فقد جـاء الشيخ لزيارته، إن شئت يُمكنك أن تبقى هنا أو تعود إلى غرفتك.

أومأت موافقة وهي تجيبها: لا بأس، سأبقى هنا.

ولكـن ما إن خرجت بياتريتشا ولـم تمضِ سوى سبع دقائق حتى نهضت وقد قررت الخروج لتكتشف هذا القصر الباروني.

عَبَرت الممر الذي جاءت منه، وعندما بلغتْ نهايته وجدته ينعطف على ممر آخر كانت نوافذه زجاجية وتكشف الحديقة خلفها، وقفت تتأملها بعينين مأخوذتين، كانت مذهلة في تصميمها وتبدو كجنة.

من بعيد أبصرت الأمير يقف خلف إحدى النوافير، وما هي إلا لحظات حتى ظهر بجواره رجل أقصر منه قليلاً، شديد النحالة، وشعره كبياض القطن، يلبس ثوبًا فضفاضًا، هذا ما تمكَّنت من رؤيته من هذه الزاوية، ظلَّت تراقبهما حتى اقتربا، فكانت قادرة على رؤية بقع بنية منتشرة على وجه العجوز، كان كل شيء فيه قديمًا ويبعث شعورًا بالأصالة، أمَّا عيناه فكانتا كلوْنِ البحر ومبتسمتين على الدوام.

وفق هذا الجنون الذي تعيشه خمَّنت أنَّ هذا الشيخ هو شيخ* هيمنجواي، لا يمكنها أن تُخطئه وهي التي أحبت إصراره. تمنَّت لو أمكنها أن تتجاوز هذا الزجاج، وتستمع إلى حديثهما؛ فيبدو أنه كان ماتعًا، لقد كان الأمير صاحب عينيِّ (فولتير) يضحك بسعادة واضحة.

أفزعها الصوت الذي سأل من ورائها فجأة: ما الذي تفعله هنا؟!

التفتت بفزع لتجد أمامها رجلًا قصيرًا، عيناه لوزيتان وأنفه عريض، شفتاه رقيقتان، وعلى جبينه تجاعيد تفصح عن عمره، يلبس قبعة مسطحة، وعلى جنبيها يتدلى شعره المجعَّد قليلاً مغطيًا أذنيه، كما لو أنَّه شعر العم دهب في الكوميكس!

أثار التشبيه الأخير ضحكها، فلاحت على شفتيها ابتسامة طفيفة وهي تسأل: عفوًا، من أنت؟!

تقدم منَّها وسأل: بل مَن أنت؟ هذه أول مرة أشاهدك فيها؟!

تابع وهو يميل بجسده ليشاهد ما خلفها، فأبصر الأمير والشيخ في الحديقة قبل أن يوضِّح: جئتُ لأقابل الأمير.

---

* إشارة إلى الشيخ بطل رواية (الشيخ والبحر) لهيمنجواي.

أشارت خلفها وهي تجيب: إنني في ضيافته، أعني الأمير.

هنا سمعا صوتًا قادمًا من آخر الممر: سيد هاملت! ما الذي تفعله هنا؟!

كان هذا صوت بياتريتشا، فانقبضت ملامحها وتمنَّت لو أنَّها استطاعت أن تختفي أو أن يحدث لها أي شيء، المهم أن تهرب من توبيخها، ولكن بياتريتشا أقبلت مقطبة الحاجبين وملامحها تعجُّ بالغضب واللوم، ولولا أنَّها رأت السيد الآخر ما كانت لتخفف من حدة غضبها، التفتت إليه مرحبة أولًا: أهلًا بك سيد (رامبرانت).

كررت الكاتبة في عقلها الاسم، ثم اتسعت عيناها معبرة عن استيعابها ودهشتها؛ فصاحت بانفعال: أنتَ رامبرانت؟! رامبرانت نفسه؟ كيف لم أعرفك؟!

نظرا إليها باستغراب في وقت واحد، فالموقف لا يستدعي كل هذه الصدمة!

سددت إليها بياتريتشا نظرات انزعاج، أما رامبرانت فضحك وهو يعلِّق: ما الذي تعنيه؟!

إنني رامبرانت فان راين*، هل تقابلنا من قبل؟!

اتسعت عيناها وفغرت فمها الباسم محدِّثة نفسها: إنَّه رامبرانت نفسه!

دنت منه وأمعنت النظر إليه أكثر، إنَّه حقًّا كما شاهدته في لوحاته، لكن كيف لم تتعرف عليه؟! لقد شاهدت موضوع لوحة وشاهدت بطلَ مسرحية وبطلَ رواية، والآن تُشاهد فنانًا، فاضت حماستها ومدَّت يدها مصافحة وهي تقول: اسمي...

---

* رامبرانت فان راين: رسام هولندي ولد في لايدن عام 1606 وتوفي عام 1669م، برع في لوحاته، خاصة في استخدام الضوء والعتمة. وتأثر بأسلوبه كثير من الفنانين الذين جاؤوا من بعده مثل فان جوخ، اشتهر برسم الأشخاص، ومن أهم لوحاته: (دورية الليل)، و (درس التشريح مع الدكتور تولب).

هـزَّت رأسهـا نافية ثـم صححت: أعني اسمـي السيد هاملـت، سررتُ بمقابلتك، كما أنَّني أحبُّ طريقتك في الرسم كثيرًا.

استغـرب رامبرانت وطالعهـا بدهشة وحيـرة وهو يسأل: أتعـرف أنَّنـي فنان!

اقتربـت بياتريتشا وهي توضِّح: لقد شاهد لوحتـك التي رسمتها للملك وأثارت إعجابه.

ثـم وجَّهـت أنظارها نحوها، ولكن مـا إن التقت عيناهمـا حتى تذكرت بياتريتشـا أنَّها لم تخبره باسم الرسام من قبل! فكيف عرفه؟! تلوَّن وجهها ورمقتهـا بريبـة، لاحظت الكاتبـة ذلك على الفـور وفطنت لمـا تفكر فيه، ولكنَّهـا لم تنطق بشيء حتى دنت منها الأخـرى وأمسكت ذراعها وأجبرتها على الانزواء معها قليلًا وهي تعتذر بلطف من رامبرانت.

ثم سددت إليها نظـرات حانقة ومالت إليها كأنَّها تسر لها بحديث وهي تسأل: لماذا خرجتَ من غرفة المائدة؟!

ابتلعـت ريقها وهي تشير إلى الحديقة وتجيب: آسف يا سيدتي الجميلة، ولكنِّي شعرتُ بالملل وقلتُ لنفسي: إنّ جولة لن تضر أحدًا.

لـوت فمها؛ فقـد شعرت بأنَّ وصفهـا بالجميلـة كان لمغازلتها ومحاولة للهروب من توبيخها، فردَّت بصرامة: يا سيد هاملت، لقد شدَّد الأمير على إبقائـك في غرفتك، إنَّ تجولك هكذا فـي القصر ليس لمصلحتك، لا تنسَ أنكَ هارب!

انكمشـ وجهها؛ لقـد كادت تنسى الموضوع بالفعـل، وجهت نظرها إلى رامبرانـت ولاحظت أنَّه ينظر إليهمـا بفضول ثم عادت تنظر إلى بياتريتشا متظاهـرة بالانكسار واعتذرت قائلة: آسف، سأكـون حريصًا منذ اللحظة، سأعود في الحال إلى غرفة الطعام.

أرسلت بياتريتشا ذراعها وهي توضّح مُطَمئنة: لا تقلق، فالشيخ لا يُطيل المكوث، وربما سيغادر الآن، إنَّه يأتي ليزور سيدي من وقت لآخر، سأصحب السيد رامبرانت ثم آتي إليك.

ثم أفصحت عـن ريبتها وأردفت: ولكن أخبرني، أنا لم أخبركَ البارحة باسمه فكيف عرفت؟!

تريثـت قبل أن تُجيبها بكذبة مكشوفـة: بلى، لقد أخبرتني بذلك ولكنكِ نسيت.

لـم تصدق ورمقتهـا باستخفاف، ومـا إن همَّت بالاستـدارة حتى صاح رامبرانت فجأة: مهلًا، توقفا أرجوكما.

ثـم اقترب قاصـدًا هاملت وعلى محياه تعبيـرات غريبة! تعبيرات صقر يـكاد ينقضُّ علـى فريسته، أثار ذلك فضولها وخوفهـا، فتحرَّك ساقها إلى الـوراء دون شعـور، بيد أن رامبرانـت كان قد أوقفها وأمسـك كتفيها وراح يُحدِّق في عينيها جيدًا، ثم تمتم بكلمات أثارت دهشتها أكثر: ما هذا؟! هذه العينان! هذا التعبير، سأرسمها، سأرسمكَ يا سيد! ما اسمك؟

أزاح كفيـه ونظر إلى بياتريتشا وهو يعلّق: إنَّه موضوع مميز بالفعل، منذ فترة لم أشاهد ملامح تثير إلهامي على هذا النحو.

لـم تستطع أن تخفي طيف السخرية الـذي لاح على وجهها وهي تجيبه: حسنًا، أعرف أنه لا أحد يستطيع أن يعترضك حينما تحصل على موضوعك!

قالـت الكلمـة الأخيرة وهي تسـدد إلى هاملـت نظرات شامتـة قبل أن تردف: سأخبر سيدي بذلك ولا أعتقد أنَّه سيمانع.

امتـلأ وجه رامبرانت بالحماسة وهو يجـذب الكاتبة من ذراعها مجبرًا إياهـا على السيـر معه باتجاه مرسم القصر وهو يسـأل: قلتَ لي ما اسمك يا سيد؟!

أما هي فقـد ظلَّت تنظر إلى بياتريتشا وتمـدُّ إليها يدها الأخرى راجية منها أن توقفـه من أجلها، ثم قالت لتصرفه: لحظة مهلًا، ولكنّي لم أتناول فطوري بعد!

رفعـت بياتريتشا كفها ملوّحة لها فقرأت فـي ملامحها الشماتة قبل أن تُشيعهـا بكلمات أرادت منها السخرية: لا تقلق يـا سيد هاملت. سأبعثُ لكَ فطورك هناك.

انزوت مـع رامبرانت الذي قادها إلى المرسم كمـا يقود الطفل بلونته، وأخيـرًا توقف عند بـاب غرفة وفتحـه لتظهر غرفة المرسـم، ولج بسرعة فلحقتـه وهـي تنظر إلى كل ركـن فيها بفضول، كانت الغرفـة مكتظة تمامًا كمـا لو أنَّها لوحة من لوحات بيتر بروغل* أو قصة مصورة من قصص دون روزا**، حتـى ظنت لوهلة أنَّها لن تجد مكانًا تجلس فيه، تقدَّمت وهي تسأل: أهذا مرسمك يا سيد رامبرانت؟

بدا على ملامحه قليل من الحرج وهو يجيب: آسف على هذه الفوضى.

ثم على الفور راح يُجهز أدواته، وأردف قائلًا: لقد جهزه الأمير لي، إنِّي أقضي غالب أوقاتي هنا بالتحديد.

ثـم أتبع وهو يستخرج لوحة من بين الأكـوام ويقول: أعتذر عن طريقتي فـي إحضارك إلى هنا، ولكنّي خشيتُ أن يضيع عني الإلهام، وأنا لا أستطيع أن أوقفه.

---

* بيتر بروغل الأكبر: رسام ونقاش فلمنكي هولندي من القرن 16، عُرف بلوحاته التي تصوّر مشاهد القرى والموضوعات الدينية المسيحية والمناظر الطبيعية الريفية. ما يميز لوحاته هو احتواؤها على مشاهد وشخوص كثيرة.

** دون روزا: هـو رسـام قصص مصـورة أمريكي، اشتهـر برسوماته وسيناريوهاتـه المتقنة لعدد مـن شخصيات ديزني الكرتونية الشهيـرة أمثال العم دهب وبطوط، وتميـزت رسوماته أيضًا بكثرة التفاصيل والشخوص.

أومـأت موافقة، فأشـار إليها بالجلوس على الكرسي أمامـه، فجلستْ وهي تقـول: لا بأس، الرسم مثل الكتابة، إنني أفهمك جيدًا، فحينما يأتيني الإلهام أقفز لمكتبي وأترك كل شيء حولي.

سأل مستفسرًا: وهل أنتَ كاتب؟!

وتابـع خلط الألوان، وبدا لها أنَّ ذهنه قد انصرف تمامًا؛ فلم ينتبه إلى جوابها: نعم إنني كاتب روائي، وأشعر بأنَّ كل رواية أكتبها هي جزء مني.

ولكـن بعد مضي لحظات قليلة كان قد توقف عن الخلط وأعدَّ لوح ألوانه وعلَّق: جميل، أنا أعدُّ كل لوحة جزءًا مني أيضًا.

زمـت شفتيها موافقـة وأردفت: قرأتُ مـرة جملة كتبهـا بيغوفيتش: إنَّ الرواية هي سيرة ذاتية، أتعتقد أنَّ اللوحات كذلك؟

لم يجبها بشيء وكان ينظر إليها بإمعان فقط، وتَّرها ذلك ودفعها لتوضِّح قائلة: أعتقد أنَّ كتابة الرواية هي رحلة البحث عن الذات، لا الانفصال عنها أو نكْرانهـا كمـا يدَّعي البعض، أو كما يفهم آخـرون (موت الكاتب) توهمًا، إنني أجد تولستوي ودوستويفسكي في رواياتهما، إنَّ شخوص رواياتنا ما هي إلا أنفسنـا القابعـة في اللاوعي، وكل ما نفعله هو أننـا نُخْضعها لاختبارات متعذرة في الواقع ونكتشفها، إن لم تكن سيرة ذاتية فماذا تكون؟!

أمسكـت عن الحديـث لبرهة، وكان لا يـزال يحدّق إليهـا دون أن يرفَّ جفنـه أو يتحدث، فـازداد توترها وأردفت: أعتقـد أنَّ اللوحات هي الأخرى سيرة ذاتية لمبدعها، إننا نعرف كثيرًا عن قصة الفنان ولمحات من حياته عن طريق لوحاته أيضًا.

كان وجههـا قد احمـرَّ بشدة؛ لكثـرة توترها من نظراتـه، فانتبه لذلك وسأل فجأة: هل أنتَ متوتر يا سيد هاملت؟!

أشاحت عينيها وهي تجيبه: في الواقع هذه أول مرة يرسمني فيها أحد.

صمتت لحظات وفكـرت بأن الملامح التي ألهمته ليست ملامحها وإنما لوحة لفنان وُلِد بعده بقرن!

ثـم نظرت إليه مرة أخرى وأردفت: لم أفكر ولو لحظة واحدة باحتمالية أن يرسمني فنان مثلك، إنَّني متوترة بالفعل.

لاحت على شفتيه بسمة خفيفة وهو يرفع يده الممسكة بالفرشاة ويعلِّق: لا بأس، تصرَّف على طبيعتك؛ حتى يُمكنك التحرُّك إن شئت.

فكـرت لحظة: لو تحركتُ سيكون الوضع مثـل السجين الذي تتبعه عين السجَّان، من الأفضل أن أبقى مكاني!

ثـم تبسَّمـت وهي تجيبـه: لا بأس، سألزم مكانـي ولن أزعجـك، إنني متطلِّعة لما ترسمه بشوق.

ثـم جلست على الكرسي وراحت تراقبه باهتمـام، مال على لوحته وراح يضـع خطوطها الأولـى، وبعد مضيّ وقت قليل قال: أنـتَ محق، إنَّ كل لوحة هي سيرة ذاتية أيضًا، لقد أحببت ما قلته.

ابتسمـت بحـرج، فقد غلب على ظنهـا أنَّه تجاهلهـا، ولكنَّها عزت ذلك لانشغـال ذهنه، إنَّهـا تفعل أسوأ من ذلـك في الأيام التي تُريـد فيها كتابة روايـة ما، تُصبـح كل إجاباتها: لا أعلم، وتُجيب علـى كل الطلبات بـ"نعم"، وكل مـن يبحث عن شيء تُرسلـه إلى الثلاجة، حتى لو كان يسأل عن جورب مثلًا، حتى إنها أعدَّت مرة كوبًا من الشاي ثم أودعته في الثلاجة.

بعـد نصف ساعـة كانت إحـدى الخادمات قد طرقت البـاب ثم فتحته حاملـة صينية الفطور، اتجهت إلى منتصـف الغرفة ووضعتها على الطاولة بجوار هاملت ثم خرجت مسرعة، رائحة الحساء قد فتحت شهيتها، وبدأت معدتهـا تئنُّ، فرمقت رامبرانـت باستغراب؛ لم يبدُ عليـه أنه انتبه لوصول الخادمة، ناهيك عن أنه قد يفكر بقطع رسمه وتناول الطعام! راحت تُحرِّك عينيها ببطء ناحية الأطباق، ثم تعودُ وترمقه باستجداء يائس فانتبه أخيرًا وتوقـف عـن الرسم وهـو يقول: آسف يـا سيد هاملـت، يُمكنـك أن تتناول طعامك، وسأتابع الرسم.

ابتلعت ريقها وهي تسأل: ألا تأكل معي؟!

أجابها: تناولت فطوري قبل قليل، لا عليك، خذ وقتك وسأتابع أنا.

مدَّت يدهــا نحو الطعام ثم شرعت تأكل، ولكـن على الرغم من جوعها لــم تكن قــادرة على إسكاته، واكتفت بالقليل، لم تكـن تعرف إلا اليوم مدى صعوبة أن تأكل وأمامك فنان يُطالعك ولا يرفع عينيه عنك!

ظنت أنَّها أسوأ وجبة تناولتها في حياتها ولكن لم تكن تعرف أنَّها ستتناول الغداء بالطريقة نفسها، وأن الموضوع سيطول حتى غروب الشمس.

ولــم يكن يعرف الفنان أنَّ التي يرسمهــا كانت قد وضعت ألف خطة في دماغهــا لقتلــه بعد أن وضعت ألف عذر لتهــرب، وأنَّها كانت قد عزمت على كره كل لوحاته التي مجَّدَتها من قبل وأحبَّتها!

ولكــن من حسن حظنــا كبشر أننا لا نقرأ أفكار غيرنا، وإلا لما بقي أحدٌ يصادق أحدًا!

كان يضع اللمسات الأخيرة، في الوقت الذي طُرق فيه الباب وأطلَّت من ورائه بياتريتشا التي وقعت عيناها أول ما وقعت على الجالسة على الكرسي، فلاحــت الشماتة علــى وجهها، تقدَّمت وهي تسأل: كيف هــو الوضع يا سيد رامبرانت؟ إلى أين وصلت؟

فــي تلك اللحظة كان الأميــر قد دخل الغرفة، ومــا إن لمحته وهو يوجِّه نظراتــه إليها حتى أشاحت عينيها، وتظاهرت أنهــا لم تره، وشعرت لحظة بتســارع نبضــات قلبها! أنكرت هذا الشعور بقدر مــا تعجبت منه، ثم عادت لتنظــر إليه، كانت بياتريتشا ممسكة بكفه وهو يَهمُّ بالجلوس على الكرسي، وعندما جلس سأل: أين وصلت؟

وأخيرًا تحرَّك رامبرانت من مكانه والتفت خلفه، وظهر جزء من اللوحة شاهدتها بياتريتشا فأطلقت صيحة إعجاب وعلَّقت وهي تقترب منه: دعني أرَ، دعني أرَ.

لكــن وجهــه انقبض وهــو يفسح لها المــكان ويقول محــذرًا: احذري أن تُفسديها.

تأملتها ثم راحت تَنقل بصرها بين هاملت وبينها قبل أن تقول: أنتَ تُبهرني دومًا يا سيد رامبرانت، إنكَ فنان بحق، إنكَ من تعطي اللوحة موضوعها، ولا علاقة للموضوع بجمال فنك.

شعرت الكاتبة كأنَّها قد تلقَّت إهانة للتو؛ فوضعت ساقًا على ساق ومالت بجسدها قليلًا وهي تردُّ: هذا لا ينفي أهمية ودور الموضوع.

لاح البِشْر على وجه رامبرانت وأصبحت تجاعيده أكثر وضوحًا وهو يبتسم ويردُّ: أنتِ تبالغين بياتريتشا، لولا الموضوع ما كانت اللوحة.

ولكنك في النهاية مبدع، وأرى أنكَ أبدعت أجمل لوحاتك على الإطلاق.

تجاهلت حديثهم ووجهت نظرها إلى الأمير، كان هو الوحيد الذي لم يحتفِ باللوحة! وكان يَضمُّ كفيه لبعضهما، خافضًا رأسه ولم يرفع عينيه مرة لينظر إليها ولا حتى إلى اللوحة! أثار ذلك استغرابها وفضولها، ثم وقفت موجِّهة سؤالها إلى رامبرانت: أيمكنُني مشاهدتها الآن؟

رحبَ بذلك وأردف: لقد انتهيت منها بالفعل.

تحركت تسبقها اللهفة، وما إن استدارت ووقعت عيناها عليها، حتى انقبض فؤادها ووجهها، ظنَّت أنَّها واهمة، فأمعنت النظر فيها مجددًا ثم سألت: أين الملامح؟!

أجابتها بياتريتشا وهي عابسة مستنكرة: ما الذي تعنيه؟! ألا ترى، أم أنكَ تمزح معنا؟!

أشارت إلى اللوحة وهي تعترض مؤكدة: لا أمزح، مَن في اللوحة بلا أية ملامح!

ثم رمقتهم باستنكار وأردفت: إنَّها حقًّا بلا ملامح! هل تسخرون مني؟!

شعر رامبرانت بأنَّه تعرض لإهانة كبيرة وجُرح كبرياؤه الفني؛ فكان ما فهمه أنَّ اللوحة بلا ملامح جيدة، ولم يفهم أنَّها كانت تعني أنَّها حقًّا ترى شخصًا بلا أية ملامح، ترى وجهًا أبيض صامتًا وحسب، فسأل بضيق شديد: أتعني يا سيد هاملت أن اللوحة لم تَرُق لك؟!

بل هي جميلة لكنَّها لم تكتمل؛ الوجه خالٍ من أية ملامح!

نظـرا سويًّا لبعضهما ثم عاينا اللوحة مجـددًا وشاهداها كاملة، لا كما ذكـرت، فلاح علـى وجهيهما ضيق شديد عبرت عنـه بياتريتشا بحدة وهي تقـول: هذا يكفي، أنتَ تُسـيء للسيد رامبرانت! كيف تقول إنَّها ناقصة وبلا ملامـح ونحن نشاهدها عكـس ذلك؟! إنَّها ليست ناقصـة لكنَّها لا تُشبهك تمامًا؛ فقد زادكَ السيدُ رامبرانت جمالًا وأصالة تفتقر إليها أنت.

ثـم صرفت وجههـا إلى الجهـة الأخرى وهي تلـوي شفتيهـا غيظًا، أما رامبرانـت فقد أظلم وجهه ونطق آسفًا: لقـد جعلتني أكره عملًا أحببتُ كل دقيقة أمضيتها فيه، يا للأسف!

ثم وضع فرشاته جانبًا وخرج من الغرفة دون أن يُعقِّب بشيء بعدها، أما بياتريتشـا فلم تصمت وراحت تلومه علـى الفور وتصف فعلته بسوء الأدب. أمـا هي فلم تنطق بشيء وظلَّت مطرقة طرفهـا وعقلها سارح يُفكر أنَّ هذا المشهـد وكلمة رامبرانت الأخيرة، قـد شاهدتها في مكان ما أو قرأتْ عنها من قبل!

أخرجها من زوبعة أفكارها الأمير الذي وقف وقطع بياتريتشا وهو يعلِّق: هـذا يكفي يا عزيزتي، لقد قسوتِ عليه كثيرًا، ثم إنَّ من حقه أن يُبْدي رأيه في العمل، حتى لو لم يعجبه.

شحـب وجه الكاتبة، فردَّت لتدافـع عن نفسها بصوت متزن: ليس الأمر كما لو أنَّها لم تعجبني، ولكنِّي حقًّا لا أرى أية ملامح في وجه صاحبها!

ثـم لاحت على عينيهـا نظرة تنمّ عن رجـاء صامت لينظـر إلى اللوحة ويبـدد حيرتها، لكنَّه لـم يفعل فخاب أملها، ووجَّهت نظرهـا إلى بياتريتشا وسألت: أحقًّا تُشاهدين ملامحها؟!

لكنَّ بياتريتشا لم تُجبها ولوت فمها بحركة تنمّ عن الاستياء، ثم وجَّهت قولها إلى الأمير: لنذهب سيدي.

ثــم تناولت ذراعه وراحــت تدفعه للمغادرة، وقبل أن ينــزوي أدار رقبته قليــلًا ناحيتها وحطَّــت على وجهه مشاعــر شفقة ثم أغلق البــاب خلفهما، لكــن سرعان ما فُتح مــرة أخرى وأطلَّت منه بياتريتشا وهــي تقول: عُد إلى غرفتك، أرجوك، ولا تخرج لأي مكان آخر وسأرسل لك العشاء.

ثــم صفعت البــاب بأقوى ما تستطيع، أما هاملــت فقد تنهدت ثم عادت تتأمل اللوحة وتُحدِّث نفسها: إنَّها حقًّا لا تملك أية ملامح! لماذا لا يُصدقني أحد؟!

بعــد ذلك حملت اللوحة برفق لئــلا تفسد، وقصدت العودة إلى غرفتها، وبعــد أن تاهت قليلًا تمكَّنت أخيرًا مــن الوصول إليها. وجدت بياتريتشا في انتظارها وقد أحضرت لها العشاء، تجاهلتها وعبرت من جوارها ثم وضعت اللوحــة بجوار السرير، وكانت بياتريتشــا تُراقبها قبل أن تسألها: هل تطلب شيئًا آخر؟ سأغادر الآن.

هــزَّت رأسها نافية دون أن تنظــر إليها، فاتجهــت بياتريتشا إلى الباب فــورًا، ولكــن ما إن همَّت بفتحــه حتى توقفت تستمع لما قالــه هاملت: أعلمُ أنــكِ غاضبة مني وربما كانت مواقفنا قد جعلتــك تفهمينني بشكل خاطئ، ولكــن ألا تعتقدين أنَّه من السيئ جدًّا أن توقفاني كل هذا الوقت، ثم تحاولا إقناعــي بأن اللوحــة كاملة وهي في الحقيقة بلا ملامــح؟! إنَّ هذا أكبر من أن أحتمله!

زفــرت بياتريتشا الهــواء من أنفها بغيظ، ثم علَّقــت وهي تسحب الباب لتُغلقه: لا رجاء منك.

ثــم أغلقته بقوة جعلت عينيّ هاملت تُغلقان على إثرها، وخاطبت روحها ساخرة: هل هي متخصصة في خلع الأبواب يا ترى؟!

ثــم اتجهت إلى المرآة وقبــل أن تنظر إلى نفسهــا تملَّكها خوف شديد، خشيــت أن تجــد نفسهــا هــذه المرة بملامــح أخــرى، أو ربمــا كان شكلها الحقيقي بلا ملامح!

رفعت عينيها ببطء وحذر فوجدت نفسها بملامح هاملت كما تصوره ديلاكروا بحاجبي الموناليزا التي تثير غيظها! فاطمأنت قليلًا، وعادت أدراجها حيث وضعت اللوحة ورفعتها لتنظر إليها، وكانت مثلما شاهدتها أول مرة بلا أية ملامح!

أغمضت عينيها وفكَّرت: إمّا أن يكونوا عميانًا أو أكون أنا العمياء، أو أنَّ اللوحة بها مسٌّ من الجن! أو أنَّهم متفقون على إغاظتي.

فتحت عينيها وراحت تتأملها مجددًا، إنَّها لوحة، لوحة رسمها الفنان رامبرانت بعد كل شيء، لِأقل: إنَّه سخر مني أو ضحك عليّ أو أخطأ، المهم هي لوحة صُنعت بأنامله، وهذا وحده يكفي.

ثم حملتها ووضعتها أمام النافذة لتجفَّ بسرعة، ثم رمت نفسها على الفراش وتركت ساقيها مُنسدلتين، حملقت إلى السقف، وراحت تُفكر فيما حدث معها، إن آخر شيء تتذكره هو دخولها المكتبة ثم!

ثم ماذا؟!

شعرت بانقباض قلبها كما لو أنَّ ريحًا رملية قد عَبَرت من أنفها فأثقلت صدرها!

ثم ماذا؟ ما الذي حدث بالضبط؟ لماذا لا أتذكر؟! كل ما أتذكره هو دخولي المكتبة وحسب! لماذا دخلتها ليلًا وأنا التي تخاف من دخولها في الليل؟! ما الذي كنتُ أفكِّر فيه يا تُرى؟! ثم كيف وصلتُ إلى هنا؟! ولماذا يلازمني هذا الشعور المؤلم كلما حاولت تذكر ما جرى؟! لماذا؟!

كانت تشعر بأن جفنيها ينسدلان على الرغم من إحساسها بالجوع، ورغبتها الملحَّة في النهوض وتناول العشاء، لكن النوم قد غلبها.

الفصل الرابع

أحيانًا ينبغي عليكَ أن تُغمض عينيك؛ لترى.

استيقظت صباحًا لتجد نفسها قد نامت دون أن تبدِّل ثيابها، أما طعامها فقد بقي كما هو، اتجهت إلى الحمام على الفور ثم بدَّلت ثيابها، واتجهت إلى المرآة لتُسرح شعرها، وفي أثناء ذلك لمحت اللوحة خلفها، ولكن كان ثمة شيء فيها قد تغير، هالها ذلك لبرهة وثبَّتها في مكانها، استرقت النظرات إليها من خلال المرآة قبل أن تستدير وتذهب إليها، لقد ظنَّت أن الموضوع خُيل إليها لكن ما إن أمعنت النظر فيها حتى لاحظت أنَّ العتمة في الصورة قد زادت أكثر من البارحة!

علَّلت لنفسها قائلة: لا شك أنَّها كانت كذلك، ولكنِّي لم أدقق البارحة جيدًا!

في تلك اللحظة طرق الباب، فتوجهت أنظارها نحوه وإذا بها تسمع: سيد هاملت، لقد جئتُ لاصطحابك لتناول الفطور مع سيدي، إنَّه يطلبك.

أجابتها: حاضر، أنا جاهز.

عادت إلى المرآة وتأمَّلت هندامها، ثم زوت عينيها إلى اللوحة وتملَّكها شعور بالرعب؛ لقد خشيت أن تكون قد حظيت بلوحة كلوحة دوريان جراي، ولكن لماذا؟!

أبعــدت الفكرة عن رأسها وهــي تقول: إنِّي واهمة فقط، ثم أسرعت نحو البــاب والتقت بياتريتشا التي أومأت لها بالتحية، فتبعتها في صمت. وبينما همــا تعبران الممر بجوار بعضهما كان رامبرانت مقبلًا من الجهة الأخرى، وعندما شاهدها أشاح وجهــه عنها وأسرع خطواته وعَبَر من جوارهما وهو يقــول: صبــاحُ الخير سيدة بياتريتشــا، وتابع سيــره دون أن ينتظر جوابها، تبعته بنظراتها حتى انزوى ثم علَّقت: يبدو غاضبًا مني جدًّا!

حدجتها بياتريتشا بلوم وقالت: يحقُّ له ذلك.

لــم تُعلِّق وفضَّلت الصمت وتابعت طريقها حتــى وصلا إلى صالة كبيرة تقــع الغرفــة في جانب منها، ثم توقفتا فجأة؛ لقــد شاهدتا وجه الشيخ وهو يقف أمام الأمير، وقعت عينا الشيخ عليها فأظلمت ملامحه واعتلاه الرعب كمــا لو أنَّه شاهد شيطانًا! فصرف وجهه عنها ثــم شاهدته يهمس في أذن الأمير فشعرت بأنَّه يقصدها، أدار الأمير رقبته قليلًا ناحيتها لينظر إليها، ثــم عاد ليُخاطب الشيخ، علَّقت متبرمــة: كأنَّهما يتحدثان عني! ألم تلحظي ذلك؟!

هزَّت بياتريتشا رأسها نافية، وما إن همَّت بالتقدم حتى فوجئت بالشيخ يستديــر ويُسرع خطواته ليغــادر سريعًا، استنكرت ذلــك، واستنكرت عدم تحيتــه لها كالمعتاد! فسدَّدت إلى الواقفة بجوارها نظرات اتهام وهي تسأل ساخرة: ما الذي فعلته في حياتك، سيد هاملت؟!

استنكــرت الســؤال ورفعــت حاجبيها تختــزل اعتراضًا وهي تــردُّ: إلامَ تُلمحين؟! ولماذا تظنين أنني فعلت شيئًا سيئًا؟!

بتهكُّم ردَّت: أنا لم أقل شيئًا سيئًا! أنتَ من قلت.

ثــم أشاحت عينيها وأسرعت إلى الأمير الذي كان يقترب منهما، تبعتها وهي تغضُّ طرفها، وعندما وقفت أمامه قالت: صباحُ الخير سيدي الأمير.

أجابها وهو يَهمُّ بالدخول: صباح الخير.

رفعت عينيها لتنظر، كان قد ولج الغرفة بالفعل، وراح يعبر من جوار الكراسي، نظرت إلى بياتريتشا وسألت: ما اسم الشيخ؟

لكن يبدو أنَّ بياتريتشا لم تجد مبررًا لهذا السؤال سوى الاستغباء فأجابت وهي تسبقه: اسمه الشيخ، (الشيخ) هكذا.

تذكرت أنَّ هيمنجواي لم يسمِّ الشيخ بالفعل، ومع ذلك لم تستطع منع نفسها من السؤال الذي يُلِحُّ في ذهنها فأفصحت عنه: وماذا عن الأمير؟!

- ما الذي تعنيه؟!

- أعني ما اسمه؟

رمقتها باستخفاف وهي تردُّ: ولماذا السؤال؟

كان صوت ارتداد الباب المُزعج دليلًا على مدى استيائها من السيد هاملت! ومع هذا لم يَبدُ عليها أي اكتراث، بل إنَّها راحت تقنع نفسها بأن استياءها مُبالَغ فيه.

ثم راحت تأخذ لها مكانًا، في البداية شعرت بالحرج وترددت كثيرًا قبل أن تشير لها بياتريتشا بالجلوس على يسار الأمير ففعلت، رفعت عينيها لتنظر، كان الأمير موجِّهًا أنظاره صوب الباب، فوجدتها فرصة لتتأمل ملامحه أكثر، فحينما شاهدته أول مرة كان الخوف يملأ قلبها، والبارحة لفَّها شعور غامض بالخجل، ربما لو أمعنت النظر إليه الآن لأمكنها أن تعرف من يكون.

ولكن دخول الخادمات في تلك اللحظة، ومن بينهم هاملت، أجبرها على النظر إليهن ومراقبتهن وهنَّ يضعن أطباق الفطور، وما إن وصلتها الرائحة حتى سال لعابها وتذكرت أنَّها لم تتناول عشاءها البارحة.

ولم تلحظ حينئذ أن بياتريتشا قد ساعدت الأمير في التقاط ملعقته، تبسَّم لها وهو يقول: اجلسي يا عزيزتي.

وهنا نظرت إليهما، وشاهدت بياتريتشا وهي تجلس على الكرسي الذي على يمينه، وأصبحت الآن مقابلة لها.

ثــم شرعا بتناول الطعام في جــو صامت ودون تبادل أية كلمات، بالطبع لــم يَرُق هذا الجو لها، لكنَّها فــي كل الأحوال لم تكن متفرغة للحديث بقدر مــا كانت متفرغة لمـلْء معدتها بأكبر قدر ممكن مــن الطعام كتعويض عن جوع اليوم الفائت المؤلم.

كان انفتــاح شهيتها على هذا النحو قد جعــل بياتريتشا ترمقها بازدراء لاحظته لكنَّها تابعت الأكل بنهم غير مكترثة لنظراتها.

فرغــت بياتريتشا مــن الأكل، ومسحــت شفتيها بالمنديــل ووقفت وهي تسأل الأمير: أتحبُّ أن نقرأ هنا أم في الحديقة؟!

مسح فمه قبل أن يسألها: أين وصلنا يا ترى؟

لكنَّــه أجاب عن نفســه قبل أن تجيب: نعم صحيــح، حينما ذهب الأمير إلى منزل روجين*.

وهنــا فقــط توقفــت الكاتبة ورحمــت طبقهــا ومنحته فرصــة ليتنفس، وسألــت وهــي تلوك لقمتهــا: الأميــر وروجين؟! لا شــك أنَّك تقصــد رواية (الأبله) لدوستويفسكي؟

التفت الأمير ناحيتها وأجاب: نعم.

أمــا بياتريتشا فقد حدجتها بتقزز وتمنَّت لــو أنَّها كانت قادرة على رفع الطاولة وطرحها فوقها.

ذِكرهــا لدوستويفسكــي جعلهــا تعتقــد أن الأميــر إحــدى شخصياته، فتيقظت ملامحها وظنَّت نفسها أرخميدس، وصاحت بحماسة: يوريكا**.

ثــم أردفت وقد أنْستهــا الحماسة كل آداب اللباقــة والأدب: لا شكَ أنَّك الأبله، أنت الأمير مشكين*** إذن.

---

* إشارة إلى بطل من أبطال رواية (الأبله) للأديب الروسي دوستويفسكي.

** يوريكا: هي كلمة يونانية تعني(وجدتها) وهي إشارة لقصة العالِم أرخميدس حينما اكتشف قانون طفو الأجسام فوق الماء: فأطلق صرخته الشهيرة.

*** الأمير مشكين هو بطل رواية (الأبله) للأديب الروسي دوستويفسكي.

وهنا فقـدت بياتريتشا صبرها وأعلنت أنَّها لن تحتمل المزيد، فضربت الطاولة بيدها فطارت الأطباق- وعلى الأرجح كان أولئك الذي شهدوا رؤية أطبـاق طائرة لمخلوقـات فضائية، لم يكونـوا يقصـدون إلا أطباقًا طارت مـن فوق مائدة في لحظـة غضب مشابهة- صرخـت: البارحة تُهين الفنان رامبرانت، واليوم تُهين الأمير؟! من الذي نعتَّه بالأبله يا أبله؟!

وهنـا ازدردت اللقمـة فعلقت فـي حلقها، فاختنقت وراحـت تسعل بقوة وتضـرب علـى صدرها، فضحـك الأمير ضحكـة صاخبة أثـارت استغراب بياتريتشـا! أما هي فقد نهضـت لتلتقط كأس ماء وشربتـه بسرعة، وما إن فرغت حتى رمقتهما بحيرة وخجل، فوجدت بياتريتشا قد هدأت قليلًا على الرغم من أنها حافظت على نظرات الغيظ التي تطالعها بها قبل أن تصرف وجهها عنها وتقول: يا سيدي: إنه يتجاوز حده معك!

وجـد الأميـر صعوبة ليتوقـف عن الضحك ثـم هدأ قليـلًا ونظر ناحية بياتريتشا وقال: لا بأس يا عزيزتي، أنتِ تبالغين كثيرًا.

ثم نظر إليها وقـال: هل يُهمك أن تعرف إلى هذا الحد من أكون؟!خَمِّن إذن.

اعتدلـت قليلًا وقد اعتلت الجدية ملامحهـا وهي تُجيبه: أريدُ أن أفهم، إنَّ مـا يحـدثُ معي هنـا غريب بالفعـل! وكل ما لاحظتـه أنَّ الأشخاص هنا يحملون أسماء أبطال روايات مشهورة و...

راحت تنظر إلى بياتريتشا وبدا واضحًا ترددها قبل أن تكمل: ولوحات!

أبعـد الأميـر منديله قليـلًا وتنبَّهـت ملامحه وهـو يسأل: ومـن الذين عرفتهم؟! الشيخ والملكُ لير ودوريان جراي ورامبرانت و...

أمسـك عن الـكلام: لقد شعر فجـأة بضجـر بياتريتشا، كمـا أنه أراد أن يصرفهـا، فوجَّـه إليها الحديـث قائلًا: يُمكنك يا عزيزتـي أن تُحضري الكتاب، سأنتظرك هنا.

أومأت موافقة. ولكنَّها قبل أن تغادر حدجت هاملت بنظرة استشفت من خلالها نية في التخلص منها!

فأنزلت كفيها تحت المائدة وزمَّت شفتيها إمعانًا في استفزازها وراحت تطيش بعينيها في كل اتجاه كأنَّها لم ترَ ولم تفهم شيئًا، وعجبت من رد فعلها هذا الذي وجدت فيه لذة لم تجربها من قبل.

هذا ما فكرت فيه وهي تُراقبها تُغلق الباب خلفها، عادت تنظر إلى الأمير وحدثته: إنَّ هذا يثير فضولي، لم أكن أعلمُ أنكَ تُحب الكتب، حينما سخرت مني ولم تجبني عن هاملت ظننتك حقًّا لا تعرفه.

ابتسم الأمير وأجاب: نعم، أحبُّ الكتب، وكن واثقًا أنِّي أعرفُ كل ما تعرفه، لكن الكتب ليست كل شيء.

مالت بجسدها على المائدة لتقترب منه وسألت بدهشة: أتعني أنكَ قرأتَ كل ما قرأته؟! من أين لكَ هذه الثقة؟!

لم يُجبها بشيء، وشاهدت شفتيه تنحنيان عن بسمة هادئة، ولكن فضولها قد ازداد فتابعت: أخبرني، ما هذا الجنون؟! كيف لكل هذا أن يحدث؟!

لاح الاستنكار على وجهه وتريث قليلًا قبل أن يجيبها: ما الجنون الذي تقصده وتسأل عنه؟! إنَّ الجنون الذي أراه الآن هو أنَّك شخص محكوم عليه بالإعدام، وأنَّك لاجئ، ومع ذلك كل ما تفكر فيه هو معرفة اسمي!

خاب أملها؛ فهي لم تتوقع إجابة كهذه، ولكن يبدو أن نظرتها عنه لم تكن مخطئة، ومع ذلك عبَّرت عن استيائها بوضوح: أتريدُ أن تقول إنَّ كل هذا مجرد مصادفة؟! كيف يكون ذلك النرسيس الجميل يحمل اسم دوريان جراي بطل أوسكار وايلد؟! وكيف تكون عزيزتك بياتريتشا تُشبه ملامحها تمامًا لوحة ريني التي رسمها لبياتريتشا تشينشي قبل إعدامها؟! إنَّ هذا غير منطقي ومجنون! وكيف يكون رامبرانت هنا؟! وشيخ هيمنجواي كيف...

قاطعهــا الأميــر بقوله: ذلــك النرسيس الــذي وصفته، ابتعــد عنه قدْر الإمكان واحرص على ألا يراك، فهمت؟!

غمرها اليأس وهي تستوضح عينيه، إذ بدا لها مصرًّا على صرفها؛ لذا علَّقت: لم تجب! أنت تثير غيظي.

أسند الأمير رأسه إلى كفه وقال: أتعتقد أنني بطل من أبطال الروايات؟ إذن خمِّن من أكون.

زمَّـت شفتيها مفكِّـرة وأسندت رأسها هي الأخرى إلــى المائدة وراحت تنظر إليه بإمعان ثم قالت: عيناك...

انكمش وجهه لحظة وسأل: ماذا؟!

عينــاك تشبهــان عينيّ (فولتيــر)، ولكن ملامحك لا تشبهــه! لا تقل لي إنَّك هو؟!

أبــدى اهتمامًــا وهــو يــرد: (فولتير)؟! غريب! هــذه أول مــرة يَذكر لي أحدهم ذلك.

خفضـت يديها وبدت متحمسة للإيضاح فقالت: نعم، هذا ما ظننته أول ما شاهدتك، اسمع، سأخبرك بشيء...

تريثـت لحظة قبل أن تتابع بانفعال وحماسة: لطالما كنتُ أعتقد أن تلك الآراء التي تقول: إنَّ ملامحَ الوجه تُعبِّر عن المكنون، هي ضرب من التنجيم والشعـوذة، ولكن بطريقةٍ ما يبدو أنَّ علاقة أعماقنا مع صورنا علاقة أقوى وأعمـقُ وأعقد مما نتصوره. علــى سبيل المثال: انظر إلــى لوحة (فولتير) الشهيـرة التي رسمها لــه (لارجيلير)، يُمكنكَ أن تشعـر حتى قبل أن تقرأ لــه أو عنــه أنَّه إنسان يُعبِّر عن آرائه بسخريــة، إنَّ عينيه ساخرتان حتى في صمتهما، وهذا يَدل أيضًا على أنَّه كان في ثورة دائمة، كما يُمكنك أن تشعر بأنَّه واثق بنفسه إلى حد الغرور أحيانًا، (فولتير) يَجعلك تبتسم وأنتَ تتألم، لقد جعل من السخرية فنًّا.

لاحظت إشراق وجهه وحماسته وهو يستمع إليها فاسترسلت بالحماسة نفسها: وانظر إلى لوحة (روسو) ستجدها عكسه تمامًا، وستعلم لماذا لم يكونا على وفاق تام، يُمكنكَ أن تلمح عينيْ (روسو) مبتسمة قبل شفتيه، ويُمكنكَ أن تفهم لماذا كان يُنعت بفيلسوف الشعب، كيفما أمعنت النظر إلى ملامحه لا يُمكنك إلا أن تشعر بتواضعه، ويُمكنك أن تشعر بأنَّه من ذلك النوع من الأشخاص الذين إن ألقيت أمامهم فكرة ما أو معلومة سخيفة أو خاطئة فلن يكون موقفهم أكثر من تصحيحها لك فقط، بل ربما تجاهلك، أما (فولتير) فيُمكنك أن تتنبأ بوجودك ومعلوماتك الخرقاء في إحدى رواياته على سبيل التندُّر بك. وانظر إلى لوحة الكاتب (سفليدوف غارشين) التي أبدعها (إيليا رابين) له، لا يُمكنك إلا أن تشعر بأنَّ صاحبها إنسان بائس وستنتهي به الحال بقتل نفسه، وهذا ما حدث له بالفعل، وانظر إلى اللوحات التي رُسمت (لتولستوي) في شبابه وإلى تلك التي رُسمت في أواخر حياته، ستجد فرقًا جوهريًا؛ لم يكن (كرامسكوي) مبدع الموناليزا الروسية قادرًا على أن يُخفي نظرة (تولستوي) الحادة والأرستقراطية والمتطلّعة في شبابه، ولكن تأمل جميع اللوحات التي رسمها له (إيليا ريبين) في شيخوخته، ستجد أنَّ هذه الحدة قد اختفت وحلَّت مكانها نظرة أكثر عمقًا وإحساسًا، ولننظر إلى لوحة (دوستويفسكي) الشهيرة وهو يَضمُّ كفيه ويضعهما فوق ركبتيه، هي أشهر ما رسم له على الإطلاق، ولكن انظر إليها وإلى نظرات عينيه فيها، لا يُمكنك إلا أن تشعر بأنَّ صاحبها عالق في ذكرى لا يُمكنه أن يتحرر منها، وهذا بالفعل ما تلاحظه إن قرأت له، إن (دوستويفسكي) قد تابع حياته وأبدع، ولكنَّه ظلَّ عالقًا في ساحة الإعدام، ففي جميع اللوحات التي رُسمت له ستلاحظ أن عينيه غارقتان في ذكرى تُوجعه، وشاهد لوحات (رامبرانت) التي رسمها لنفسه كما لم يرسم فنان نفسه من قبل، ستجدُ في جميعها ثمة شيئًا يُطلعك على بؤس صاحبها رغم فخامة ثيابه، ثمة حزن عميق يختبئ في عتمته على الرغم من أضوائه،

والأمر لا يختلف في الصور الفوتوغرافية؛ انظر إلى عينيّ مالك بن نبي في صورته، هل قرأت له؟!

لا يُمكنك أن ترى في عينيه إلا نظرة حالمة واسعة ممتدة بامتداد الأفق، وعندما تقرأ له ستدرك أنَّه كان يعانق الكون بعينيه، والأمر لا ينطبق فحسب على الملامح وما تنقله لنا، بل حتى فيما نصنعه بأنفسنا، فلو شاهدتَ جميع لوحات (فان جوخ) وركزت في شموسه الكثيرة، اللون الأصفر فيها؛ لأدركت أنَّ صاحبها يتوقُ إلى الدفء والقبول أكثر من أي شيء آخر، ولا عجب أن يقول" الدفء يجعلُ الفقر أقل شدة وأسى"*.

ما أصبحتُ مؤمنًا به هو: إما أنَّ صورنا تُعطي لمحة عن طبائعنا بطريقة أو بأخرى، أو أنَّ الفنَّ هو من يُعطي لمحة عن طباعنا، أو أنَّه قادر على رسم طباعنا على صورنا.

لاح طيف ابتسامة رقيقة على شفتيه لاحظتها بالكاد وهو يقول: وماذا أيضًا؟

أسعدها اهتمامه، ولم تكن قادرة على إخفاء هذه البهجة عن ملامحها، فراحت تجيبه بالحماسة نفسها: حينما شاهدتك أول مرة لاحظت أن عينيك كعينيّ (فولتير)، أعني أنَّهما ساخرتان حتى في صمتهما، ويبدو لي أنكَ كذلك، إضافة إلى أنَّك تبدو مهتمًّا بكل شيء وفي الوقت نفسه لا تهتم لشيء.

لم تَرُق له ملاحظتها الأخيرة وخشي استرسالها فصرفها بسؤاله: أخبرني، لماذا أغضبت رامبرانت البارحة وأنتَ معجب به إلى هذا الحد؟!

لم تجبه على الفور وتوضَّحته بنظراتها، وأذهلها كيف أنَّ ملامحه تبدَّلت واكتست بكل هذا الجمود في لحظة! كان واضحًا انزعاجه المفاجئ من ملاحظتها الأخيرة وجهده المبذول لإخفاء ذلك، ونظراته المترقبة للجواب، فأجابته: لقد أخبرتكُ من قبل لم أقصد الإساءة لأحد، ولكنِّي حقًّا أراها بلا ملامح! لماذا لم تُشاهدها؟! ربما لو فعلت ستفهم ما أعنيه.

---

* من رسائل (فان جوخ) لشقيقه (تيو)، آرل 8 أغسطس 1888م.

في تلك اللحظة كان الباب قد فُتح وعادت بياتريتشا وهي تحمل معها رواية (الأبله).

ثم جلست في مكانها وقالت: هل أبدأ الآن يا سيدي؟!

سأل الأمير هاملت: أتُحب أن تبقى هنا لتستمع أم تعود إلى غرفتك؟!

لا بأس سأبقى؛ فأنا أحب هذه الرواية.

على الفور فتحت بياتريتشا الكتاب حيث وضعت الفاصل ثم شرعت تقرأ بصوت جميل، وكانت ملامحها كلها تقرأ في أثناء ذلك؛ فقد كان حاجباها الرقيقان ينعقدان في مواضع وينفرجان في أخرى، وعيناها تضيقان في مواضع وتتسعان في أخرى، بدت هذه التجربة مثيرة وفريدة لها، ومع ذلك وبعدما انتهت بياتريتشا من قراءة الجزء المخصص لليوم، علّقت قائلة: هذه أول مرة أستمع إلى شخص يقرأ لي، لقد كانت بياتريتشا بارعة حقًّا ولكن ما زلتُ أعتقد أنَّها لا تساوي لذة أن تقرأ الكتاب بنفسك.

ثم مالت بنظرها نحو الأمير وسألت: هل جربت أن تقرأها بنفسك ووحدك وأنت تشر...

تلعثمت وانتفض قلبها ولم تكمل ما نوت قوله؛ لقد شعرت بأنَّ أحدًا ما يسدد إليها سهامًا غاضبة، حرّكت عينيها ناحية بياتريتشا، كانت تحدجها بنظرة غاضبة وهي تكزُّ على أسنانها بوضوح، فتابعت: تشرب الق... الحليب.

ومع ذلك أجابها الأمير: نعم أنت محق، أعتقد أنَّها أكثر إمتاعًا.

ثم نهض وهو يقول: أعتذر لك، لديّ أمور يجب علي إنجازها، لطفًا ابقَ في غرفتك وسأقابلك الساعة الخامسة.

ثم عبر من جوارها وتبعته بياتريتشا وهي محافظة على نظراتها الغاضبة حتى أغلقت الباب خلفها، أسندت رأسها إلى كفها وقالت: قد ازداد الوضع سوءًا، يبدو أن بياتريتشا فهمت كل حديثي معها بمعنى خاطئ

بسبب مظهري الرجولي! هل علي أن أصلح الأمر وأخبرها أنني امرأة مثلها؟! لكن كيف أثبت ذلك؟!

فُتح الباب بسرعة فانقبض قلبها، كانت بياتريتشا قد عادت وملامحها مضطربة بعض الشيء، فسَّرت ذلك بقولها: لا تخرج من هنا، لقد حضر السيد دوريان للتو، أرجوك لا تتهور؛ لا نريد المزيد من المشكلات.

أومأت موافقة، لكن ثمة حماسة برقت في عينيها وهي تفكّر، دوريان يعني نرسيس!

قرأت بياتريتشا هذه الحماسة في وجهها؛ فرمقتها بنظرة غير مرتاحة قبل أن تغلق الباب خلفها بقوة.

سمعت صوت جلبة في الخارج، واستطاعت أن تُميز صوت بياتريتشا وهي تقول: إنَّ سيدي في الحديقة يُمكنكَ أن تقابله هناك.

لكن الصوت الآخر أجاب: كلا لن أذهب إلى هناك، سأنتظره هنا.

أحست باليدين اللتين أمسكتا مقبض الباب في الوقت نفسه، وبياتريتشا تُحاول صرفه بيأس وهي تقول: سيد دوريان، إنَّ المائدة في حالة فوضى؛ للتو انتهينا من تناول ...

قاطعها وهو يدفعها ويدير الباب ويدخل، فصرخت بياتريتشا في وجهه: توقف.

ولكنَّه كان قد فعل، والتفت إليها مستنكرًا صراخها وإصرارها على منعه، وقال: سأتجاوز هذه الوقاحة غير المبررة منكِ.

ثم ولج سريعًا وجلس على أحد الكراسي.

أما هي فقد ازدردت ريقها ودارت عيناها في كل ركن بالغرفة بحثًا عن هاملت الذي يبدو كأنَّه قد تبخر!

اقتربت من دوريان وهي تعتذر: أرجو أن تغفر لي يا سيد دوريان وقاحتي، فقد ظننتُ أن الخادمات لم يقمن بواجبهن.

لم يجبها بشيء واكتفى بنظرة تُعبر عن استيائه، فخفضت رأسها قليلًا بأدب وأردفت: سأنادي سيدي حالًا.

لوى فمه وهو يضم ذراعيه بنفاد صبر واضح ويقول: وأخبريه أن يسرع.

ما إن تجاوزت كرسيين حتى شعرت بأنفاس مضطربة تحت المائدة، فحمدت الله أن هاملت هذا كان يملك من الذكاء ما جعله يتصرف بطريقة جيدة، فأطلقت تنهيدة مرتاحة ثم أسرعت مغادرة، أما هاملت المنحوس، فقد تمكّن من فهم مشاعر السيد (أورغون) زوج السيدة (ألمير) وهو ينتظر تحت المائدة ليُوقع طرطوفَ* المنافق على مسرح موليير!

حاولت أن تُهدئ اضطرابها بيأس، وأدركت أنَّه من المستحيل الحصول على بعض الهدوء وهي تُشاهد أمامها ساقيْ نرسيس تضربان الأرض بكل هذا الضجر!

لكن ما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب، وشاهدت قدمي الأمير وهو يتجه إلى مكانه في صدر المائدة، والغريبُ أنَّه عبر من جوار دوريان دون أن ينطق بشيء، وحتى دوريان لم يفعل، لكن ما إن جلس في مكانه حتى عاجله بقوله: أعلمُ يا أخي أنَّك آويت الهارب عندك، بل إنَّك أنتَ من مكّنته من الهروب، أخبرني أهو في قصرك الآن؟!

استطالت صمت الأمير حتى ظنت لحظة أنَّه غير موجود، لكن دوريان تابع بعد برهة: حسنًا، افعل به ما تشاء، لا يهمني أن تُحرقه أو تبقيه، لن أسألك عنه مجددًا، ولكن أريد أن أقدّم نُصحي لكَ. حتى لو كنت أخاك الأصغر.

---

* إشارة إلى مشهد من مسرحية (طرطوف) للكاتب الفرنسي (موليير). وهو المشهد الذي تم الإيقاع فيه بطرطوف. وهو المشهد الأشهر في المسرحية، وأورغون والسيدة ألمير من أبطالها.

تريث لبرهة ثم تابع وقد بان الانزعاج في نبرة صوته: اسمع؛ على الأقل عليكَ معرفة هويته ومن يكون؟ ومن أين جاء فربما يكون جاسوسًا؛ فأعداؤنا كُثر، ولا يخدعك مظهره البريء فحتى الشياطين يُمكنها أن تضع أقنعة الملائكة.

وهنا فقط نطق الأمير معلِّقًا: مثلك.

زمَّ دوريان شفتيه بغيظ وراح يُغالب نفسه ليبدو غير مبالٍ وهو يردُّ: نعم، أنتَ تعرفني جيدًا، إن ثقتك بالناس تثيرُ أعصابي حقًّا.

ابتسم الأمير ببرود وأجابه: هذا خياري وأنا حر به.

ثم تريَّث لحظة قبل أن يسأل: أهذا الذي جئت لتقوله لي؟!

كتم دوريان غيظه وهو ينطق اسمه بطريقة أقرب إلى التوبيخ: أريان!

ثم صرف وجهه ليهدأ قليلًا قبل أن يفصح عن سبب مجيئه الحقيقي: جئتُ لأحذرك من مقابلة سفير (أركاديا*) الذي سيصل قريبًا، عليكَ ألا تنسى أنكَ ولي للعهد، وأن تحفظ سياسة أبي، لا تَدَعْه يغضب عليك كالمرَّة السابقة. يجبُ أن تتخلى عن أفكارك التافهة بشأن السلام، إن سلامًا دائمًا مجرد خرافة. عليك أن تتخلى عنها وإلا فإنِّي..

لاحت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يتمُّ: لن أتوانى عن محاربتك وسرقة العرش منك.

تبسَّم الأمير بسخرية هو الآخر وقال: أنت لا تفعل شيئًا سوى الكلام.

شعر دوريان بالمهانة والغيظ، ولكنه تابع حديث الأمير الذي أردف: إنَّ هذا ما يجبُ أن تقوله لنفسك، أنت تفسد أيضًا كل ما يفعله أبي.

---

* أركاديا: أرض أسطورية تصور الحياة الرعوية، تقع في منطقة باليونان. كانت أركاديا بمثابة الفردوس المفقود أو اليوتوبيا التي طالما تحدّث عنها الشعراء والفلاسفة. وكان الوصول إليها أمرًا شديد الصعوبة: إذ كانت تحيطها الجبال الوعرة من مختلف الجهات. ولم تكن سكناها مقتصرة على البشر وحدهم، بل كان يعيش معهم مخلوقات أخرى مثل عرائس البحر وحوريات الغابات وملكات الليل والجياد المجنّحة، وفقًا للأسطورة. قام الرسام نيكولا بوسان برسم لوحة شديدة الجمال تعبر عنها بعنوان (رعاة أركاديا).

ثم رفع رأسه وثبت نظره ناحيته وهو يسأل: أتعرف في ماذا تكمن مأساة الشمس الحقيقية ؟

قطَّب دوريان حاجبيه، فما الذي أتى بذكر الشمس الآن؟! فتابع أريان موضِّحًا: لقد رفعت مكانتها عاليًا فوق الجميع، وسواء اختارت هي ذلك أم لا، وسواء كانت نيتها حسنة أم لا، ففي كل الأحوال عليها أن تُدرك يومًا أن الوحدة هي مصيرها الأبدي، وأن جمالها لم يحفظها من هذا المصير التعس.

علم أنَّه يشير إليه بحديثه، فزفر غيظه ونهض مغادرًا دون أن يُعقِّب بشيء وأغلق الباب خلفه، وهنا تنفست الكاتبة الصعداء، وهمَّت بالخروج من تحت المائدة ولكنَّ رأسها اصطدم بطرفها فأحدثت جلبة؛ دفعت الأمير لينهض فزعًا وصاح: من هناك؟!

اعتدلت وهي تمسح مكان الإصابة ولكن ما إن همَّت أن تجيبه حتى صاح الأمير مجددًا على الرغم من أنه ينظر ناحيتها: سألتُ من هناك؟!

وهنا أرتج عليها الأمر، وشعرت بأن كل شيء قد توقف حولها، وأنَّ سنديانًا قد وقع فوق رأسها فأصابها بالدوار فجأة، لقد كانت عينا الأمير تنظران إليها بضياع وذعر وخوف!

أدركت للتوفقط أن عينيها المبصرتين لم تكونا قادرتين على أن تلحظا أنَّ هذا الأمير الذي ساعدها وأنقذها لم يكن قادرًا على أن يبصرها في الحقيقة، وعلى الفور تذكَّرت سؤالها الأحمق له بعد الفطور، وتذكَّرت كلَّ تصرفاته التي ظنتها غريبة وعدم نظره إلى اللوحة وبقائه جالسًا في مكانه. وأصبحت كل ردود فعله الآن معقولة بل طبيعية!

كم من الأفعال نجزم بغرابتها فقط؛ لأننا لا نُدرك أسبابها، ولو كنَّا نُدرك أسبابها من البداية لعلمنا كم كانت طبيعية جدًّا.

لكن لم تكن قادرة على قبول حقيقة أنَّ العينين التي ظنتهما تشبهان عينيّ فولتير كانتا فارغتين من الضوء! وأنَّ حكمها على سخريتهما كان

ضربًا من الظلم ليس إلا، ففي الحقيقة لم تكن تنظر إلى شيء حتى تسخر منه.

التقط الكوب الذي أمامه بعد أن أوقعه بأصابعه ثم عاد ليسأل وعلامات الفزع ما زالت بادية عليه: أهناك أحد؟ دوريان، أما زلتَ هنا؟!

أرادت أن تجيبه لكنَّ صوتها كان يختنق قبل أن يخرج من شفتيها، رؤيتها لضعفه على هذا النحو الذي حرص على إخفائه عنها كانت قاسية عليها، فارتجفت شفتاها وشعرت برؤيتها تنعدم، فتراجعت إلى الوراء ثم أسرعت راكضة، وما إن فتحت الباب حتى اصطدمت بشاب كان على محياه الارتباك وهو يسألها: أنتَ بخير؟!

لكنَّها لم تُجبه وأسرعت راكضة بعمى أصاب عينيها مثل ساقيها اللتين كانتا تتعثران من حين لآخر قبل أن تصل إلى مرادها بسلام، وكان أول درس تعلمته هنا هو: لا الكتب ولا الأعين بإمكانها أن تبصر كل شيء.

الفصل الخامس

ما يلمسني في الروايات هو أن أصواتَ أولئك الناس-
والتي في حالة شكسبير تصلنا عبر القرون- لا تبدو مجهولة لنا،
إنَّها حية إلى درجة أن المرء يعرفها ويراها.

فان جوخ/ 1853-1890م

كان دوريان قد عاد إلى قصره، وكانت والدته الأميرة (هاري)* تجلسُ في الحديقة تشرب الشاي، وبجوارها جلس صديقه المقرب (إيجاو)**، لمحهما ولكنَّه تظاهر بعدم رؤيتهما فتجاوزهما دون أن يلقي عليهما التحية، لم تكن حالته النفسية تسمح بذلك، كانت كلمة شقيقه الأكبر تطنُّ في أذنيه بشكل مزعج، ما الميزة التي يملكها هو دونه وأقنعته بها هاري وإيجاو أنَّه بفضلها يستحق كل ما هو جيد وكل ما هو ممتع! ففي قاموسيهما لا وجود لخير ولا لشر، ولا فضيلة ولا رذيلة، ولكن يوجد ما هو رديء وما هو جيد وحسب، وعلى المرء أن يعيش طوال حياته وهو منكب على كل ما هو جيد!

---

* هاري: في الأصل هو بطل من أبطال رواية (صورة دوريان جراي) وكان شخصية عبثية غير متزنة، أهم ما يميزها هو إفساد غيرها.

** إيجاو: شخصية من شخصيات مسرحية (عطيل) لشكسبير، وهو شخصية شريرة آذت عطيل كثيرًا بحثًا عن السلطة والمكانة.

كان قــد وصل إلى غرفة الصالون، فرمى نفسه على الأريكة ورفع رأسه، كانت فوقه مباشرة صورته وهو طفل، وبجواره الأمير أريان.

راح ينظــر إليها من تلـك الزاوية الضيقــة، كان الأمير ممســكًا بكتفيه ينظر إلى الأمام. أما هو فقد رفع رقبته قليلًا ليشاهده، أصرَّ الرسامُ حينئذ علــى إبقاء تلك النظرة فــي عينيه؛ النظــرة المتطلعة إلــى شقيقه بشغف، والحقيقة أنَّه وبعد كل تلك السنوات وعلى الرغم من كل تلك العداوات التي نمت بينهما بسبب هاري وإيجاو، لم يكن ليرفع عينيه عنه، بينما كان الآخر قــادرًا علــى تجاوز كل شيء يصــدر منه! حتى كرهه لــه وعداوته كان قادرًا على تجاوزها...

- الأحمق!

خرجت من فيه تختصر غيظه.

أغمضــ عينيه وهو يتابع حديثه الصامت: وكم جعلني هذا أكرهه أكثر، إنَّ هذه القدرة التي يملكها على المغفرة هي أكثر ما يسيء إليّ.

أخــذ نفسًــا عميقًا ثم عاد يفتــح عينيه وحركهما هذه المــرة نحو الثريا وعادت تلك الكلمة لتطنَّ في أذنيه: "على الشمس أن تدرك يومًا أن الوحدة هي مصيرها الأبدي".

زمَّ شفتيــه بغيظ، ثم ارتجفتا كاشفة عمَّا في أعماقه المظلمة من شعور ملازم ومرهق بالوحدة.

أريان اللعين! إنني لا أحتاج إلى أن أدرك ذلك، إننـي أعيشها بالفعل.

فــي تلــك اللحظة كان قد حــرك عينيه إلــى الأمام فوقعت علــى والدته وإيجــاو اللذين كانا مقبلين نحــوه وهما يبتسمان، شعــر بالكره الشديد في أعماقه يتصاعد ويتجمع في عينيه على هيئة كرة نار مشتعلة، هُيئَ له لبرهة أنَّــه يــرى ثعبانيْن لا بَشَريْن، فــزوى عينيه عنهما، ثم عــدل ساقه التي كان يضعها فوق الأخرى.

لاحظت والدته تلك النظرات التي رمقهما بها، ومع ذلك دنت منه وجلست على إحدى الأرائك، وجلس إيجاو بجوارها، فعلّقت قائلة: ما الذي كنت تفعله عند الأمير؟

رمقها دون أن يجيب بشيء، استفزّها ذلك إلى أبعد حد، فأردفت: أنت تفسد كل ما نفعله يا دوريان بطيشك، ما الذي تفعله معه؟ ما الذي تنتظره؟ أتنتظر أن يعتلي العرش ويسلبك كل شيء؟! هل ستكون سعيدًا إن تم نفيك في النهاية لتصبح موضوعًا جميلًا وفنيًّا لأحد الفنانين يُصوِّر به نهايتك الشاعرية؟! أهذا ما تسعى إليه بالتقرب منه في الآونة الأخيرة؟! أتعتقد أنني لم أكن أعرف بشأن زياراتك الأخيرة له؟!

كان تبرُّمه واضحًا تمامًا، لوى شفتيه وهو يشيح عينيه عنها، ومع ذلك همَّت أن تتابع توبيخها لولا أن إيجاو أمسك ذراعها وأشار إليها بالصمت ففعلت، وهنا وقف دوريان وعبر من جوارهما دون أن ينطق بشيء، وعندما ابتعد قال إيجاو: لا تقلقي يا جميلتي، إنَّها فترة يمرُّ بها كل الشبان، طيش وتهور فقط، هو حالم الآن فدعيه يستلذ ببعض أوهامه وينشد منها الراحة، هو يعتقد أن بإمكانه أن يحصل على ما يريد دون تضحيات، وهذا شيء مستحيل، كل شيء في هذه الحياة له ثمن، لا شيء يأتي من فراغ، لقد كُتب على كل المخلوقات أن تضحي بغيرها لتبقى، وهو سيدرك هذه الحقيقة في النهاية.

راحت تنظر إلى الاتجاه الذي ذهب إليه وهي تعلّق: ولكن تقرُّبه من الأمير هذه الأيام لا يروقني!

- إنَّ ذاك الأمير الغرّ لا يدري ما حدود إمكانياته، إنَّه مغتر بمن حوله فقط، لو أنَّه وجد نفسه وحيدًا فسيدرك مدى عجزه وضعفه.

- أظنُّك لا تعرفه جيدًا، إنَّه في الواقع لا يعتمد على أحد على الرغم من كثرة المخلصين له!

لمعـت في عينيه ثقة مفرطة وهو يُردف: حسنًـا، أتودين رؤية ذلك؟ إن سمحت لي يا عزيزتي؟!

ابتسمت بدلال وهي تعلّق: طبعًا أثق بك، وأتطلّع لرؤية ذلك.

أمـا دوريـان فكان قد صعـد إلى غرفته ووقـف أمام المـرآة وحدَّق إلى وجهـه، ولوهلـة شعر بأنَّه لم يكـره شيئًا في حياته بقدر مـا كره هذا الوجه الجميل الذي أمامه!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أمـا هـي فقد كانت تسيـر بعمى تام وفـؤاد حائر، قادتها ساقاهـا إلى ممرٍّ أرضيته من خشب، وكان أمامها نصف باب مفتوح ويظهر من داخل الغرفة نموذج عملاق للكرة الأرضية كتلك النماذج العملاقة التي لا نراها سوى في المتاحف!

أثـار ذلك فضولها فتقدمت ودفعت الباب، كانت الغرفة كبيرة جدًّا وبها نمـاذج لأدوات واختراعـات قديمة وأشيـاء كثيرة، إضافة إلـى عدة تماثيل يونانيـة وفرعونية! راحت تتأملها بفضول تام ونسيـت السبب الذي أوصلها إلـى هنا، وبينما هي مشدوهة لمحت خيال شخص عبر من أمامها فالتفتت بفزع، كان رجلًا طويل الوجه والأنف يقف خلف نموذج الكرة الأرضية، لكن يبـدو أنَّه لم يهتم لوجودها، أو لعلَّ وجـود أناس هنا ليس مستغربًا، لذا كان كل مـا فعله أنـه ألقى عليها التحيـة بإيماءة من عينيـه الواسعتين ثم اتجه بخط مستقيـم، وزاد استغرابها عندما شاهدته يصعد سلمًا لم تنتبه له إلا للتو، وقفت فـي منتصف الغرفة ونظرت إلى الباب الذي دخلت منه وفكَّرت فـي أنه لا بد من وجود باب آخر دخل منه هذا الرجل قبل قليل، ولم تستطع

كَبح فضولها أكثر فصعدت درجات السلم، وبينما هي كذلك سمعت هذا الحوار:

هل عندكَ كتب أخرى تتحدثُ عن نابليون؟!

نابليون مرة أخرى؟! أتعجَّب من اهتمامك به!

وما الخطأ في ذلك، إنَّني أبحثُ في مسألة ما، كيف للجريمة أن تختلف حينما تأخذ شكلًا جماعيًّا فتوسم بالبطولة، وكيف توسم بالظلم حينما تتخذ شكلًا فرديًّا؟! كيف يجعلُ الناس من هؤلاء القتلة رموزًا للبطولة بينما تلحق المقصلة رقاب الفقراء لجريمة السرقة؟!

ولماذا يقلُّ تعاطفنا عندما تتخذ الجريمة شكلًا جماعيًّا، وتعظم عندما تأخذ شكلًا فرديًّا؟!

ألا تعتقد أنَّ أكثر ما يتقنه البشر هو تسمية الأشياء وفق مصالحهم وحسب؟! أتساءل إن كانت هنالك عدالة حقًّا، وإن كانت العدالة التي تتبع القانون، اليوم، هي عدالة قانونية بحق.

أنتَ تبالغُ يا صاحبي، صدقني: "إن كل شيء هو أحسنُ ما يكون في أحسنِ ما يمكن من ... ".

أمسكَ عن الكلام؛ لقد شعر بوجود شخص يراقبهما. فالتفتا في وقت واحد ليجداها وقد علاها الارتباك، فعادت خطوة إلى الوراء وهي تعتذر بقولها: عذرًا، لم أكن أنوي التنصت لحديثكما ولكن أعتقد أنني أعرفك جيدًا.

قالت الكلمة الأخيرة وهي تنظر إلى الرجل الذي سبقها إلى هنا والذي كان يبحث عن كتب نابليون ثم سألت: ألستَ راسكولينكوف*؟!

رمقها بريبة، فتقدمت وعرَّفت نفسها قائلة: آسف، كانت وقاحة مني ألا أعرّفكما بنفسي، اسمي السيد هاملت وأنا في ضيافة الأمير...

---

* راسكولينكوف: هو بطل رواية (الجريمة والعقاب) للأديب الروسي دوستويفسكي.

صمتت لحظة ونطقت في أعماقها اسمه الذي عرفته قبل قليل فقط.

أومأ راسكولينكوف برأسه فقط، ولم يظهر عليه الاهتمام بها، وسرعان ما نظر إلى أمين المكتبة وتابع: أحقًّا ما زلت تؤمن بذلك؟

لم يجبه أمين المكتبة، فقد قاطعتهما الكاتبة قائلة: أنا أيضًا مثلك يا سيد راسكولينكوف، أعتقد أنه لا وجود للعدالة البشرية، وأعتقد أن مرد ذلك إلى كون كل ما يقع في عالم الإنسان يشوبه النقص.

اعترض أمين المكتبة بقوله: توقفا، أنتما مخطئان، لقد قلتُ سابقًا: "إن كل شيء هو أحسنُ ما يكون في أحسنِ ما يمكن من العوالم"*

سألته مستنكرة: أتعني أن عالمنا الكئيب هذا هو أفضل العوالم الممكنة!

ثم تابعت بلهجة ساخرة: إنكَ مخطئ، لقد شاهدت مجازر تقشعر لها الأبدان، ففي عالمي يُمكنك أن ترى كل ما يحدث في هذه العوالم بالساعة والدقيقة! وهذي ضريبة الحضارة؛ لقد أفقدتنا دون أن نُدرك إحساسنا بالألم، لقد اعتدناه إلى درجة يمكنني أن أتراجع فيها الآن وأوافقك على أن عالمنا قد أصبح أفضل العوالم الممكنة! هذا لأننا لم نعد نشعر بشيء قط.

إنَّ أكثر ما يسوء في هذا العالم ليس وجود الشر بل اعتياده، وإنكار وجوده لا يعني شيئًا.

لاحظت اهتمام راسكولينكوف الذي دنا منها وقال: أنتَ محق، إنني أوافقك على ذلك.

أما أمين المكتبة فقد أدار لهما ظهره وهو يعلّق: أنتما في الحقيقة غارقان في اليأس، وأخشى إن تابعت حواري معكما أن أفقد إيماني حتمًا.

---

* العبارة هي للفيلسوف الألماني ليبنتز.

ثم أشار إلى أحد الرفوف ووجَّه حديثه إلى راسكولينكوف: هناك ستجد طلبك.

ثـم رمقهما باستخفاف وقـال: وأنت أيها السيد الباكـي، بدل أن تضيع وقتك في الحديث عن الشر يُمكنك أن "تزرع حديقتك"*

لقد استوعبت للتو أنَّه كان ذلك الشاب الذي اصطدم بها عند باب غرفة المائـدة، وشعرت بأنَّ الجملة، وهذا الأسلوب في الحوار، وملامحه الهادئة والبريئة ليست جديدة عليها، فكَّرت: إنَّ كل شيء هو أحسن ما يكون! وأزرع حديقتي!

ثم صاحت مرة أخرى بحماسة أرخميدسية وقالت: أنتَ كنديد**؟!

نظـر إليها باندهاش سرعان ما تبـدَّد حينما علَّق: اسمي السيد كنديد، أيها المحترم.

ثـم أدار ظهـره واتجـه إلى أحـد الرفوف، وجـدت نفسهـا فارغة وهي تنظر إليهمـا وهما يتصفحان الكتب، فتحرَّكت ساقاها وقادتها لتقف خلف راسكولينكوف الـذي توقف لحظة عن قلب الصفحة؛ إذ أدرك وجودها، ثم تابع قراءته، ولكن لم تمض دقيقة حتى كشف لها عمَّا يفكر فيه قائلًا: كيف للإنســان أن يُـدرك ما هو صواب وما هــو خطأ في هذا العالـم الذي يبدِّل مبادئـه ويتنكَّـر لها وفق مصالحه؟! هذا العالم الـذي ما زال يجهل مصدر الأخـلاق ويساوم عليها؛ فتارة ينسبها إلى المجتمع، وتارة إلى العِرق، وتارة إلى الدين؟!

سألته باهتمام: وأنت ما الذي تعتقده؟ ما مصدرها؟

---

* ازرع حديقتك" هـي النتيجـة التـي توصـل لها (كنديد) بطـل روايـة (فولتير) بعـد أن أدرك أن التفاؤل المطلق والتشاؤم المطلق لا يصنعان شيئًا وأن العمل هو ما ينبغي أن يقوم به المرء.

** (كنديـد) هـو بطل رواية (كنديـد). أو المعروفة باسـم (التفاؤل) وهي روايـة كتبها الفيلسوف (فولتير) ليرد على فلسفة (ليبنتز) في التفاؤل المطلق.

أجاب دون تردد: الله طبعًا، لا بد أن يكون مصدر الأخلاق متجاوزًا عنَّا، وحتى لو لم يكن مصدرها إلهيًّا فيجبُ علينا أن نسعى لإبقاء مصدرها إلهيًّا إن أردنا لهذه الإنسانية البائسة أن تبقى حية بأقل قدر من الخسائر.

صدقني، إنَّنا نُخطئ ونرتكب الأخطاء الفظيعة بل ربما الجرائم الشنيعة ونبررها حينما نعتقد أننا قادرون على التشريع والحكم، حينما نُخضع الأخلاق لسلطان مصالحنا فإننا سنكونُ قادرين على إسكات ضميرنا بل جعله يتماشى معنا، أعطني إنسانًا أصم وأبكم وأعمى ودَعْه تحت سياط جلاد، سيصرخُ جميع الناس: إنَّ هذا فعل لا يجوز، وسيتفق الجميع أنَّ ما يحدثُ هو ظلم فظيع بحق هذا المسكين، ولكن ضع شخصًا آخر مكانه، شخصًا يعرف الناس آراءه في حدث ما أو قضية ما، ثم ليبدأ الجلاد جلده، أول ما تلاحظه هو اختلافهم عليه، ستجد من يُنكر ومن يُشجع ويرى أنَّ ما يقع عليه هو العدالة.

هل أدركتَ حجم الضبابية التي نقع فيها عندما نجعل أنفسنا معيارًا للأخلاق والمبادئ! الأمرُ نفسه لو جعلنا معيار الأخلاق هو المجتمع أو الدولة أو القانون، ستجدُ أننا نقيِّم الناس وفق مبادئهم وحسب، ولا نضع أي اعتبار لإنسانيتهم، وبذلك سيسهل علينا ارتكاب أية جريمة أو تبريرها، وستجد من يتعلل بقوله: إنَّه بقتله لهذا الإنسان أو ذاك كان قد قتل مبدأ أو دافع عن بشر.

لكن الله وحده من يعامل الإنسان كإنسان، لذا على الأخلاق أن تبقى ذات مصدر إلهي دائمًا وأبدًا.

كلماته الأخيرة استدعت من ذاكرتها ما قرأته في الرواية، لقد قال لنفسه ليبرر جريمته: "أنا لم أقتل إنسانًا؛ أنا قتلت مبدأ"، فأظلم وجهها وغمرها اليأس بطوفانه فتريثت قبل أن تعلِّق: يبدو أنَّه لا العلم ولا المعرفة ولا الأخلاق قادرة على منع الإنسان وتهذيبه، يُخيل إلي أنَّ ما كتب لهذا الإنسان هو أن يُخطئ ليشقى.

هنـا سمعت صوتًـا يعلّق من ورائها: ومـا الخطأ في أن يُجـرِّب الإنسان ويكرر التجربـة ليُخطئ أو يصيب؟! لماذا أصلًا تعتقد أنَّه من الواجب على الإنسان أن يكون دومًا على صواب؟! أنت تفكر بطريقة لا معقولة.

التفتـت إليـه، كان المتحدث كنديـد، فأوضحت: لم أعْـنِ ذلك، فلا بد للإنسـان أن يجرب ويُخطـئ ويصيب ليتعلم، ولكن فكِّـر معي قليلًا، هناك أفعال لا تحتمل الخطأ، وأخطاء نتائجها كارثية! فما العمل؟!

ظهرت على شفتيه بسمة واثقة وهو يجيبها: لقد أخبرتك سابقًا بالفعل: في كل الأحوال علينا "أن نزرع حديقتنا"، علينا أن نعمل وألا نتوقف، إنَّ هذا ما يعنيه أن نكون على قيد الحياة.

ثم وجَّـه أنظاره إلـى راسكولينكوف الذي كان في تلـك اللحظة قد رفع كتابًا وأشار إليه وهو يقول: أريد أن أستعير هذا، من فضلك.

أومأ موافقًا وهو يقول: لنذهب إلى المكتب إذن.

فسبقـه ثم تبعه راسكولينكوف، لكنَّـه توقف عندما عَبَر من جوارها؛ إذ قالـت: أريد أن أخبرك أنني معجب بك. أخفـت في أعماقها: "على الرغم من كل شيء فنحن بشر بائسون"، ثم تابعت: ولكم يسرني لو ألتقي بكَ مرة أخرى.

ربَّـت علـى كتفهـا بلطف وهو يتابـع تقدمه ويقـول: يسرني ذلـك، سيد هاملت، ستجدني هنا كثيرًا.

ثـم لحق كنديد، وظلَّت تراقبهما من بعيد قبل أن تقرر مطالعة العناوين علـى الرفوف، فكَّرت باسـم الأمير (أريان)، أين سمعت هـذا الاسم؟ أهو بطل رواية إنجليزيـة؟ ربما يكون من أبطال (تشارلز ديكينز)، أو ربما من أبطال (بلزاك)!

فـي أثنـاء انشغالها بذلك سمعت صوت ركض علـى السلم، وسرعان ما ظهر رجل بدا على محياه الاستعجال ونطق: سيد كنديد، أنقذني، أرجوك.

وعلى الرغم من قوله الذي يُشعر الناظر إليه بأنّه يواجه خطرًا حقيقيًا، فـإن كنديـدَ بدا غير مكترث بـه، ومع ذلك أصرَّ الرجـل الواقف على قوله: أنقذني يا سيّد كنديد، لا تتجاهل طلبي. روايات؛ أريد روايات عن الفرسان.

تنهَّـد كنديد وهو يشيـر له ناحية أحد الرفوف ويقـول: انظر، ستجد ما تطلبه هناك، وحاول أن تكون أكثر هدوءًا، من فضلك.

تابعتـه بعينيها وهو يتجـه إلى حيث أشـار عليه، وثـار فضولها وخمَّنت أنَّهـا تعرف من يكون هذا المتعجـل الباحث عن روايات الفرسان، فتحرَّكت ساقاهـا ولم تتوقفـا إلا حينما أصبحت خلفه مباشـرة ونطقت بتردد: سيد دون؟!

فالتفـت إليها وعلـى محياه الفزع، دققـت في ملامحه، إنهـا تُشبه إلى حد مـا تمثاله، فهو يملـك حاجبين عريضين ولحية كلحيـة الجدي، كتمت ضحكتها وهي تعلّق: إنكَ حقًا هو.

رمقها بازدراء وهو يردُّ: اسمي دون كيخوته دي لا مانتشا* يا سيد.

تبسَّمت ببهجة وزاد شغفها وهي تكرر: إنكَ حقًا هو.

أبعدهـا مـن طريقه وهـو يقول: أنـتَ تقف فـي طريقـي وتؤخرني، من فضلك.

لكنَّهـا أوقفته عـن التقدم وهي تقول: مهـلًا يا سيـد دون كيخوته، يُهيأ لـي من مظهرك أنـكَ شخص نبيل وتملك حسًّـا راقيًـا، وأودُّ سؤالك، أيها المحترم.

بدا على محياه الاهتمام والرضا ولمحة خفيفة من الاعتزاز بالنفس وهو يُجيبها: إنَّه لمن دواعي سروري أن أخدمك يا سيد...

هاملت، هاملت.

---

* دون كيخوتـه: هـو بطل رواية (دون كيخوته) للأديب الإسبانـي ميغيل دي ثير بانتس، وهي مشهورة أيضًـا باسم (دون كيشوت) وهـي شخصية كانت مغرمة بقراءة روايات الفرسان بكثرة حتى أصابت عقلـه لوثة. وقد اشتهـر دون كيخوته بحربه للطواحين. وراحت مضـرب مثل لكل حرب وهمية أو بلا هدف، ويعدُّ بعض النقاد هذه الرواية أم الروايات.

دنــت منــه وهي تشير إلى نفسها ثم أتبعــت: أراك تحمل رواية في يدك! أتساءل لماذا تحب الروايات إلى هذا الحد؟!

ولماذا لا أحبها؟! هل رأيت معبد آرتميس؟! أو حصان طروادة من قبل؟! ولكنــكَ قرأت عنهما فــي الإلياذة ويُمكنك تخيلهما، كيــف أمكننا ذلك لولا الفنون وأدب الحكايات؟! إنَّ الرواية فن، وأمة بلا فنون هي أمة مشرفة على المــوت، وأخشى ألا يبقى لهــا أثر. إنَّ للفنون عمرًا أطول من حضارتها ومن مبدعيها.

شــرع ذراعيه وكان واضحًــا أنَّ الحماسة قد بلغت منــه مبلغًا إلى درجة بدا فيها مظهره مثل أستاذ جامعي يُلقي محاضرة على طلابه، وتابع يقول:

والأدب خاصــة، نعــم، الأدب، إننــي أعدّه لغة عالمية واحــدة، ولا ينبغي حصــره في نطــاق الأقطــار ولا الأزمان، ومــن يفعل ذلك ويصــر عليه فهو مخطــئ، بل خائن لرسالــة الأدب، على الأديب أن يَخرج من كهوف الأعراق والأقطــار والأزمــان، وأن يُحلــق بجناحيه نحــو السماء، عليــه أن ينظر إلى البشريــة جمعــاء وهو يكتب؛ لأن الأدب الخالد ينبغــي ألا يكون إلا متجاوزًا، وانظر لأجود ما أُنتج من الأدب حتى تُدرك أنَّه أُنتج في تلك العصور التي لم يكن فيها الأدب إلا وجهًا من وجوه الأخلاق السامية.

لكــنَّ البعض ما زال يعتقــد أنَّ الرواية هي مجرد حكاية لإضاعة الوقت، وبعضهم ما زال يسأل: أيجبُ أن نقرأها أم لا؟!

دَعْك من هؤلاء، سيعلمون ذات يوم أنَّ الرواية سَتُبقي الاحتجاج الإنساني حيًّا في وقت لن يبقى فيه من الإنسانية إلا اسمها.

سمعــا صوت نقر خشب على الأرض يتبعــه صوت رجل يقول: الحياة تلد الموت أم الموت يلد الحياة؟!

انصرفــا نحوه على الفور، كان رجــلًا ذا مظهر غريب كأنَّه قد خرج من أحــد كهوف القصصــ الأسطورية! كان شعره طويــلًا وأبيض، وكذا لحيته! وكان يمشي متكئًا على عصا على الرغم من استقامة ظهره وسلامة قوامه!

عينـاه كانتا تفيضان حكمة وبهما رقة تُشير إلى قلب رقيق خلفهما، عَبَر من جوارهما وراح يُكرر السؤال: الموت يلد الحياة أم الحياة تلد الموت؟!

ويبـدو أنَّه لـم يكن يبحثُ عـن الجواب، فقـد تابع طريقـه وراح يُطالع الرفـوف بحثًـا عن كتاب، كانت تراقبه لبرهة ومـا إن أدارت رأسها لتُحدِّث دون كيخوته حتى وجدته قد غادر دون أن يقول لها كلمة!

فعـادت لتراقب هذا الرجل الغريب الذي أثار دهشتها. ثم اقتربت منه، وسمعته يقول وهـو يلتقط كتابًا: "عمَّ خراب متواصل كل شيء على الأرض! وانتشـرت الحروب بينهم كما تنتشر الأوبئة، ومن رحم الموتى عاش أطفال فـي مأساة، ومن رحمهم عاش آخرون في هناء، ودارت الأرض دورتها، فلم يعد أحد يعرف من يلد الآخر: الحياة تلد الموت أم الموت يلد الحياة؟!"*

حركت كلماتـه مشاعرها، لقد هزَّت أعمق أعمـاق يأسها، وعلى الرغم مـن أنَّها لم تعرف من يكون هـذا الرجل لكنَّها أدركت أنَّها تقف أمام حكيم خضرمتـه السنون والكتب، فاقتربت منـه أكثر وقالت: إذن، على الأرض أن تتوقف عن دورتها وتُنهي كل هذه المآسي.

الإيمـاءات الذاهلـة التـي ظهـرت على وجهـه أكدت لهـا أنَّه لـم ينتبه لوجودهـا قبـل هذه اللحظـة، ومع ذلك لـم يجبها بشيء، وعـاد لينظر إلى الرفـوف، فـأرادت أن تعرفه أكثر وأن تنهل من حكمتـه وخبرته، علَّه يحمل شيئًـا قادرًا علـى قتل بؤسها، فاقتربـت منه وكررت: أليسَ علـى الأرض أن تُوقف دورانها وتكفينا هذا الهم؟!

رمقها لحظة ثـم فتح الكتاب الذي بين يديه وعلَّق بسخرية لاذعة: كمن يتأخر عن العمل ويطلبُ من الساعة أن تتوقف!

عبسـت وهـي تردُّ: تسخـر؟! إننـي لا أعني أنَّـه ينبغي علينـا أن نتوقف ونترقب المعجـزات، ولكن ما جدوى المحاولات إن كانت جميعها خاسرة؟! ألا يبدو هذا عبثًا؟!

---

* من رواية (تسعة عشر) للروائي الأردني أيمن العتوم.

ظلَّ يُطالع الصفحة حتى خشيت من أنَّه لن يُجيبها بشيء، فهمَّتْ بالتحدث لكنَّه أوقفها بقوله: هذا هو الإنسان، داؤه في استعجال الثمر!

حدَّق إليها بإمعان قبل أن يوضِّح: بل العبث أن يظلَّ واقفًا في مكانه، على الإنسان أن يتبع الكون في حركته الدائمة ولا يتوقف.

وما الطريق؟ ما البوصلة؟!

أغلق الكتاب، وأشار إليه وقال: الزم الموتى.

قرأت على غلافه اسم الفيلسوف الرواقي (زينون)، ففهمت أنَّه يشير إلى الجواب الذي توصَّل زينون إليه، عندما سَأل عمَّا ينبغي عليه فعله ليعيش حياة أفضل؟ فسمع هاتفًا يقول له: الزم الموتى: فانكبَّ بعدها على مطالعة الكتب والتأمل.

عبر من جوارها وأردف: وأيضًا "تأمل ترَ: فالنظر وحده ليس كافيًا"*.

ثم تابع طريقه حتى توقف عند مكتب كنديد، أما هي فقد ظلَّت مكانها ذاهلة، فقد عرفت للتو من يكون، إنَّه بطل (تسعة عشر) الذي أبقاه مؤلفه دون اسم، لكنَّها منذ هذه اللحظة سمَّته أيمن أو الشيخ أيمن. فطالما كانت تعتقد أنَّ أبطال الروايات ما هم إلا جزء من أرواح مؤلفيها.

كررت ما قاله بذهول وإعجاب: تأمل ترَ؛ فالنظر وحده ليس كافيًا!

في تلك اللحظة كانت بياتريتشا قد دخلت المكتبة وألقت التحية على كنديد، وقبل أن تهمَّ بسؤاله عن هاملت، أبصرته واقفًا أمامها فصاحت: أنتَ هنا؟ ما الذي تفعله ؟! إنني أبحث عنك منذ مدة! إنَّ سيدي أيضًا قلق عليك.

أظلم وجهها؛ لقد تذكرت صدمتها الآن وما دفعها للوصول إلى هنا، أشاحت وجهها معتذرة: آسف يا عزيزتي، ما كان علي أن أغادر دون إخبارك بالأمر.

عبست وهي تدير ظهرها، وتمتمت بصوت منخفض خشية أن يسمعها كنديد: ولا حتى إن أخبرتني.

---

* من رواية (نفر من الجن) للروائي نفسه.

تبعتهـا بصمـت، وعندما نزلت مـن السلم، واقتربت مـن نموذج الكرة الأرضيـة، وبّختهـا بياتريتشـا: لمـاذا أتيت إلى هنـا؟! ألم أطلـب منك ألا تتحرك أو تخرج من غرفتك؟!

خففـت من حدة صوتهـا عندما لاحظت نظراتهـا المنكسرة، ومع ذلك تابعـت: كيف لـكَ أن تكون مهملًا إلى هذا الحد؟! يجبُ أن تفهم، يا سيدي، أن هذا في صالحك.

أومـأت موافِقة ثم اتجهت صوب الباب الذي دخلت منه، لكنَّ بياتريتشا أوقفتها متسائلة: إلى أين؟ إنَّ سيدي يطلبك، تعال معي.

تبعتهـا وأدركـت أن الباب الآخر الـذي اتجهت إليـه بياتريتشا الآن هو البـاب الذي دخل منه راسكولينكوف ولـم تشاهده هي؛ لأنه كان داخل ممر صغير وضيق، عَبَرته وخرجت لتجد أمامها حديقة جميلة، وعلى الرغم من جمالهـا لم تكن تنظر إلى شيء، كانت سارحـة وعيناها عالقتان في إحدى الذكريـات، كانـت تسترجع كل مـا حدث لها مـذ جاءت، ولقاءهـا بالأمير ومواقفه معها، والكلمات التي سمعتها في المكتبة، كانت بعض العبارات تلحُّ فـي عقلها وتكررها دون استيعاب، وثمة سؤال يفرضُ حضوره: كيف بدأ كل هذا؟! ولماذا؟!

استنكـرت بياتريتشا صمتها فسألت: هل حدث معكَ شيء؟ أنتَ لا تبدو على طبيعتك!

أدركـت أنَّهـا كانت سارحة، فهـزَّت رأسها نافية وهي تـردُّ: لا شيء، لم يحدث شيء.

فتابعت بياتريتشا سيرها وهي تسأل: هل أقلقكَ كلام الأمير دوريان؟!

توقفت وأبدت تعجبًا وهي تجيب: في الواقع لا أذكر ما قاله ولم أفهمه.

أومـأت بياتريتشـا دون أن تعقّب، وتابعت سيرهـا. فلحقتها، وما هي إلا بضـع خطوات حتـى وصلهما صوت ضحـك شخصين، ثـم أبصرت الأمير وأمامـه وقف رجل يبدو على محيـاه أنَّه في الأربعين من عمره، أخرج سيفه

مــن غِمــده والابتسامة على شفتيــه، فانقبض قلبها وخشيــت أن يكون ذلك الرجل ينوي إيذاء الأمير، فهمَّت أن تُسرع راكضة لنجدته، لكن يد بياتريتشا كانت قد أوقفتها. أمسكتها متسائلة: ما الذي تحاول فعله؟!

صاحت بانفعال: انظري...

لكنَّها صمتت فجأة؛ كان الأمير هو الآخر قد أخرج سيفه متأهبًا!

أزاحت بياتريتشا يدها وهي تقول: هوِّن عليك. إنَّها مبارزة ودية، كما أنَّ السيد (كينت) هو مدرِّب سيدي.

اعتدلت وهي تراقب حركاتهما وإيماءات وجهيهما وقد غابت بشاشتهما وحلَّت محلهما معالم الجدية والترقب!

ثــم اندفعا يتبــارزان، فانكمش وجههــا واعتلاها الذعــر وانتابها شعور يُشبــه الواقــف على حبل بين جبلين؛ كان قلبهــا ينتفض مع كل ضربة سيف تقتــرب من الأمير، لكن بعد مُضي لحظات تبدد هذا الشعور بعدما لاحظت سرعــة تحركــه، وقدرتــه البارعة على تحديد مــكان خصمه اعتمــادًا على حاسة سمعه فقط!

ولــم تكن تُــدرك أن بياتريتشا كانت تراقب إيماءاتهــا إلا حينما اقتربت منها وعلَّقت: هل خفت على الأمير؟!

رمقتهــا لحظة ثــم عادت تتابــع النــزال دون أن تجيــب، أشــارت إليها بياتريتشا نحو الطاولــة الدائرية التي كانت قريبة منهما وقالت: يُمكنك أن تجلس هناك وتتابع النزال.

تحركت نحو الطاولة دون أن تصرف نظرها عنهما، جلست وسألت: هل سيطول أمر هذا النزال؟

أجابتهــا وهي تجلس إلى جوارها: لا تقلق، انظر إليهما، إنهما يضحكان الآن.

عــادت لتنظــر إليهما؛ كانــا يضحكان ويتحدثــان ويتبــارزان في الوقت نفسه.

شرعت بياتريتشا في صبِّ الشاي، وما إن قرَّبته منها حتى قالت الكاتبة وهــي خافضة طرفها: لم أكن أعرف أنَّ الأميــر فاقد بصره حينما تحدثت في غرفة المائدة، صدقيني لم أكن أقصد الإساءة، أنا آسف.

علــى الرغم من إحساسها بحجــم الحرج في صوتها فإنهــا ردَّت عليها بصرامة: عليكَ أن تعتذر له إذن.

رمقتها عابسة ثم قالت: أُفضل إبقاء الأمر على ما هو عليه.

ثم صرفت وجهها وهي تسألها: كيف فقدَ بصره؟

بتبرُّم أجابتها: فجأة.

أوجعهــا ذلك بشــدة ولاح على وجههــا طيف حزن وشفقــة؛ وعلَّقت بعد لحظات: لا شك أن ذلك قد آذاه بشدة.

رفعت بياتريتشا الكأس وقربته من شفتيها، وكان واضحًا أنَّها لا تريد أن تسترســل في هذا الموضوع أكثر، ومع ذلك أجابتها: بالعكس، لقد كان قويًّا ولم يجزع، نحن مَن جزعنا وتألمنا.

ثــم سرحت عيناها غارقة في ذكرى ذلــك اليوم المؤلمة قبل أن تُردف: لقد كان كل ما قاله لحظتها: لم أعد أرى شيئًا، لقد أظلمتْ نفسي.

استقــرَّ العبوس على شفتي الكاتبة وصرفت نظرها تتابع المبارزة، وبعد صمت دام لحظــات، أجبرتها بياتريتشا لتلتفت نحوها بعد أن تحدثت: تلك النظــرات التي أبديتها قبل قليــل، أرجو ألا تُظهرها مرة أخرى أمام الأمير، لا تعتقد أنَّه لا يرى، بإمكانه أن يشعر بذلك، وليس هناك من نظرات شفقة على روح سامية!

ثــم ثبتت نظرها نحوها وتابعت دون أي اكتراث لها: في الحقيقة إنّ من يستحق الشفقة هو أنتَ لا هو.

ظلَّــت تنظر إليها بوجه خالٍ من أي تعبير لبرهة ثم حركت فمها بحركة تنمُّ عن الفهم والموافقة وعلَّقت: أعتقد أنكِ محقة بالفعل.

ثم شربت ما تبقَّى من كأسها، وعندما فرغت علَّقت وهي تنظر إلى بقية الشاي في أسفل الكوب: وحدي هنا من يستحق الشفقة. أنتِ محقة.

ثم نظرت إليها وهي تُجاهد نفسها لإظهار إيماءات مبتهجة وهي تسأل: ولكن أخبريني: هل أنتِ تحبين الأمير إلى هذا الحد؟

وجم وجهها لحظة؛ فهي لم تتوقع سؤالًا كهذا الآن، فاحمرَّ وجهها سريعًا وغضَّت طرفها وتظاهرت بشرب الشاي وهي تُجيب: ولِم لا؟! لقد ساعدني وأنقذني.

أخرجت صوتًا ينمُّ عن الإعجاب وقالت: لقد بدأتُ أحب هذا المكان الذي يُمكننا فيه تغيير النهايات كما نشاء، ونكتب فيه نهايات سعيدة، تُرى لماذا الحياة في عالمي لا تبدو بهذه السهولة ولا يمكننا توقع حتى نهاياتها؟! إنني أريد أن أبقى هنا إلى الأبد.

ابتسمت بياتريتشا وهي تقول: النهاياتُ هي أكذبُ كلمة على الإطلاق؛ في الواقع لا شيء ينتهي؛ فكل نهاية تكتب بداية جديدة لشيء ما، ليس بالضرورة أن نحيط بها علمًا.

وجمت كأنَّها تدرك هذا الأمر لأول مرة! لاحظت ذلك بياتريتشا وهي تصبُّ لها الشاي فسألت: ما بك؟!

حركت رأسها نافية، وفي تلك اللحظة كان (كينت) والأمير يقتربان، وما إن وصلا حتى قالت بياتريتشا: سيدي، لقد حضر السيد هاملت، كما طلبته.

أومأ موافقًا ثم جلس على الكرسي الذي بجواره وهو يقول: كينت العزيز، هذا صديقي هاملت، وهو من النوع الذي يروقكَ الحديث معه، يسعدني أن أعرِّفك به.

مدَّ يده ليُصافحها، فنهضت ومدَّت يدها بارتباك وهي تقول: اسمي هاملت وقد سررت بكَ يا سيد..

وضع كفه الأخرى على صدره وقال متباهيًا: اسمي (كينت)، "أحب الصادقين من البشر وأتحدثُ إلى الحكماء منهم ولا أفرط في الحديث، إنني أخشى الله وأقاتل إذا توجَّبَ عليَّ ذلك، سررتُ بمعرفتك"*.

رفع كفه، وهمَّ أن يجلس إلا أنه توقف بسبب نظراتها الغريبة؛ كانت تنظر إليه بدهشة وعلَّقت: "ولا تأكلُ السمك وتروي قصة جيدة بأسلوب سيئ"!

ثم ضحكت دون تصديق وأتبعت: أنتَ كينت شكسبير إذن؟!

وجَّه أنظاره إلى الأمير وسأل: هل قلتُ ذلك من قبل؟! مهلًا.. هل أفعل ذلك؟!

ضحك الأمير وهو يُجيبه: ربما، يبدو أن لدى هاملت نظرة خاصة نحو الأشخاص.

أكَّد كينت: إنني لا أحب السمك حقًّا، ولكن...

هنا تدخلت بياتريتشا لتؤكد كلام هاملت بقولها: إنَّك حقًّا تجعلُ من كل شيء جيد سيئًا، هذه أول مرة أتفق فيها مع السيد هاملت.

قالت الجملة الأخيرة وهي تنظر إلى الكاتبة فتبسمت وردَّت: هبيني فرصة فقط وستتفقين معي كثيرًا.

أظهر كينت علامات البراءة والاعتراض وهو ينظر إلى الأمير شاكيًا: لقد سخرا مني للتو! أيرضيكَ هذا يا سيدي؟!

وقفت بياتريتشا لتصبَّ الشاي بينما أجاب الأمير: لم تكن الحقيقة يومًا مجرد سخرية.

اعترض كينت: هكذا إذن سيدي! أنتَ متواطئ معهما.

---

* مقطع من مسرحية (الملك لير) على لسان بطل من أبطالها يدعى (كينت)، وهو شخصية مخلصة ومحبوبة.

-أتذكرُ يا كينت يوم أن حكيتَ لي قصة لا أذكر اسمها وأخذت يومًا كاملًا لشرحها حتى أصبتُ بالملل وظننت أنَّها أسوأ قصة كُتبت على الإطلاق!

أكَّدت بياتريتشا: صحيح، بعضُ القصص تُصبح سيئة بسبب عدم كفاءة أصحابها أو لسوء توقيت قراءتها.

لوى كينت فمه ورمق بياتريتشا بانزعاج مصطنع، فأرادت الكاتبة أن تُخفف عنه فعلَّقت: كنتُ أعتقد ذلك أيضًا؛ إنَّنا نظلم بعض الكتب عندما نقرؤها في أوقات غير مناسبة.

نظر الأمير وبياتريتشا لها ونطقا في وقت واحد: لكنَّنا لم نظلمه.

ثم انفجرا ضحكًا، راقبهما كينت لبعض الوقت دون أن يستطيع إخفاء بسمته قبل أن يعلِّق: حسنًا، يبدو أنَّني موضوع تندُّركما، اليوم، بمباركة هاملت.

قال الجملة الأخيرة وهو يرمقها بغيظ مصطنع.

ثم وقف وهو يُردف: لذا سأغادر إذن.

أوقفه الأمير بقوله: أرجو ألا تأخذ كلامنا على محمل الجِدّ؛ لقد كنَّا نمزح فقط.

لاحت على شفتيه ابتسامة راضية مشرقة أظهرت غمازته اليمنى بوضوح وهو يردُّ: يا سيدي الأمير، إنَّ كل ما تقوله في حقي لن يؤذيني، بل يُسعدني؛ لأنكَ أكثر من تراني جيدًا وأنتَ تعلم ذلك، ولكن لديّ أعمالًا مهمة عليَّ أن أنجزها، وسآتي غدًا لاصطحابك؛ وعلى جلالتك أن ترتاح؛ ليبدو وجهك مشرقًا غدًا.

ثم انحنى قليلًا لتحيته وغادر، وعلى الفور وقفت بياتريتشا لترافقه، وعندما ابتعدا استوعبت الكاتبة أنَّها أصبحت وحيدة الآن برفقة الأمير، فغمرها الارتباك وراحت تطيش بعينيها تتأمل الأشجار، بل راحت تعدُّ

أوراقهـا لتُبـدد الارتباك الـذي ازداد فجأة، حتى إنّهـا أصبحت قادرة على سماع صوت نبضات قلبها المضطرب!

لا مبرر لهذا الشعور المزعج - هكذا حدثت نفسها - هل أشعر بالخوف؟! ولكن لماذا؟! إنَّ الأميرَ لا يدعو للخوف مطلقًا!

ازدردت ريقهـا ثـم وجَّهـت رأسهـا ناحيتـه ببـطء، كان خافضًا طرفه ويشرب الشاي بسكينة، راحت تتأمل ملامحه، وتسأل نفسها مجددًا: لمَ هو الوحيـدُ الذي لم أعرف هويته حتى الآن؟! كيـف تمكَّنت من معرفة الجميع بكل سهولة وعجزت أمامه؟! لم يمرَّ عليَّ اسمه وشخصيته من قبل! أم أنَّني قد نسيت؟! هذا وارد.

ودون أن تشعـر كانت قد مدَّت جذعها إلى الأمام وأمالت رأسها وراحت تمعن النظر في عينيه، ثم أفاقت من سرحانها عندما مدَّ كفه أمامه ليُوقفها عن التقدم أكثر، فاعتدلت وهي تعتذر بارتباك: آسف.

غضَّـت طرفها لحظات صامتة ثم عـادت تُحدِّق إليه بذعر متسائلة: هل شاهدني؟! أم أحسَّ بي؟! هل يتظاهر بالعمى فقط؟! أم شعر بأنفاسي؟!

سمع أنفاسي المضطربة ولا شك، إنَّه مذهل، مذهل بطريقة مرعبة!

هل كنتَ أسفل المائدة حينما حضر دوريان؟!

سألها فغضَّت طرفها محرجة وأجابت: لم أقصد التنصت، آسف.

غمرها شعور أزعجها؛ وسرعان ما ضاقت به فرفعت عينيها إليه عازمة علـى أن تفصـح عنه فقالـت: إنَّ كلَّ ما يحدثُ معي غريـب بالفعل، أريد أن أخبرك وأسألك لأفهم، لقد بدأ كل شيء حينما دخلتُ مكتبتي و...

قاطعها بقوله: لا يُهمني معرفة ذلك.

فوجئـت برد فعلـه الغريب ومقاطعته لهـا على هذا النحـو كأنَّه لا يريد منهـا الحديـث في هـذا الموضوع مطلقًـا، أو حتى الإشارة إليـه! أثار ذلك استنكارهـا وخلق فـي أعماقها مزيدًا من الحيرة والأسئلـة المربكة التي لا جواب لها حتى هذه اللحظة.

أما هو فقد حرك كأس الشاي بيده ثم قال ببرود: صبَّ لي، من فضلك.

نهضت بارتباك مستجيبة لطلبــه على الفور. وحاولت جاهدة أن تبتسم رغم شعورها بالضيق إسكاته لها على هذا النحو الغريب!

التقطـت إبريق الشــاي وصبَّت له ثـم ناولته الكأس، فـأردف قائلًا: ما يُهمني هو حاضرك الآن. إنني أثقُ بك.

فاجأهــا ذلــك إلى حد الخرسـ واستحالــت إلى تمثال فــي مكانها، ثم نطقــت بعد لحظــات تفكير: ولكن.. ألا تشكُّ بكونــي.. ربما أكون جاسوسة، كما قال دوريان، أو أي شيء آخر؟! أليس من المفترض أن تعرف على الأقل من أكون؟! أنتَ حتى لا تعرف اسمي! أنا لستُ هاملت!

ومن قال لك إنَّني لا أعرف من تكون؟!

اتسعت عيناها معبرة عن دهشتها وحيرتها، فأردف مؤكدًا: إنني أعرفكَ أكثر مما تعرف نفسك.

تغضَّــن وجهها لحظات ثم لان عن بسمــة ساخرة وهي تردُّ: كيفَ لكَ أن تقول ذلك بكل هذه الثقة. أخبرني إذن من أكون؟!

شــرب من الشاي قليلًا قبل أن يُحدِّثهــا: أتعلمُ ما الذي لفتَ نظر السيد رامبرانت فيك؟ وما الذي جعل الشيخ يَتجنَّبك؟! ألم تفكر في هذا؟!

صمــت لحظات يستمع إلى صوت أنفاسهــا المتطلعة قبل أن يُجيبها: إنَّه اليأس. يأسك العميق: إنَّ اليأس بالنسبة للفنان موضوعٌ، أما بالنسبة لرجل كادح مثــل الشيخ فليس سوى عائقٍ؛ لذلك التفتَ إليكَ رامبرانت، بينما نفر منكَ الشيخ.

تذكــرت على الفور أنَّ كنديدَ أيضًا أشــار إلى يأسها عرضًا حينما كانت تتحدث مع راسكولينكوف، هل حقًّا هي يائسة إلى هذا الحد؟! كلا، لا يمكن ليائس أن يضحك مثلها ويُلقي النكات، إنَّهم يبالغون فقط.

لم تجــد جوابًا وشعرت برؤيتها وقد أصبحت ضبابيــة شيئًا فشيئًا، كأنَّ دموعها التي اندفعت على هذا النحو المفاجئ كانت تؤكد كلامه!

هربت بعينيها وراحت تطيش بهما في كل اتجاه: لتُقاوم دموعها المتطفلة، ولكن في النهاية أفلتت دمعة متمردة وسقطت على خدها الأيمن فمسحتها سريعًا ثم تحدثت لتُغير الموضوع: صحيح أردتُ أن أعتذر لك؛ لأنني غادرت الغرفة دون أن أنطق بكلمة واحدة، كنتُ مرتبكة وخائفة مما قاله دوريان وحسب، أرجو أن تغفر لي خطيئتي.

لن أفعل.

فوجئت برده، لكنَّه أردف موضِّحًا: إلا بشرط واحد؛ لقد أمضيت حياتك في القراءة، كما يبدو لي، لذلك عليكَ أن تختارَ رواية لتقرأها لي، الليلة. غدًا لديّ موعد وأريدُ شيئًا يُبهجني على ذوقك.

مسحت ما تبقَّى من دموعها جيدًا، ثم أومأت موافقة وهي تُجيبه: سأفعل.

ثم وقفت وقد همَّت لتصبَّ له الشاي في الكأس، ولكنَّها توقفت واجمة من سؤاله الذي طرحه عليها: هل فوجئتَ بما رأيتهُ في المكتبة؟!

أعادت الإبريق إلى مكانه ببطء، وتوضَّحته بعين متوجسة حائرة وقتًا طويلًا قبل أن تفرَّ من شفتيها: لم تخبرك بياتريتشا أنني كنتُ في المكتبة ولا أنا!

تريثت قليلًا قبل أن تسأل: من أنتَ حقيقة؟! كيف عرفت؟!

فطن لزلته فارتبك وجهه، ومع ذلك تظاهر بالابتسام وهو يصرفه عنها ثم نهض: فرجعت إلى الوراء خطوة، وإذا به يجيبها: الإجاباتُ الجاهزة لا طعم لها، فكِّر جيدًا وستعرفني. أنتَ تعرف الآن على الأقل اسمي.

ثم استدار وأتم: سأنتظرك بعد العشاء في غرفتي ومعكَ قصة شيقة.

ثم تابع طريقه بخطى ثابتة لا تشبه خطوات الأعمى مطلقًا!

ازداد توجسها وشعرت بأنَّه اختفى فجأة، ثمة ظلال سوداء تعتم رؤيتها، أغمضت عينيها بكفها ثم فتحتهما، فصفت رؤيتها وتمكَّنت من مشاهدته وهو يتابع طريقه!

أثــار ذلــك حيرتهــا وظنَّت أنَّهــا كادت تفقــد وعيها قبل لحظــات؛ فقد اعتادت ذلك.

لم تتناول عشاءها وبقيت في غرفتها لفترة، صدمتها اللوحة مرة أخرى، لاحظــت أنَّهــا أظلمت أكثــر من ذي قبــل، وأصبحت الأماكــن المعتمة أكثر إعتامًــا، ثم عادت لتُقنــع نفسها بأنَّها واهمة وأنَّها كانــت هكذا منذ رسمها رامبرانت فهــو فنان العتمة بعد كل شيء، وهي لم تدقِّق فيها جيدًا وحسب، هذا كل ما فكَّرت به حيال هذه اللوحة العجيبة، وكان ذهنها مشغولًا بالقصة التي ستختارها، عبرتها كثير من العناوين التي قرأتها سابقًا ثم رأت أخيرًا مــن السهل عليهــا أن تقرر في المكتبة، فخرجت من غرفتها وهي تفكِّر: هل يُمكنهــا أن تصل إليهــا دون مساعدة، مشيت إلى آخر الممر ووجدت نفسها فــي النهاية حائرة، وبينما هي واقفة تنظــر في كل الاتجاهات حولها عبرت مــن جوارها الخادمة هاملت، فأوقفتهــا وسألتها عن الطريق، ولم تستغرب مــن رد فعلها؛ راحت تنظر يمينًا ويسارًا وهي تتمتم: من هنا أو هنا؟! أوه يا إلهي لقد نسيت، آسف يا سيدي المحترم.

ثم غادرت. فابتسمت وهي تتبعها بنظراتها وتعلِّق في أعماقها: بالتفكير في الموضوع، لماذا أطلق عليَّ الأمير اسم هاملت؟! هل أشبه هذه الخادمة في شــيء؟ أم لأن ملامحي أصبحت تُشبه ملامــح هاملت ديلاكروا؟ الأمر يزداد غموضًا.

هــزَّت كتفيها بيأس وقــررت أن تأخذ الطريق يســارًا، ثم وجدت نفسها أخيــرًا أمام ذلــك الباب، لكن الظــلام كان يعمُّ المــكان، أدارته وظهر لها نمــوذج الكــرة الأرضية كشبح شريــر، شعرت بأنَّ تقدمها فــي هذه الظلمة مغامرة فامتلأ قلبهــا بالخوف، ومع ذلك دخلت، وتلفتت حولها علَّها تُبصر شمعــة في هذا الظلام، لكنها لــم تجد شيئًا. تلمَّست المكان وطاشت يداها دون هــدي وراحــت تصطــدم بالأشياء، توقفت وقــد تَملَّكها خــوف شديد،

فراحت تُطَمئن نفسها: أيًا ما كان، فلا شك أنني سأجد شموعًا في الأعلى، ثم لماذا الخوف؟!

صعدت درجات السلم ببطء وهي تُحاول أن تستند إلى الدرابزين، وتتابع طمأنة نفسها: إنَّ أسوأ ما يمكن أن يُصادفني هنا هو كنديد وهو غاضب لكوني جئتُ في وقت متأخر، لن تخرج لي ساحرات ماكبث* مثلًا أو ساحرات يوم السبت في لوحة جويا**! هذا مستحيل.

لكن ما إن وضعت قدمها على آخر درجة حتى ظهر أمامها فجأة ظلٌّ أبيض، فأطلقت صرخة عالية، ونسيت أنَّها تقف على السلم فعادت خطوة إلى الوراء وكادت تسقط، لكن الشبح كان قد التقط يدها في الوقت المناسب وأوقف سقوطها، فتحت عينيها ببطء لتتأكد إن كان ثمة يد تمسك معصمها الآن، أم أن ذعرها صوَّر لها ذلك!

لقد كانت يدًا طبيعية، لم تكن يدًا لجدي أو لمنوتور يقف على اثنتين، حركت رأسها ناحيته فأبصرته وعرفته، لم يكن سوى الرجل من (تسعة عشر)!

وضعت يدها على صدرها تلتقط أنفاسها المذعورة بصعوبة بالغة وهي تسأل: ما الذي تفعله هنا؟ لقد أرعبتني جدًّا.

ابتعد قليلًا واتجه ناحية المكتب، أخرج شمعة وأشعلها، ثم عاد إليها وسأل: ما الذي تفعله أنتَ هنا؟!

تقدَّمت قليلًا وأجابت: أنا ضيف الأمير أريان، آسف فلم أعرِّفك، اليوم، بنفسي، اسمي هاملت، وقد جئتُ إلى هنا لأحضر كتابًا أقرؤه للأمير، ولكن لم أكن أعلم أنني سأجد المكتبة خاوية هكذا.

أعطاها الشمعة وهو يسأل: أتعرف أي كتاب تريد؟!

كلا، لم أقرر بعد. أريدُ رواية شائقة ومضحكة.

---

* إشارة إلى مشهد الساحرات في مسرحية (ماكبث) لشكسبير.

** إشارة إلى لوحة من لوحات الفنان (غويا) السوداء بعنوان: (ساحرات الليل).

أشار لها إلى أحد الرفوف قائلًا: هناك في الصف الرابع.

تناولت الشمعة وهي تشكره، ثم راحت تبحث بين الرفوف، فكَّرت: هل تُغامر بأخذ رواية ما لم تقرأها من قبل؟ ثم فكَّرت أنَّ (موليير) هو الخيار المناسب الآن، لطالما كان خيارها في لياليها الكئيبة، فراحت تبحثُ عن بعض مسرحياته، وأخيرًا وجدت مسرحية (مريض الوهم)، وحملتها ثم اتجهت إلى الشيخ أيمن كما سمته، ووجدته ممددًا بجانب المكتب وقد أراح يده تحت رأسه، دنت منه ثم مالت قليلًا وهي تقول: المعذرة، لكن هل أنتَ تقوم بعمل كنديد بالليل؟!

جلس وهو يجيبها: لا بأس، خذه وأخبره غدًا صباحًا ليُسجل ما أخذته. إنَّ كنديدَ رجل طيب.

استدارت لتُغادر لكنَّها توقفت وعادت تنظر إليه بفضول، كان قد تمدد مرة أخرى ووضع يده تحت رأسه، فسألت بعد تردد: هل تنامُ في المكتبة دومًا؟ ألا تخافُ من النوم هنا وحيدًا؟!

أدار رأسه ورمقها باستغراب؛ لقد غلب على ظنه أنَّها غادرت، فاعتدل جالسًا وأجابها: إنني بُليتُ بحبِ الكتب بل "لم أعرف على وجه هذه المعمورة مريضًا بالكتبِ مثلي"*

ما الخوف من النوم داخل مكتبة؟! أن تنامَ داخل مكتبة يعني أن تكونَ أحلامك روائية، وأكبر كوابيسك مسخ فرانكشتاين يُلاحقك ولا يبلغك، وأقسى خوف يُهددك الوقوع في جحيم المعرِّي.

وأسوأ حظ قد يُصيبك هو حظ زديج فولتير، وما عدا ذلك ستنام مطمئنًّا هانئًا وتُصبح ليلتك بألف ليلة وليلة، تشدو مع الأصفهان، وتجاور حيَّ بن يقظان، وتحيط بمنطق الطير، وتأنس بالعقد الفريد في روضة من رياض الصالحين. لا تخشَ النوم في المكتبة.

---

* ما بين القوسين مقطع من رواية: (تسعة عشر) على لسان البطل.

أبـدت إعجابها وتبسّمت وهي تـردّ: سأفكرُ في النوم داخل مكتبة، ولكن حتمًا لـن يكون في مكتبة كلاسيكية كهذه؛ إنَّهـا تستدعي قصص الأشباح، وهذا يُخيفني.

ثـم غـادرت المكان، وتاهـت قليلًا، وسألـت بعض الخـدم حتى تمكَّنت أخيرًا مـن الوصول إلى غرفة الأمير، طرقت البـاب بهدوء، فسمعت صوته من الداخل يقول: ادخل يا هاملت.

استنكـرت معرفتـه لهـا دون أن تنطـق بكلمـة، ومع ذلـك أدارت الباب فوجدتـه يقف بجـوار طاولة الشاي وهـو يُشير إليها ويقـول: تناول طعامك أولًا، لماذا لم تأتِ على العشاء؟!

اقتربـت وهـي تَنقـل بصرها من مـكان إلى آخـر، شدَّتهـا اللوحة التي رَسمـت ملامح الأميـر بمنتهى الدقة وعُلِّقـت فوق السريـر، وتوقفت تُمعن النظـر فيهـا، كانت العينـان فيهما أكثر صفـاء وعمقًا، انتبهـت لسرحانها عندمـا حرك الأمير يديه على الطاولة وأوقـع الملعقة، فاتجهت سريعًا إليه وانحنت لتلتقطها وتسأل: آسف لم آتِ إلى العشاء لأنني لم أشعر بالجوع.

كذبتهـا معدتها علـى الفـور، وأصدرت صوتًـا جعلها تشعـر بالإحراج، وتعتذر.

جلست على الطاولة وقالت: سأنتهي سريعًا، لن أتأخر.

ردَّ عليها الأمير وهو يتجه نحو سريره ويقول: لا بأس، خذ وقتك.

ثـم راقبتـه وهو يَجلس على السريـر مستندًا إلى وسـادة كبيرة، وغطى نصفـه السفلـي بالغطاء، راحـت تلتهم طعامهـا بنهم وبسرعـة، ثم وقفت تُعلـن انتهاءها، اقتربت منه وسحبت كرسيًّا ووضعته أمام السرير، ووجدت نفسهـا مضطرة لرفـع صوتها قليلًا وهـي تقول: لقد اخترتُ لـكَ مسرحية مـن مسرحيات موليير، أنـا واثقة بأنَّها ستبهجـك وتجعلك تضحك كما لم تضحك من قبل، إنَّ هذا ما يحدث معي كلما قرأت له.

ثـم همَّت بالجلوس، لكن الأمير أوقفها بقوله: هل ستضطر إلى الصراخ هكذا حتى أسمعك؟! اقترب.

ثم أشار إلى الجهة الأخرى من السرير وقال: يُمكنك أن تقرأ هنا.

تـرددت لحظة وهي تنظر إلى السرير الواسـع الكبير وراحت تفكّر: هل هذا منطقيٌّ؟! ولكن لا شيء منطقي هاهنا، اتجهت دون مزيد من التفكير، وجلست، ومدَّت ساقيها وهي تقول: حسنًا سأبدأ.

لكـن عندما فتحت الصفحة زوت عينيهـا إليه، فوجدته ساكنًا منتظرًا، فعـادت لتُطالـع الصفحة وارتـجَّ كيانها؛ فلم تستطـع أن تنطق من الخجل، وعندما استطال صمتها سأل: لماذا لم تبدأ؟!

زمَّـت شفتيها بتردد ثـم ألمحت عمَّا ألمَّ بها قائلة: فـي الواقع.. شعرتُ بأن الوضع هاهنا لا يصلح لأن أروي لكَ مسرحية من مسرحيات موليير، بل قصـة من قصص الجنيات التي كانت أمي ترويها لي لأنام بسرعة، هل تودُّ أن تسمع واحدة منها؟

كشـر عـن أسنانه تبسُّمًا، ثـم أرخى ظهره على الوسـادة وهو يُطَمئنها: اقرأ، لا عليك.

تريثـت لحظـات، وقبل أن تُشيـح عينيها عنه لمحت طرفًـا من قلادته، وتذكَّـرت ارتداءه لهـا في أول مرة شاهدتـه فيها، وكان شكلهـا غريبًا، لذا سألت: القلادة؟ هل تنام بها؟ ألا تُضايقك؟!

اعتـدل وهو يلمسها من تحت قميصه ويقول: هل شاهدتها من قبل؟! إن تركتها في أي مكان فإنّني لن أنجو من بياتريتشا.

حركـت شفتيهـا بحركة تنمُّ عـن الفهم؛ لقد ظنتها هديـة منها أو شيئًا مـن هذا القبيل، ثم أمعنت النظر في عنوان الكتاب قبل أن تسأل بتردد بدا واضحًا في نبرة صوتها: هل لي أن أسألكَ عن المناسبة في الغد؟!

أجابها سريعًا: إنَّه حفل توقيع رواية، حيث سيوقع (إيفان بتروفيتش)* روايته غدًا.

تنبَّهت معارفها وهي تحاول أن تتذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل؛ فلم يبدو غريبًا عليها، ثم بدت على معارفها دلائل الانفراج شيئًا فشيئًا فصاحت بحماسة: عرفته، لقد عرفته. هل تمكَّن من كتابة روايته أخيرًا؟!

تبسَّم ثم قصد إعادة توجيهها للكتاب بسؤاله: ألن تقرأ؟!

شدَّت على الكتاب بارتباك وهي تُجيب: بلى، بلى.

لكنَّها صمتت ولم تقرأ حرفًا، ولم يكن صمتها هذه المرة من الخجل، بل من أجل الرغبة في حضور الحفلة. لقد فكَّرت أنَّ حضور حفلة كهذه ستكون تجربة فريدة لن تمر عليها مطلقًا، سبق أن رأت حفلات توقيع كتَّاب لرواياتهم، لكن أن يوقع بطل رواية لروايته!

إنَّ هذا لن يَحدث إلا في هذا العالم العجيب.

سرعان ما أفصحت عن رغبتها بسؤالها: هل يُمكنني أن أرافقك؟

وعلى الفور أجاب بالموافقة. فحاولت أن تُخفي بهجتها وهي تجيب باتزان: حسنًا سأقرأ الآن..

أخذت نفسًا عميقًا لتتأهب ثم نظرت إلى الكتاب وفتحت الصفحة الأولى ثم شعرت بخديها يحمرَّان فجأة، فاسترقت نظرة إليه وعادت لتُفكِّر: كيف لها أن تجلس هنا وعلى هذا النحو المطمئن؟! أين ذهب عقلها؟! إنَّها تدرك أكثر من غيرها أنَّها كاتبة وإن كانت على صورة هاملت.

ازدردت ريقها وهي تُحدِّث نفسها بضرورة القيام على الفور بعد الانتهاء، تنحنح صوتها وهي تقول: إنَّها مسرحية (مريض الوهم).

ثم استرقت نظرة إليه مجددًا. كان وجهه يفيض بالحماسة، فعادت تنظر إلى الكتاب وشرعت تقرأ، ومن وقت لآخر كانت تسترق نظرة إليه، وفي كل مرة كانت تُشاهد ابتسامة طفيفة على شفتيه...

* بطل رواية (مذلون ومهانون) للأديب الروسي دوستويفسكي. كان كاتبًا روائيًا.

هــذا كل ما تذكره قبل أن ترى نفسهــا أمام بُحيرة جميلة تُشبه البحيرة التي وقفت أمامها (أوليفيا)* قبل أن ترمي نفسها فيها وتموت.

كانت تتأمل البحيرة بعمق، وشعرت بأنَّ ساقيها تندفعان دون إرادة منها وتقفز: لتجد نفسها وقد ابتلَّت تمامًا!

شعــرت بالمــاء يتغلغــل فــي رئتيها فــدوَّت منهــا صرخة جعلــت النائم بجوارهــا يستيقــظ فزعًا، وجــدت نفسها مبتلَّــة بالماء تمامًا وفــوقَ رأسها وقفــت بياتريتشا وهي تحملُ الدلو الذي أفرغت مــاءه عليها للتو، فصاحت مستنكرة: ما الذي فعلته بي؟!

وسأل الأمير مستفهمًا: ما الذي يحدث؟

أجابتــه بياتريتشا وهــي تحدجها بحدة: هذه أنا يا سيــدي. لقد وجدتُ إنسانًا متسخًا هنا فحممته.

حدَّقــت إليها بسخط وقــد استوعبت للتو الوضع وكل مــا حدث، فعلَّقت ساخرة: يا للطف!

قــرَّب الأمير يده ناحيتها كأنَّه يبحث عنها وهو يسأل: هاملت؟! هل نمت هنا؟!

أجابتــه دون أن تصــرف عينيهــا الساخطتيــن عــن بياتريتشــا: نعم يا سيدي. آسف، يبــدو أنَّ النعاس غلبني فنمت، ويبدو أنَّ بياتريتشا قررت أن تحممني في مكاني!

رمــت الدلو على الأرض وأحدث وقوعه جلبة وهي تردُّ: إنَّ رائحتك نتنة، وكان يجبُ عليكَ أن تستحم.

وهنا فهم الأمير ما حدث، فمال بجسده من الضحك ثم نزل عن السرير قبــل أن يتمكن من ســؤال بياتريتشا: ما الذي فعلته يا عزيزتي؟ إنَّ أحدًا لم يكن ليرضى أن يتم إيقاظه بهذه الطريقة! أنتِ مجرمة!

حدجتها بنظرات ناقمة وهي تجيب الأمير: لكنَّه يستحق.

---

* إشارة إلى مشهد انتحار (أوليفيا) في مسرحية (هاملت) لشكسبير.

ولكـن ما إن لاحظـت شعرها المبلل وهو يقطر علـى وجهها الذي ذهب مـا فيه من سخط، وحـلَّ محله التعجـب والاستسلام، حتـى غلبتها نفسها فابتسمت وكتمت ضحكتها وقالت: آسفة.

ثم حرَّكت يديها بإشارات تنم عن الأسف وأردفت: آسفة حقًّا، سأحضرُ لك ثوبًا على الفور، اعذرني.

ثـم اتجهت صـوب دولاب الأمير وهـي تقول: آسفة يا سيـدي، سأعطيه روب الاستحمام خاصتك كي لا يصاب بالبرد.

أومـأ موافقًا وهو يتَّجه إلى دورة الميـاه ويقول: اعتني به جيدًا، وجهزي له ثيابًا تليق بحفل اليوم.

أجابت وهي تُخرج روب الاستحمام من الدولاب: حاضر يا سيدي.

ثم عـادت إليها، كانت لا تزال جالسة على السريـر متكئة على الوسادة وقـد تبسَّط وجههـا، فوقفت بياتريتشا علـى مسافة قريبـة، مستنكرة هذا التحول السريع في مزاجها على الرغم ممَّا فعلته بها للتو؛ فارتبكت وتابعت تقدمها غاضَّة الطرف ثم همَّت بوضع الروب على السرير وهي تسأل: لماذا تنظر إليَّ هكذا؟! ألا يفترض أن تكون غاضبًا؟ أنتَ تربكني دومًا بـ...

ثـم نظرت إليها، فوجدت عينيهـا وقد رقَّتا بحنو بالغ، فعدلت عمَّا كانت تنوي قوله وراحت ترمقها واجمة حائرة.

فطنت الكاتبة لما يدور فـي ذهنها، فتبسَّمت لها وأوضحت: إنني سعيد فقـط، سعيد لأنني تمكَّنت مـن رؤيتك تضحكين على هذا النحو وتبتسمين، لقد اعتدتُ أن أراك حزينة في اللوحة ومتجهمة هنا.

علَّقت متذمرة: اللوحة مرة أخرى؟! أنتَ تعاني معضلة مع اللوحات.

تجـاوزت سخريتها ولم تجب وظلَّت تتأملها وهـي تُحدِّث نفسها: عندما كنـتُ أرى الدمعـة المختبئة خلـف ابتسامتك التي خلَّدهـا ريني في لوحته، ظننتُ كثيرًا في أعماقي أنَّ صاحبة هذه اللوحة لن تكون قادرة على التبسُّم مرة أخرى، وكنتُ أفكر ماذا لو أنَّ نهايتها كُتبت بشكل مختلف؟ ماذا لو أنَّها

عاشت؟ كانت ستبتسم بالتأكيد، كانت ستضحك وكانت ستُحب. يا لبؤس هذه الدنيا التي نعيشها، لماذا لا يمكننا تغيير النهايات؟!

عندما وصلت إلى هذا الخاطر الأخير فوجئت بها تضع الروب على كتفها برقَّة وتلفُّه عليها بحرص لتغطي كتفها الآخر وهي تقول: ستصاب بالبرد.

ثم تريثت لحظة قبل أن تردف: أنتَ تتصرف بغرابة عجزت عن فهمها!

ثم اعتدلت وهي تتوضَّحها بالنظرات قبل أن تسأل: هل هنالك ما يُضايقك، هاملت؟!

هزَّت رأسها نافية ثم همَّت بالنهوض، لكن بياتريتشا أوقفتها بقولها: سأسبقك إلى الغرفة وأجهزُ لكَ ثيابك، ومن فضلك أسرع و...

ترددت قبل أن تتم: لا تتحدث مع سيدي بلا تهذيب.

ثم أدارت ظهرها واتجهت نحو الباب، أما الأخرى فقفزت من فوق السرير لتتبعها فتعثرت وضربت إصبع رِجلها الصغير بطرف السرير فانتفضت، وأطلقت ولولة، وراحت تقفز بغير اتزان وتمسح على إصبعها: في محاولة يائسة لتهدئته، وعلى الرغم من كل هذا الألم أسرعت لتلحق بياتريتشا، وصاحت بأعلى صوتها لتُسمع الأمير في دورة المياه: سيدي الأمير: أنا عائد إلى غرفتي.

ثم أسرعت لتلحقها، شاهدتها وهي تسبقها بمسافة، فأسرعت راكضة لكن بخطوات متمايلة وغير متزنة، وعندما دنت منها لاحظت بياتريتشا مشيتها المضطربة: فتوقفت وهي تسألها: لماذا تمشي هكذا؟!

تابعت تقدمها وهي تجيبها: قد التوى إصبع قدمي الصغير.

أبدت قلقًا وهي تسأل: هل يُؤلمك؟

أومأت موافقة وأجابت: لكن لا بأس، إنَّه شيء من الممكن تجاوزه.

ثم تقدمتها بعدة خطوات فلحقتها بياتريتشا حتى أصبحت بجوارها، وهنا استرجعت ما فعلته بها بياتريتشا قبل قليل ولم تستطع أن تفسِّره سوى

بالغيرة؛ لــذا نظرت إليها وقالت بطريقة مستفهمــة ودون تفكير: إنَّ الأمير يُحبك كثيرًا؟! هذا واضح عليه.

فوجئت بياتريتشا، ومع هذا ظلَّت محافظة على صرامة نظراتها قبل أن تصــرف وجهها لتتابع طريقها وتردُّ مستفهمة: ومــا الداعي إلى هذا القول الآن؟!

هزّت كتفيها في تحامق واضح وهي تردُّ: لا شيء، لا أعني شيئًا، مطلقًا، لقد طرأ هذا ببالي فجأة.

حدجتهــا بازدراء ثم تابعت سيرها، وما إن وقفت عند الباب حتى قالت وهي تنظر إلى مقبضه: إنَّ الأميرَ يحبُّ الجميع بالقدر نفسه.

ثــم سددت إليهــا نظرات تفيض غضبًــا وريبة، وأردفــت: لا تدخل حتى أنتهي من تجهيز ثيابك.

لاحظــت استنكارها فأفصحت عن السبــب بصراحة: لا أحب أن أختلي معك؛ أنتَ تثير الشبهات.

ثــم ولجت وصفعــت الباب خلفها بقوة حتى خُيل للكاتبــة أنَّ الباب اهتزَّ وكاد يسقط على رأسها، وبالطبع كانت بياتريتشا تتمنى ذلك.

لم تمضِ دقائق حتى خرجت بياتريتشا وهي تقول: يُمكنك الدخول الآن، وسأحضر لكَ الفطور، وستخرج بعدها برفقة الأمير.

وأين سيقام الحفل يا ترى؟

تجاهلتها وغادرت؛ فلم تجد بُــدًّا من دخول غرفتها، ولم تمض لحظات حتــى علا صــوت صراخها المذعــور، فعــادت بياتريتشــا أدراجها وفتحت الباب، لتجدها تحملق إلى اللوحة بذعر تام واضعة يدها على فمها، اقتربت منها بحــذر ونظرت إلى اللوحة، لم تجد شيئًا يدعــو إلى الذعر فسألت: ما الأمر هذه المرة؟! لماذا تقف هكذا كأنَّ شيطانًا ينظرُ إليكَ في اللوحة؟!

استوعبــت للتو وجودها فالتفتت إليها شاحبة وأشارت إلى اللوحة تقول: انظــري جيدًا، لقد ظهر شكل الفم علــى الوجه أخيرًا، وقد أعتمت أكثر من

ذي قبـل، أنا واثـق، واليدان، اليـدان، أترين؟! لقد أظلمـت! لم تكن هكذا البارحة، أنا واثق.

كتمت غيظها وقالت وهي تهمُّ بالاستدارة: توقف عن افتعال المشكلات، وعـن الإساءة إلى اللوحة، لا أرى فيها سـوى لوحة جميلة؛ لأن رامبرانت هو صانعها.

أمسكتهـا من ذراعهـا لتوقفها وهي تقول: مهـلًا، ألا تشاهدين فيها أي تغير عن المرة الأولى؟!

نظرت إلى يدها الممسكة بذراعها، وشعرت بارتجاف أصابعها، فخففت مـن حدتها قليلًا وهـي تُجيبها باستنكار: لا أرى فيها سوى أنت. ثم ما الذي تقصده بظهور فـم؟ إنَّ الفم موجود من قبل، بل كل الملامح، كما أخبرتك سابقًا!

ثم أزاحت كفها بلطف عنها وهي تردف: لا أدري ما الذي تقصده بداية في كونها بلا ملامح، وإصرارك هذا غريبٌ بالفعل!

ثـم صوّبت النظـر إليها وغمرهـا إحساس بالشفقة نحوهـا؛ إذ كانت خافضـة طرفهـا في ذعر وخيبة وصمـت، حدثت نفسهـا: لا يمكن أن تكون هذه النظرات نظرات شخص يكذب! فألقت نظرة على اللوحة، لكنَّها كانت كمـا رأتها المـرة السابقة؛ فعبست متذمرة ثم غـادرت، وبعد نصف ساعة عـادت ووضعت الفطور على الطاولـة، وفوجئت بها لا تزال واقفة تحدِّق إلى اللوحة بوجه كسيف!

أسقطت الملعقة عمدًا لتثير انتباهها، لكنَّها لم تطرف ولم تلتفت، أعادت الملعقـة واتجهت ناحية الباب ثم قالت: سأعود بعد دقائق لاصطحابك. ثم أغلقت الباب خلفها.

كانـت شفتاها قد تحركت أخيرًا بابتسامة ولكنَّها كانت متألمة، ابتعدت قليـلًا عن اللوحـة وهي تُحدِّث نفسهـا: لماذا؟ لماذا حصلـتُ أنا على هذه اللوحـة لا دوريان جراي؟! أليس من المفترض أنَّه هو من يحصل على لوحة

ملعونــة كهذه؟! هــل سينتهي بي المطاف بتمزيقها كمــا فعل؟! لأموت؟! هل سيكون موتي هكذا؟! هه!

تغضَّــن وجههــا وهي تشيــح عينيها يســارًا مستدركة: هــل كانت اللوحة ملعونة أصلًا؟!

رفعت رأسها ناظرة إلى الثريا العملاقة فوقها، وأطلقت تنهيدة يائسة.

إنَّ كل شــيء هاهنا يسير على نحو مختلف! لــو أنَّني أعلمُ فقط ما الذي حدث لي عندما دخلت المكتبة!

وفجــأة لاحظت أطيافًا سوداء ظهرت في اللوحة من العدم وراحت تُعْتم جزءًا آخر من يديها، حدث ذلك أمام عينيها مباشرة!

ثم شعرت بأن عينيها قد أعتمت هي الأخرى، فغطتهما بكفيها، وانتفض فؤادها، هل اللوحة تؤثر على مصيرها كلوحة دوريان بالضبط؟! هل ستطال العتمة عينيها أيضًا؟!

فرَّقــت بيــن البنصر والوسطى ثم فتحــت عينيها ببــطء، وإذا بها ترى اللوحــة وقــد ازدادت عتمتها، وكما فعــل دوريان عندما حجــب اللوحة عنه بتغطيتها، قفزت هي الأخرى إلى الدولاب وغطتها بأحد الأثواب، ثم ابتعدت عنها عدة خطوات وراحت تنظر إليها لحظات قبل أن تفرَّ هاربة نحو الباب، وما إن فتحته حتى وجدت بياتريتشا واقفة وقد همَّت بطرقه.

شعــرت بأنَّها ليســت على ما يرام، كما أنَّ ملامحهــا لا تشي بأنها بخير ألبتــة؛ لذلك ابتعدت خطوة وسألــت بلطف: أثمة ما يقلقك؟ إنَّ وجهك يبدو شاحبًا جدًّا!

هــزَّت رأسها نافية، ثم تقدمــت وأغلقت الباب خلفهــا وظلَّت تنظر إلى المقبــض بذعر تام قبل أن تفيق من سرحانها بصوت بياتريتشا الذي قال: اتبعني، العربة بانتظارنا.

أومــأت موافقــة ثم لحقتهــا دون أن تنطق بكلمة واحدة طــوال الطريق، حتــى إنَّها لم ترفــع عينيها عن الأرض، ولم تلاحــظ بياتريتشا التي توقفت

أكثر من مرة لتنظر إليها، وعندما وصلوا إلى العربة لاحظت تأنق بياتريتشا وثوبهـا الجميل، ثم رفعت عينيهـا للأعلى وشاهدت جانبًـا من وجه الأمير يُطلُّ من نافذة العربة الصغيرة، صعدت الدرجات، وما إن ولجت حتى رأت كينـت يجلس بجوار الأميـر، فجلست على الكرسي الـذي يقابلهما، وتركت مكانًـا بجانبهـا لبياتريتشا، لكنَّها فوجئت بعدم صعودهـا وإغلاقها الباب. لقد ظنت أنها سترافقهم.

ثم تحركت العربة نحو المكان الذي ستقام فيه حفلة التوقيع، وفي أثناء الطريق كانت سحابة من صمت قد أطلَّت على الجميع، كان الأمير قد غرق في شعور أزعجه لا يدري كنْهه لكنَّه خلق في أعماقه إحساسًا بعدم الارتياح، وكينـت كان يضع ساقًا فـوق الأخرى ويراقب الطريق مـن النافذة، أما هي فكانـت تفكِّر في اللوحة وما لحقها من تغييـر، وفي حلم بحيرة أوليفيا التي وقعت فيها!

تمكَّن كينت أخيرًا من كسر صمتهم عندما نظر إليها وقال: لقد أخبرتني بياتريتشا أنَّك قرأتَ البارحة للأمير.

ثم رمق الأمير وسأل: ترى كيف كان يا سيدي؟!

أجابـه بابتسامـة ساخـرة: أتُصدق! كان أسـوأ منك. لقـد أسفت على موليير بشدة.

رفعـت حاجبيها معترضة بينما نال منها كينـت بقوله: كنتَ تسخر مني البارحة، وأنتَ أسوأ مني.

تصنَّعـت التذمر وهي توجِّه نظرها صوب النافـذة وتقول: لقد حطَّمْتُما حلمي، لقد كنتُ أفكر بتسجيل كتب مسموعة.

ازدادت ابتسامـة الأميـر اتساعًـا وأردف ساخـرًا: ستفعلُ خيـرًا كثيرًا للناس إن تنازلت عن ذلك.

أدارت وجهها ناحيته وقد همَّت أن تردَّ لكنَّها عدلت عن ذلك عندما شاهدت ابتسامته الساخرة، فابتسمت، ثم وضعت يدها على النافذة، وأطلقت بصرها في معالم الطريق، وبعد برهة سألت: أين ستقام الحفلة؟

أجابها كينت: في قاعة الفنون، هل شاهدتها من قبل؟!

نفت ثم أطلقت العنان لخيالها وراحت تفكّر كيف سيكون شكلها لكن سرعان ما قاطعتها اللوحة وعتمتها فاغتم صدرها.

بعد دقائق توقفت العربة ونزل منها الجميع، وقفت مشدوهة أمام البوابات العملاقة التي فتحت للأمير فتقدَّم، ومن خلفه سار كينت، ثم لحقت بهما، وعندما دنت من الأمير فوجئت بكفه الذي مدَّه خلفه ليمسك بها، فالتقطته دون تردد، شدَّ عليه وهو يقول: أخشى أن تأخذك الحماسة في الحفلة، لكن احرص أن تبقى بجانبي طوال الوقت.

أومأت موافقة، ثم تابعت الطريق، وودَّت لو كان بوسعها أن تُفلت من يده، كانت عيناها تسبقانها لشدة الحماسة وهي تتأمل كل ما تقع عليه باهتمام؛ أحواض الزهور الملونة المرصوصة بأشكال هندسية رائعة، وأشجار البرتقال التي ملأت المكان برائحتها المميزة، والتماثيل المرصوصة على طول الطريق، توقفت عند نافورة أثارت دهشتها، يُحيط بها الأسود، ذكَّرتها على الفور بنافورة قصر الحمراء.

تابعت سيرها وهي لا تزال تتأمل نافورة الأسود، حتى حينما كان يفترض بها أن تستدير لوت عنقها لتستمتع أطول وقت ممكن بهذا الجمال، لكن صوت الجلبة التي انبعثت على بُعد خطوات منهم جعلتها تصرف نظرها عن النافورة وتنظر ما الخبر، شاهدت امرأة تلبس فستانًا أسود اللون بكمَّين أحمريْن، شعرها الأسود المُحمر ينسدل على كتفيها، وبجانبها وقف رجل يلبس ملابس محارب قديم، ويضع قبعة تعلوها ريشة حمراء، كانت المرأة تتحدَّث بصوت مرتفع وصاخب، وبدا أنَّها تعترض على أمر ما، وما

إن اقتربوا منهما والتفتت حتى اتسعت عيناها بدهشة: فلم تكن تلك المرأة سوى الموناليزا!!

توقـف كينت بمجرد أن شاهدها ليرحب بها، لكن الكاتبة سحبت الأمير فجأة واضطرَّتْهُ إلى الابتعاد، فأثار ذلك استنكار كينت.

كان واضحًـا أنَّها تعمَّدت ذلـك؛ كان النظر إلى هذه اللوحة يُثير ذُعرها واشمئزازهـا، لم تكن ترى فـي غموضها سرًّا ولا جمـالًا، كيفما أمعنت في ابتسامتها لم تبْدُ لها إلا ابتسامة شخص يُخفي في أعماقه سوءًا.

ومما زاد من نُفورها هو نعتها باللوحة الأجمل في العالم!

لطالمـا اعتقدت أنَّ تحديد مثل هـذه الأمور وإقناع الجميع بها ما هو إلا محاولة لفرض معايير خاصة على الجمالِ والذوقِ واحتكارهما، وأية معايير تُوضـع لتحديـد ماهيـة الجمال، من شأنهـا أن تُضعف كل جمـال لا يتوافق معها، فكما أنَّ الفن لا معايير له، كذا الجمال لا معايير له.

عندمـا ابتعدت مسافة طويلة، توقفت والتفتـت خلفها، كان كينت يُسرع خطواته ليلحقهما، سأل الأمير: لماذا أسرعت هكذا؟!

مـا إن همَّت بالإجابة حتى وصل كينت وقـال متسائلًا: ما الذي فعلته يا هاملت؟ لماذا اندفعت هكذا؟! ألم ترَ أنِّي توقفتُ لأرحب بالسيدة موناليزا؟! ومرافقها المحاربُ القديم*؟!

أرسلت يد الأمير وهي تجيب: بلى، قد رأيت، ولكنِّي أكره هذه السيدة.

كرر كينت مستنكرًا " تكرهها ؟! " ثم سأل: وهل تحدَّثت معها من قبل؟!

أُسقـط في يدها وضاعت عنها الإجابات إثْر استيعابها أنَّها تكره اللوحة فقـط، وما شاهدته للتو هو صاحبة اللوحـة! ومع ذلك كابرت وبررت بعناد: لا، لكن يكفي أن أشاهدَ بسمتها لأدرك أنِّي لا أرتاح إليها.

لـم تقنع إجابتهـا كينت الـذي ازداد وجهه استنـكارًا، أمـا الأمير فقد انبلجـت شفتاه عن ابتسامة غامضة جعلتهـا تعجز عن تخمين إن كانت في

---

* إشارة إلى لوحة (المحارب القديم) التي رسمها الفنان رامبرانت.

صفها أم ضدها. فـازداد توترها، ومع ذلك تابعت عنادها وقالت موضِّحة: حتـى أذواقنا الخاصة يتمُّ التحكم بها! كيف أصبحتْ لوحة هذه السيدة هي أجملُ لوحةٍ في العالم كلـه؟! يقولون: إنَّ لها ابتسامة غامضة، وأنَّ ليوناردو رسمهـا بطريقة بارعة، وهي تحوي أسـرارًا، ولكن كل ذلك لا يُهمني، مهما أمعنـتُ النظـر فيها فلن أجـد خلف ابتسامتهـا إلا مشاعر تنـمُّ عن إخفاء السـوء، إلى درجـة تُمكنني من وصـف ابتسامة أحدهم بقولـي: أخبثُ من ابتسامة الموناليزا!

رفَّ جفناهـا فجـأة بفزع قبل أن تتـمَّ حديثها؛ لقد لمحـت خيالًا أبيض صغيرًا عَبَر من سياج الشجر الذي أمامها واختبأ فيه، فأمالت رأسها لتنظر من وراء الأمير الذي كان واقفًا خلفه، أما كينت الذي شاهد تبدُّل ملامحها المفاجئ فالتفت هو الآخر نحو السياج متسائلًا: ماذا؟!

أشارت بإصبعها وقالت: أعتقد أنَّني رأيتُ شيئًا ما.

عاد لينظر إليها ويجيب: ربما كان أرنبًا.

كـررت باستغـراب: أرنب! ثم وجهـت أنظارها إلى الأميـر، كان لا يزال محتفظًـا بنفس الابتسامـة التي أربكتها مـن قبل، بينما قطـع عليها كينت بسؤالها: أحدِّثك عن المرأة وتحدِّثني عن لوحة؟! ما الذي أصابك؟!

لم تجبه وأفصحت عمَّا في خاطرها للأمير: لماذا تبتسم هكذا سيدي؟! لقد أربكني ذلك؟ هل تؤيدني فيما قلته أم تسخرُ مني؟!

همَّ أن يُجيب ولكنَّها تابعت دون تفكير: أعتقدُ لو أنكَ شاهدتها لوافقتني الرأي.

آذتـه الكلمة الأخيرة قليلًا، وبان أثر ذلك علـى وجهه الذي تلوَّن فجأة، لذلـك عَبَر من جوارها ليُكمل طريقه دون أن يجيبهـا بشيء، فتبعته ملحَّة: هل توافقني؟!

فـي تلك اللحظة أمسـك كينت ذراعـه فالتفت ناحيتها وتحـدَّث أخيرًا مفصحًا عمَّا اعتراه من ضيق: لماذا تعتقدُ أنَّني لم أشاهدها من الأساس؟!

أدركت خطأها فتغضَّن وجهها وغمرها الحرج، وعندما تماسكت وهمَّت بالردِّ سبقها الأمير موضِّحًا: إنني أوافقكَ في أنَّ لكل شخص نظرتَه الخاصة به، ولكن ليس من الضرورة أن تكون صائبة دومًا، كما أنَّ كل ما يُقال لنا ليس كذلك أيضًا. لقد أوضحت لي من قبل أن ملامح الإنسان قد تشي بشيء مما تحمله أعماقه، ولربما العيون هي مرآة تعكس ما بالداخل، ولكن كن واثقًا أنَّ هناك من يستطيع أن يضع أكوامًا من الحجارة وسدًّا يجعلك لا تستطيع الجزم بما في أعماقه مهما حاولت، في النهاية لا يُوجد شياطين ولا ملائكة في البشر، في داخل كل فرد منَّا يتعارك الملاك والشيطان إلى الأبد؛ فمن تراه شيطانًا في موضع قد تراه ملاكًا في موضع آخر.

صمت لحظة ثم أردف كأنَّه لا ينتظرُ منها تعقيبًا: لندخل بسرعة فأنا أشعر بالبرد.

ثم تحرك مرغِمًا كينت على المشي، فتبعتهما وهي تُفكِّر أن تعترضه: فبالنسبة إلى البشر هي لم تكن تعتقدُ أنَّ فيهم ملائكة أصلًا، جميعهم في نظرها شياطين يَضعون أقنعة ملائكة. كانت تكره أن تفكر على هذا النحو (النيتشوي)* وطالما اعترضت عليه، ولكن في فترة ما شعرت بأنَّه مُحق وأن اعتراضها لم يكن إلا مثاليًا وهشًّا، وأنَّ الشر هو الأساس في هذا العالم، وأن الخير عارض، لكنَّها فضَّلت الصمت الآن وأن تتوقف عن معارضة الأمير فثمة ما يُخبرها بأنَّ الأمير يفهمها جيدًا، وتبدو دومًا ردوده لها استباقية على نحو مفاجئ، وهذا يجعلها دومًا في حالة مربكة.

أسفرت بوابة القاعة عن نفسها من خلف الأشجار، فأسرعوا بالاقتراب، وعندما دخلوا أبدت الكاتبة تعابير مندهشة كتلك التعابير التي تُلازمنا حيال السفر ورؤيتنا أشياء جديدة، كان أول ما وقعت عيناها عليه هو ستة رجال عُميان يقود بعضهم بعضًا، ويتشبَّثون بالعصا، أدركتْ على الفور أنَّهم العميان في لوحة بيتر بروغل الأكبر، ثم نظرت إلى منتصف القاعة، كانت

---

* نسبة إلى الفيلسوف الألماني نيتشه.

مكتظة بالعديد من الشخصيـات، حاولت أن تستوضحهم وتخمّن من يكون كل منهم لكن الفضول واللهفة جعلاها تنتقل ببصرها بسرعة دون أن تُعطي نفسهـا فرصة التفكير والتذكّر، لمحت مـن بينهم (دون كيخوته)، وبجواره رجلٌ سمين يأكل من الحلوى التي قُدِّمت له وهو يتحدَّث مع (دون)، فخمَّنت أنَّه صديقه (سانشو).

شعـرت بكتـف اصطـدم بكتفهـا فالتفتت، كانـت امرأة قـد عبرت من جوارهـا بشعـر أحمـر ووقفـت معتذرة، كانـت تلبـس فستانًا علـى الطراز الفيكتـوري وتضعُ قبعة، فخمَّنت أنَّهـا آن شيرلي*، فأومأت لها لتُحييها وهي تقول: لا بأس.

لقد نسيـت الآن اللوحة الملعونة تمامًا، والسبـب والطريقة التي دفعتها لتجـد نفسها في هـذا العالم، ما يهمها الآن رؤيتهـا لجميع أبطال الروايات واللوحـات أمامهـا كأرواح حية خـارج النص وخارج الكتب وخـارج الأطر؛ حيث يمكنها أن تُعبِّر عن ذواتها كما تشاء، لا كما يُريد كتَّابها ومبدعوها!

لوهلـة أقلقها سؤال لم تفكِّر فيه من قبل، هل حقًّا كانت تُمارس سلطتها مع شخصيات رواياتها؟! هل كانت تتحكمُ فيهم كما تريدُ؟!

لـم يكن هذا صحيحًـا ألبتة، في كثيـر من الأحيان كانـت الشخصيات تُغيِّـر النهايات وتتمرَّدُ عليها وتُعاكـس اتجاهاتها، وهي كانت سعيدة بذلك، وكانت تشعر بأنَّ هذه المساحة الممنوحة لهم من أجل التمرُّد هي المساحةُ اللازمـة لنُضجهـم وانفصالهـم عنها، فـإن كانت شخصيـات أبطالنا في حقيقتهـا وعلى جميع تناقضاتها لا تُعبِّر بداية إلا عنَّا، إلا أنَّها في مرحلة ما حينمـا تُكتب تنفصل عنَّا تدريجيًّا وتُصبح لـذوات أخرى، الأمر إلى حد ما يُشبه ولادة طفل تكوَّن في أعماقك ثم خرج ليكون ذاتًا منفصلة عنك ولكنَّه في الوقت نفسه جُزء منك.

* آن شيرلي: بطلة رواية (آن في المرتفعات الخضراء) للمؤلف الكندي مونتجومري.

أجبرهـا مرور رأس صغير من جوارهـا على النظر إليـه، كان قد عَبَر مـن جوارها صبي ذو شعر أشقر، ولحقـه صبي أسمر الوجه وشعره مُجعد، خمَّنت أنهما (توم سوير) وصديقه (هاكلبيري فين)*، تأكَّدت عندما سقط الأسمـر على الأرض وشدَّ غطاء إحدى الطاولات ليسقط كل ما عليها أرضًا ويُحـدث وقع الزجاج وتكسره صوتًا أجبر الجميع على الالتفات ناحيته، على الفـور وقف هاكلبيري معتدلًا واندفع نحـوه توم ليُمسك يده ثم فرا هاربين، بينمـا دوت صيحة غاضبة متوعـدة تنادي باسمهما، في تلـك اللحظة كان كينت قد وضع كفه على كتفها فالتفتت إليه وتنبَّهت أنَّها ابتعدت عنهما دون أن تشعـر، فاعتذرت علـى الفور وهي توجِّه نظرها إلـى الأمير لكنَّه لم يكن ينظر إليها، كان يُحرك عينيه في كل اتجاه حوله كأنَّه مبصر!

تحدَّث كينت: لا تبتعد عنَّا، أرجوك.

دفعهـا للعـودة وفي أثناء عبوره مدَّ يده ليلتقط حلـوى من الصينية التي يحملهـا صبي وقف أمامهما، نـاول الأمير القطعة الأولـى أولًا، ثم أعطاها قطعـة أخـرى، وأخذ له قطعـة وراح يلوكها بسرعة، سألته: تـرى أين إيفان بتروفيتش؟ ألا يفترض أن يُوقع الكتاب الآن؟!

لـم يجبها؛ لأنه في تلك اللحظة بدأت الفرقـة الموسيقية بالعزف، وفي منتصـف القاعـة وقف رجل عجوز وبجواره شاب، بـدأ يرقص معه، خمَّنت من حركاته والإيقاع أنَّه زوربا اليوناني والرئيس.

بل تأكدت عندما لاحظت عين زوربا التي كانت تلاحق النساء.

تمتمت ساخرة: زوربا، هو زوربا!

ثم نظرت في قطعة الحلوى بين يديها، ووضعتها في فمها فذابت سريعًا كقطعـة سكر، فسـال لعابها، واشتهت تناول المزيد منهـا، فأطلقت عينيها باحثـة عن الصواني وأصحابها، لكنَّها فوجئـت بواحدة رُفِعت أمام عينيها، كان الأمير يُقرِّبها منها ويقول: أتريدها؟!

---

* (توم سوير) و(هاكلبيري فين) من شخصيات وأبطال الروائي مارك توين.

همَّت بأخذها لكنّها شعرت بالحرج فسألت: ألا تريدها؟ إنَّها لذيذة، جرِّبها.

هزَّ رأسه نافيًا، فالتقطتها دون تردد، هذه المرة، وقذفتها في فمها ثم علَّقت: لذيذة.

ثم أطلقت عينيها مجددًا، وفي تلك اللحظة لمحت دوريان جراي من بعيد وهو مقبل نحوهم، فأمسكت ذراع الأمير دون أن تستوعب لماذا فعلت ذلك، إذ بدا لها الأمر كأنَّها تحتمي به! استنكر الأمير فعلها وشعر بخوفها ولم تمنحه فرصة للسؤال، انحنت عليه وهمست: إنَّه الأمير دوريان يقترب منَّا.

لاحظت امرأة واقفة تراقبه وبجوارها رجل لم تعرفه، خمَّنت أنَّ المرأة لا بد أن تكون والدته؛ فلم يكن جمالها يختلف كثيرًا عن جماله، ما عدا أن شعرها المرفوع للأعلى والمكوَّر لم يكن متناسقًا مع مظهرها الملائكي.

اقترب دوريان حتى أصبح ماثلًا أمام الأمير، صافح كينت وحياه ثم صافح الأمير وهو يقول: أرى أنكَ بخير.

ثم وجَّه نظره نحوها ليتفحصها؛ فارتجَّ كيانها وصرفت وجهها كأنَّها لم تعِ وجوده، ومع ذلك عرفها على الفور وعلَّق مستنكرًا: وأحضرته معكَ؟!

ثم لوى فمه متهكِّمًا وهو يوجِّه أنظاره إلى الأمير وأردف: ألن تكف عن ثقتك هذه بالغرباء؟!

تجاهله أريان: وكتَّف ذراعيه واتكأ على الجدار، في حين برقت عينا كينت بغيظ حاول أن يُخفيه دون فائدة، وكأنَّ الإهانة وجِّهت إليه.

توقف العزف في تلك اللحظة وأُطفئت أضواء القاعة ثم انفتح كشاف حول المنصة التي جلس عليها نجم حفلة اليوم، السيد إيفان بتروفيتش الذي رَحَّب بالجميع وأعلن بدء حفل التوقيع أخيرًا، وبدأ المدعوّون التوجُّه نحوه، رمقها دوريان مرة أخرى قبل أن يستدير، فارتجف قلبها هلعًا، ومن

دون أن تُـدرك كانت قد شدَّت على ذراع الأمير أكثر فالتفت إليها وسأل: ما بك؟!

أرسلت ذراعه بتوتر وهي تُجيبه: لا شيء، لا شيء مطلقًا.

ثم نظرت نحو المنصة وقالت: ألن نذهب؟ إنَّني أتوق لقراءة عمله.

أجاب كينت وهو يُمسك كف الأمير ويتقدم: بلى.

فتبعتهمـا وشاهدت راسكولينكوف وهو يتحدَّثُ مـع إيفان أثناء توقيعه، فرغبت في الحديث معه لكن الزحام حال دون ذلك.

كان الفضـول يدفعها لمعرفة كل من حولهـا، استدارت خلفها وشاهدت رجـلًا قصيـرًا يشدُّ معطفـه إليه بقـوة خشيـة أن يَفقده، خمَّنـت أنَّه بطل غوغول*، فراحت تنظر إلى معطفه بفضول، فأثار ذلك شكوكه واضطرابه، وشدَّ إليه معطفه، فأدركـت أنَّها أزعجته بنظراتها، فاعتذرت وراحت تنظر إلى الأمـام، استطاعت أن تلمـح الموناليزا، فأشاحـت وجهها ونظرت إلى ظهـر الأمير، وفجأة شعـرت بنفس الشعور المربك الذي شعرت به أول مرة رأتـه فيهـا، شعور يدفع قلبهـا إلى النبضـ بفوضى، لا خوفًـا ولا حبًّا ولكن لشـيء ما تجهله، حـرَّك رقبته قليلًا وانحنى ليُحـدِّث كينت، فوضعت يدها فـوق صدرها، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم عـادت تنظر إليه، ثم مالت برقبتها رغبة في مشاهدة عينيه، لا تدري ما الذي دفعها لذلك حينئذ؟!

كانـت تريـد أن تنظـر إلـى عينيـه وحسـب، وتفكِّـر لمـاذا حتـى هذه اللحظـة لم تعرفـه؟! أيكون واحدًا من أبطال الروايـات التي لم تقرأها بعد يا ترى؟!

لم تشعر برأسها وقد مال حتى كاد يصطدم بكتف كينت الذي كان يقف بجـواره، إلا عندما انتبه لذلك؛ فأبعد كتفه وهـو يستدير نحوها مستفسرًا: ماذا؟!

---

* إشارة إلى بطل رواية (المعطف) للأديب الروسي غوغول.

بدا عليها الاضطراب، وفي تلك اللحظة كان إيفان بتروفيتش قد صرف كينت عنها بصياحه المبتهج: سيدي الأمير، ثم حنى جذعه من خلف المكتب ليُعانقه، وأحدثَ ضجة صاخبة بترحيبه، ثم صافح كينت، وتوقف أمامها لحظة قبل أن يُعرِّف بها الأمير: إنَّه صديقي هاملت.

مدَّت يدها مصافحة وهي تقول: سررت بمقابلتك سيد إيفان، وكم يسرني قراءة عملك.

تبسَّط لها وناولها كتابه، فأردفت قائلة: لا بد أنكَ سعيدٌ الآن وأنتَ تراه بين يديك؟

وأتمَّت في أعماقها: إنني أعرفُ هذا الشعور جيدًا.

فوجئت بإجابته: في الواقع كنتُ أعتقد وما زلت أؤمن بـ "أنَّ التفكير فيما سأكتبه كان دائمًا أحبَّ إلى نفسي من كتابته، صدقني: إنَّ ذلك لا يرجع إلى الكسل ولكني لا أدري له سببًا"*.

وافقه الأمير واستدرك: هذا طبيعي، فنحنُ أبناء أفكارنا، إنَّ فكرة ما بإمكانها أنْ تجعلنا سعداء، وفكرة أخرى بإمكانها أنْ تجعلنا أشقياء؛ ربما لذلك: الفكرةُ تملك سحرًا أكبر وهي في عقولنا قبل أن نكتبها.

قال كلمته: " بإمكانها أن تجعلنا أشقياء" وهو يوجِّه نظره ناحيتها، فشعرت بأنَّه يقصدها بحديثه هذا؛ فابتسمت بارتباك، لقد استدعت كلماته تلك شعورًا لم ترغب في استدعائه، تذكرت أنَّها كانت تلعنُ التفكير، وفي الوقت نفسه لم تكن قادرة على نكران حقيقة أنَّ التفكير كما أغرقها في مرات كثيرة فإنَّه هو بذاته قد ساعدها على النهوض مجددًا، إنَّ الأميرَ محقٌّ فيما قاله، لكنَّها قد اعتادت أن تقف على الطرف دومًا، نظرت إلى الغلاف وقرأت العنوان: (الجمال).

رفعت عينيها لتتابع ما يحدث، كان كينت والأمير يتحدثان ويضحكان معه، فانزوت قليلًا عنهما وراحت تفكِّر فيما قاله، عليها أن تعترف الآن هي

---

* من كلمات البطل إيفان في رواية (مذلون مهانون) للأديب الروسي دوستويفسكي.

الأخــرى: إنَّ التفكير في رواياتها كان يمنحها شعورًا بالسعادة، وأنَّ نكرانها لذلك ما هو إلا جحود.

تنهَّـدت وهــي تُشيح وجههــا، فوقعت عيناهــا على أرنب يُمسـك ساعة! شَخَصـ بصرها وخمَّنت أنَّــه أرنب أليس؛ فاشتعل فضولهــا وراحت تتبعه، ولــم تكن تُدرك أنَّها خرجت من القاعة إلا بعدما وجدت نفسها في الخارج، فتلفتت يمينًا ويسارًا بحثًا عنه، لكنَّه اختفى!

تقدَّمــت قليــلًا واستوحشت المــكان، وكرهت أن تكـون وحيدة ومحاطة بهــذا الكـمِّ من الأشجار والعتمــة، فأسرعت عائدة إلــى البوابة، ثم توقفت فجأة عندمــا لمحت من بعيد الأمير دوريان واقفًــا تحت شجرة من أشجار البرتقــال، وأغصانهــا المثمــرة كانت قد تدلَّــت عليه كأنَّهــا تواسيه! وكان بجــواره إيجــاو- الذي لم تعرفــه - يُحدِّثه، كانت تُراقبهمــا من خلف سياج من الأشجار فلم تسمع ما يقولانه، ولا تدري ما الذي دفعها للاقتراب منهما أكثر على الرغم من شعور الخوف والنفور، لم تمضِ دقائق حتى غادر الرجل وظلَّ دوريان واقفًا وحيدًا، رفع عينيه لينظر للأغصان المتدلية بينما تدلَّت دمعةٌ عبرت خده، شاهدتها بوضوح فاستنكرتها!

ومن دون أن تدرك لمست غصنًا من السياج فأحدث صوتًا؛ جعل الأمير دوريان يلتفت ناحيته صائحًا: من هناك؟

لمح رأسها الذي خفضته على الفور وهي تستدير محاولة إخفاء نفسها، وعندما شعرت بخطواته تقترب منها ضاع أملها، فوقفت كاشفة عن نفسها، لاحظـت طيف ابتسامة ساخرة على شفتيــه على الرغم من تعجُّبه لرؤيتها، تقدم خطوة وسأل: أنت؟!

دنا أكثر وأردف: هل بعثكَ الأميرُ لتتجسَّس عليَّ؟!

لم تتوقع أن يذهب إلى هذا الحد، فاضطربت وأنكرت برأسها ثم تريثت قليلًا قبل أن تقول: لم يبعثني أحد، لقد تبعتك من تلقاء نفسي.

لم يصدق ورمقها بريبة وسأل: ولماذا فعلت ذلك؟!

حارت بماذا تجيب، وزوت عينيها، وأجابته بعد تردد: هكذا فقط.

اقترب منَّهــا أكثر حتى أصبــح أمامها، فنظرت إليه، عينــاه الواسعتان والمائلتــان لأسفــل قليــلاً، ملامحــه الفاتنة التــي تجعل كل من يــراه يقف منبهــرًا، كل ذلــك ملأ قلبها رعبًــا ونفورًا أكثر، إنَّه جمــال مرعب -إن كان هنالك حقًّا نوع من الجمال على هذا النحو- كانت نبضات قلبها المضطربة والخائفــة تلحُّ عليها بالابتعاد، فتحركت ساقهــا خطوة إلى الوراء بينما كان هــو لا يزال يتابعها بنظراته حتــى نطق أخيرًا: أتساءل، لمــاذا أبقاكَ حتى اليوم عنده؟! إنَّه لم يفعل ذلك من قبل، صحيح أنَّه يساعد الجميع، ولكنَّه لا يبقيهم عنده! ناهيك أن يَصحبهم معه!

شعــرت بأنَّها غير قادرة على الاحتفاظ بثبــات جوارحها، وفؤادها يكاد يفضحهــا ويفــرُّ هربًا، ومع ذلــك قاومت وهمَّــت أن تُجيبــه، ولكنَّها تريثت وتوضَّحتــه بجرأة أذهلته، ثم فرَّ منها ســؤالٌ استنكرته: لماذا تعتقد أنَّ ثقة الأمير أريان بالناس خاطئة؟!

تبسَّم بسخرية وردَّ عليها بسؤال: ولماذا تهتمُ لأمره؟!

زوت عينيهــا دون أن تجيبه، فهي لم تفكر في ذلك من قبل، ولم يمنحها الفرصــة لذلــك؛ إذ سرعان ما أردف: أعجبُ مــن قدرته العجيبة على خلق الأوفياء له بمجرد مقابلتهم فقط!

لــوى شفتيه عابسًا واستكمل حديثه: وهو يظنّ أنَّه يكسب الجميع بذلك، وهذا محال في الحياة وفي السياسة أيضًا، لذا هو لا يصلح لشيء.

هــمَّ أن يستدير لكنَّه عاد لينظر إليها بعــد أن فاجأته باعتراضها: وهل تعتقــد أنَّ خلــق الأعــداء إذن هو الصــواب؟! لقــد اتخذْتَني عــدوًّا وأمرت بإعدامي دون تثبُّت أو دراية!

تريث قبل أن يجيبها: قد لا يكون هذا صحيحًا تمامًا، ولكن خلق الأعداء هــو وسيلة لإبقائــك قويًّا في نظر شعبك على الأقــل، أو حتى لإبقاء وجودك

حيًّـا، انظـر إلـى دون كيخوتـه مثلًا! هـل كان سيكـون له وجود لـولا حربه للطواحين؟!

ثـم استدار مغادرًا، لكنَّـه توقف مجددًا عندما عارضتـه للمرة الثانية: أنت مخطئ؛ دون كيخوته كان يملكُ هدفًا نبيلًا ولم يكن يسعى لإبراز نفسه، كما تصورّت.

ابتلعـت ريقها الذي شعرت بجفافه فجأة ثـم تابعت موضِّحة: لم أعرف الأمير جيدًا بعد، وقد يكون لا يقدِّر الأمور بطريقة صحيحة؛ لثقته المفرطة فـي الجميع، كما ذكـرت، بينما البشر في الواقع يختلفـون ويتصرفون وفق اختلافهـم لا وفق مبادئهم ولا يستحقون هذه الثقة، ولكنكَ أيضًا في نظري مخطئ؛ ففي حين يعيش الأمير بما يُمليه عليه ضميره، يعيش متصالحًا مع روحـه، بينما تعيش أنتَ وفق ما يُمليه عليك هواك، وهذا سيجعلك في حالة توتر دائم وعراك مع روحك. مهما حاولت أن تُقنعني وتظاهرت باللامبالاة، أنتَ في حالة صراع مع روحك.

لاحظـت أنَّه أدار عنقه قليلًا ناحيتهـا فأكملت: وأنت، أنتَ خاصة تُدرك أنَّ الروحَ هي من ينتصر في النهاية.

أمسكـت عن الكلام؛ ولامت نفسها، وهـي تشاهده يعود إليها بوجه أكثر صرامـة مـن ذي قبل: ما الـذي تفوَّهت به؟! إنني أشعـر بالخوف منه، ومع ذلك ما الذي جعلني أقول له كل هذا وبكل هذه الثقة؟! ثم ربما دوريان هذا لا يُشبه دوريان أوسكار، لماذا لم أتعلم حتى هذه اللحظة؟!

أمعن النظر في عينيها لحظات بدت لها طويلة جدًّا. كابدت خلالها في التظاهـر بالثبات واللامبالاة قبل أن يقـول: الآن فقط عرفت لماذا انتابني هذا الشعور الغريب حينما رأيتك؛ ليس فقط لأنكِ امرأة بهيئة رجل...

شحـب وجهها مـن أثر الصدمـة، بينما تابـع الأمير دوريـان: بل لأنكِ تُشبهيننـي إلـى حد ما، قد يبـدو هذا غريبًا ولكنَّه يُفسـر حديثي معك دون اكتراث: لأنني في العادة لا أجيب ولا أتحدث مع أمثالك أصلًا.

نطق الكلمة الأخيرة وقد رفع حاجبه يختزل احتقارًا، ثم تابع موضِّحًا: أنتِ تشبهينني؛ لأن كِلَيْنا يملكُ رغبة خفية في التخلص من وطأة روحه عليه، وكلٌّ منا يملك رغبة خفية في التخلص من الأمير أيضًا.

أبدت كل جوارحها الرفض والإنكار لكنَّه أتمَّ: لا يُمكنك إنكار ذلك والتظاهر بعكسه، فكما أمكنني معرفة أن خلف هذا الوجه المضحك روح امرأة فضولية من خلال النظر في عينيك فقط، يُمكنني أن أقرأ رغبتك هذه في عينيك أيضًا. الشياطين تعرفُ بعضها كما أعتقد.

غمزها بعينه وهو يقول جملته الأخيرة، ثم استدار مغادرًا، بينما ظلَّت واقفة مكانها تتابعه وهو يغادر بنظرات واجفة، ثم استفزتها غمزته فتمتمت غضبًا: مَن التي نعتها بالشيطان للتو؟! هو الشيطان، ما أشدَّ غروره!

الشياطين تعرف بعضها هه؟! بل لأنه شيطان يرى الجميع كذلك.

شعرت بشيء حجب رؤيتها لبرهة ولفَّها سواد مظلم، وشعرت بيديها تغرقان، وفجأة لمحت الأمير كبقعة من ضوء فمدَّت يدها لتُمسكه، ثم بعد لحظات شعرت بالظلمة تنجلي وشاهدت أمامها كينت وهو ممسك مفصل يدها، وبجواره يقف الأميرُ وعلى محياهما القلق، سأل كينت: ما الذي يحدثُ معك؟! ألم تشاهدنا ونحن مقبلان إليك؟!

نظرت إلى يده التي تمسك معصمها، فأزاحتها بلطف وهي تُجيب: بلى، ولكن...

عاتبها الأمير: أين اختفيت فجأة؟ ألم أخبرك بأن تبقى بجانبي؟!

اعتذرت لهما، فعلَّق كينت: سنعود الآن، لا بأس عليك.

فتبعتهما، لكنَّها توقفت فجأة ونظرت إلى الخلف؛ إلى الشرفة المطلَّة عليهم؛ لقد سمعت لحن ناي ينبعث منها فجأة، وشاهدت شخصًا واقفًا ممسكًا بالناي، وبسبب الظلام لم تتمكن من رؤيته وتحديد ملامحه، لكن اللحن كان قادرًا على استدعاء شعور بالحنين إلى تلك الطفلة التي تسكن أعماقها، فظلَّت واقفة مكانها مشدوهة تشعر باللحن وقد اختلط بقلبها

وأيقظَ في أعماقها عاطفة حزينة، ولم تنتبه إلى أنهما قد سبقاها إلا حينما نادى عليها كينت، فأسرعت راكضة لتلحق بهما.

وعندما وصلوا إلى العربة وتجهز الحوذي، أقبل رجل قاصدًا كينت وأعطاه ورقة، فقرأها على عجل، وانقبضت معارفه، فاقترب من الأمير وقال معتذرًا: سيدي، أعتذر؛ لا يُمكنني العودة معك، يبدو أن والدتي ليست بخير.

طمأنه الأمير قائلًا: لا بأس، لا تقلق، ستكون بخير.

أومأ موافقًا، ثم وجَّه نظره إلى الكاتبة، وربَّت على كتفها مُوصيًا: أعتمد عليك، لكنه أردف فور أن شاهدها ترمقه بنظرات خرساء: ليس كثيرًا.

ثم اتجَّه إلى الحوذي يُحدِّثه، بينما صعدت هي والأمير إلى العربة التي تحركت عائدة إلى القصر، وفي الطريق نظرت إلى الكتاب بين يديها واقترحت: أتودُّ أن أقرأ الرواية لكَ، اليوم؟!

وجدها فرصة للنيل منها فأجاب ساخرًا: لا أريد أن أكرهها.

فضحكت ثم علَّقت: كفَّ عن هذا، أتعتقدُ أنَّها جميلة؟! عن نفسي أظن ذلك.

لم يجبها على الفور، وأزاح الستار عن النافذة، واتكأ عليها ثم أجاب: أيوجد أصلًا في الأدب ما هو جميل وقبيح؟!

تنبَّهت معارفها، فتابع موضِّحًا: فكِّر جيدًا، في كل ما قرأته وشاهدته أو سمعته، أيُمكنك أن تصفَ كل ما أحببته بالجميل، وكل ما لم تُحبه بالقبيح؟! في الواقع لا يُمكنك ذلك؛ في الفن والأدب لا يوجد ما هو جميل وقبيح، بل يوجد ما هو صادق يُحرِّك مشاعرك ويُحْيي الإنسان فيك، كما يوجد ما هو زائف لا يُحرِّك فيك شيئًا. ألا تعتقد ذلك؟!

تأنَّت مفكرة قبل أن تجيبه: أنتَ محق، لم أحب رواية (العمى) ولكن لم يكن بوسعي وصفها بالقبيحة أو السيئة وهي قد كشفت عن عورات الإنسان ومدى ضعفه، ولم أكن قادرة يومًا على تقبُّل لوحة بيكاسو (غرينكا)

ووصفها بالجميلة لكن ثمة ما جعلني لا أستطيعُ تجاوزها، إنَّه صِدْقُها كما قلت، إنَّ كثيرًا من الأعمالِ تعجُّ بالألم ولم يَخلقها سوى الألم، لذلك لا يمكننا أن نصفها بالجميلة، بل بالصدق. كيف لم أفكر في هذا من قبل؟!

لم تنطق الكلمة الأخيرة جيدًا؛ لقد اهتزَّت العربة بشدة لحظتها، فتأرجحت، ومن قوة الدفع شعرت بجسدها وهو يهوي ولم تستوعب أين أصبحت إلا بعد أن وجدت رأسها يرتطم بالكرسي بين ركبتي الأمير، كان متشبثًا بقوة على الكرسي، وهو يسأل: ما الذي يحدث؟!

حاولت أن تنهض، فاصطدمت به مجددًا وهوت عليه، تمسَّكت بكتفه لتثبِّت نفسها، وباليد الأخرى تمسَّكت بالنافذة. وصاحت منفعلة: ما الذي يحدث؟! لماذا تندفع العربة بهذا الجنون؟!

بعد لحظات قليلة كانت الهزَّات قد هدأت لكن العربة ما زالت تسير بسرعة جنونية، لاحظت من خلال النافذة أنَّها تسير داخل غابة من الأشجار!

أخبرت الأمير بذلك على الفور، ثم حاولت أن تُخرج رأسها لتنظر من النافذة فلم تستطع، عادت لتجلس وتسأله: ما الذي يحدث؟ ما الذي أصاب الحوذي؟! هل أصيب بالجنون فجأة؟!

أجابها الأمير إجابة تكشف عمَّا يعتمل في صدره من شكوك: هذا إن كان هو.

أرتج عليها وانعقد لسانها، فتناول الأمير كفها وأتبع موضِّحًا: يبدو أنَّ العربة قد اختطفت.

كررت مستفهمة: اختطفت!

أشار إليها بالصمت وقال: يجبُ أن نقفز، إن توقفت العربة وأُمسك بنا، أخشى أن نُقتل، لا يمكنني التفكير في شيء آخر الآن، يجبُ أن نقفز فقط.

اقتـرب من الباب بحذر فقالت لتمنعه: أنتَ تمزح، صحيح؟! أتدرك أننا لـو قفزنا مـن هنا فإنَّنا سنتحطم، وربما نصبح أشـلاءً، حتى قبل أن نصل إلى الأرض؟! وربما نرتطم بشجرة فـ...

اصمت.

قـال ذلك وهو يُحكـم قبضته على يدها، ثم نهض، وفتح الباب وصاح: اقفز.

أغمضـت عينيهـا استجابـة له وقفـزت، ظلَّ ممسـكًا يدها ثـم شعرت بهـا تنفصل عنـه، وبجسدها يرتطم بالأرض، وبأشياء أخـرى لم تستطع تخمينهـا، ثم شعرت بجسدها وهو يتدحرج، ومـا إن شعرت به يستقر حتى فتحـت عينيها بحثًا عن الأمير، تمكَّنت من النهوض لكنَّ الجروح التي نالت من كل جزء من جسدها أبطأت حركتها، استوحشت المكان فصاحت خوفًا وقلقًا: أريان؟ أين أنت؟

سمـع صوتها لكنَّه لـم يستطـع أن يُجيبها على الفـور، كان قد اصطدم بغصن شجرة على الأرض حجبته عنها، حاول أن ينهض، وفي تلك اللحظة سمعـت صـوت الحشائش فأبصرتـه، قصدته ومالت عليـه، كان قد اعتدل جالسًـا، وشعر بوخز وألم فـي ساقه، تلمَّسها فوجـد غصنًا قد انتصب في منتصـف فخذه، أرهبها عمـق الجرح وكمية الدماء النازفـة منه، فوضعت يدها على فمها. وعندما أمسك الأمير الغصن بيده لينزعه حالت دون ذلك قائلة: مهلًا، ستنزف أكثر إن أخرجته.

رفضـ نصيحتها، وأحكم قبضته ثم سحبه بكل ما بقي من قوته محاولًا إخفـاء توجُّعـه، لكنّ أنَّة فرَّت منـه كانت قادرة على إخـلال فؤادها وإبطال فكرهـا، فشرعت تحاول إيقاف النزيف بيديهـا المتسختين، وما إن تنبَّهت لذلك حتى رفعتهما وراحت تعتذر وتمسحهما بثيابها الملوثة أيضًا وصاحت مستاءة تلوم نفسها: ما الذي أفعله؟! قد زدتُ الأمر سوءًا!

ضغـط الأمير على جرحه محاولًا إيقاف النزيـف، وقال لها مطمئنًا: لا تخف، أنا بخير.

لكـن حديثه لم يزدها إلا لومًا لروحها وقلقًـا عليه فعلّقت: حقًّا لا فائدة تُرجى مني.

ثـم همَّت بوضع قميصها، ولكنَّهـا توقفت وغمرها الخجل لحظة؛ فيبدو أنهـا تقمَّصـت دور هاملت إلى درجـة نسيت معها نفسهـا، عدلت عن ذلك ورفعت أطراف قميصها الداخلـي وشرعت بتمزيقه، تمكَّنت من نزع قطعة منه تكفي لتلفَّها على الجرح ثم مالت عليه وقالت: سأربطها لك.

ثم شرعـت بذلك وراحت تقول: إنني بليد في مثـل هذه المواقف، يرتج علـيّ فلا أفقه شيئًا؛ حتـى عندما ينقطع إصبعي بفعـل سكين فاكهة فإنني أبالغ...

أخرسها الأمير مشيرًا لها بالصمت وقد تيقظت كل جوارحه وهو يهمس قائلًا: أتسمع؟!

أرخـت السمـاع لأذنها، فتمكَّنـت من سمـاع وقع خطوات علـى الأرض فشحب وجهها فزعًا، وهمَّت أن تتحرك وهي تهمس: لنختبئ.

لكنَّ الأمير أوقفها وقال: أربعة!

ثـم أحكم قبضته علـى كفها وهو يُردف: لا يفيد الاختباء الآن، إنَّهم هنا بالفعل.

مـا إن نطقها حتى أبصرتهم. كانوا أربعـة رجال مُشهرين سيوفهم وقد أخفـوا وجوههم باللثـام، وأسفرت أعينهم عن طوايا لـؤم، فوجئت بالأمير يمـدُّ يـده ويلتقطُ غصـن شجرة ثم نهض مشهرًا سيفه بيـده الأخرى وهو يتمتم: اختبئ بسرعة.

ارتجفت شفتاها معترضة: لا تقل...

أجابها: ولماذا أحمل سيفًا إذن؟!

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم تتمكن من رؤية وجهه الشاحب شحوب الموتى قبل أن يندفع ويشتبك معهم، أحاطت رأسها بيديها، وأغمضت عينيها. كان قلبها يرفُّ مرتعشًا كلما التحم سيفان، ولم تمضِ لحظات حتى شعرت فجأة بماء حار ولزج صفع يدها وجزءًا من جفنها ففتحت عينيها لتدرك الخبر؛ فشاهدت أحدهم وهو يسقطُ بجوارها ملطخًا بالدماء. فصرخت ثم تراجعت إلى الخلف حاملة نفسها بذراعيها ثم نظرت بحثًا عن الأمير. كان محاطًا بالثلاثة الباقين، لم تستطع النظر أكثر وأغمضت عينيها وهمَّت أن تتابع التراجع لأبعد نقطة ممكنة، لكن ذراعيها لم تستجيبا. كان صوتٌ من أعماقها يُخبرها: أن لا فائدة؛ ففي أية لحظة سيضربها أحدهم، لكنَّ ثمة صوتًا آخر حطَّم ظلمة اليأس وصاح مناديًا: "هاملت"، ففتحت عينيها. ووجدت الأمير يتلفَّت حوله وهو يكرر النداء عليها. ووجدت الرجل الأخير قد أصيب وسقط يتلوَّى على الأرض. ولكن لم تلحظ، ولا حتى الأمير، أنَّه عندما هوى صريعًا كان قد جرَّ القلادة من عنق الأمير فانقطعت وسقطت معه. ارتجفت شفتاها وهي تجيبه لكن الصوت لم يتجاوزها، وكانت قد حركت العشب بيدها. فسمعه الأمير وحدد اتجاهها، وعلى الفور أصبح واقفًا أمامها. مدَّ لها كفه وقال بنفس متقطع من الجهد: بسرعة، لنهرب.

أمسكت كفه وشعرت بثقل جسدها كما لم تشعر به من قبل. وبساقيها تصطكان ببعضهما؛ لشدة خوفها، ثم ركضت تتبع الأمير وكانت تنظر إلى الخلف بين الحين والآخر حيثُ سقط الأربعة بسيفه دونما تصديق!

ثم صرفت نظرها إليه وتعجَّبت كيف يَقودها في هذا الظلام ووسط هذه الغابة الموحشة، دون أن يصطدم بأية شجرة كما لو أنَّه مبصر!

شعرت بقبضته تُحكم على كفها، وهو يحثها على الإسراع قائلًا: أسرع، أرجوك.

اتقدت عزيمتها، وزادت من سرعتها ثم سألته أثناء ذلك: أين نحن؟

أجابها وهو يتابع الركض: لا أدري.

كانا في تلك اللحظة قد خرجا إلى بسطة من الأرض خالية من الشجر، وعمَّ ضوء القمر المكان، فتمكَّنت من إبصار بقع الدماء على الأرض، ظننتها من السيف أو من جرح فخذه، ولكن ما إن عرجت بعينيها للأعلى قليلًا حتى علمت أنَّ الدماء كانت تنزف من ظهره مشكّلة خطوطًا طويلة تصل إلى ساقه ثم تسقطُ على الأرض؛ فشدَّته لتُوقفه: فالْتَفَت إليها مستنكرًا: ماذا؟!

دنت منه ثم استدارت خلف ظهره. لكنَّه مال لإعاقتها بقوله: ما الذي تفعله؟!

فازدادت شكوكها في بصره، لكنَّها تجاهلت الأمر. وأجابته: أنتَ مصاب في ظهرك، وإصابتك بالغة!

تبسَّم مضطربًا وهو يُجيبها: لا بأس، إنني بخير.

لكن لم يرق لها ذلك؛ فانفعلت دافعة خوفها ومعبِّرة عن استياءها وقلقها قائلة: لماذا لا تقل إنك لست بخير وحسب؟! لماذا تبتسم بغباء هكذا، بينما من المفترض أن تصرخ وجعًا؟! إنَّني أكره هذه المواقف التي يتظاهر فيها المرء بالقوة وهو في أضعف حالاته! لماذا لا تصرخ وحسب؟!

تريثت لحظة، التقطت خلالها أنفاسها ثم تابعت بصوت أكثر اتزانًا: كما يتوجَّب علينا عيش أفراحنا؛ فعلينا أيضًا أن نعيش أوجاعنا. كونك تبتسم الآن فهذا لا يعني أن الألم قد زال وانتهى! أتعتقد أنَّه عليّ الآن أن أبتسم لك وأطمئن عليكَ! إنني لست أحمق إلى هذا الحد! أم أنك لا تثق بي؟!

كانت تتابع إيماءات وجهه الذي أظلم شيئًا فشيئًا، فأدركت أنَّها قد انفعلت بلا مبرر وأن صوتها كان مرتفعًا! فأحست بسياط الندم تدميها لكن سرعان ما قُبض قلبها وأظلم وجهها وتذكرت أنَّها تفعل ذلك أيضًا حتى أصبحت عادة لديها! أكانت تُخاطب روحها وتلومها أم تلومه؟! لماذا تشعر بأنه يشبهها إلى حد كبير؟! لماذا يلح عليها هذا الشعور؟!

بعد طول صمت استدار وقال بنبرة هادئة: ليس هذا وقته، لنختبئ أولًا، أخشى أنَّهم أكثر عددًا مما نتوقعه.

لحقتـه ببطء مصوِّبة نظراتها إلى الجـرح وقد غمرها الخجل والغضب والعجز ثم سألت: مَن يكونون؟ من أرسلهم؟

توقف وزمَّ شفتيه بألم قبل أن يُجيبها: لا أعلم.

ثم جحظت عيناه فجأة بعد أن شعر بتحرر عنقه من القلادة؛ فوضع يده على صدره بحثًا عنها فأدرك أنه فقدها أثناء القتال.

لـم تنتبه لذعره المفاجـئ، لكنها أحست بالألم فـي صوته، فدنت منه، وفوجـئ بها وهي تُمسك كفه وتشـدُّ عليها معتذرة: آسف؛ لأنني صرختُ في وجهك قبل قليل.

ثـم مشت وقادته نحو الأشجار، ثم جدَّت فـي سيرها، لكنَّها توقفت بعد أن شعـرت بكفـه ترتخي حتـى كادت تنسل من بين أصابعهـا، فالتفتت إليه لتطمئن على صحته، وإذا به قد وقف يُحدق إليها بنظرات مبهمة، فأوجست منه. وغمرها شعور غريب؛ أحست لوهلة بأنَّ عينيه كانتا تبصرانها جيدًا بل تحاصرانهـا وقد حطَّت فيهما نظرات لوم لا يُمكن أن تصدر إلا من شخص يعرف عنك سرًّا لا يعرفه أحد سواه، فأشاحت عينيها هربًا، وإذا بها تسمعه يسأل: أحقًّا أهمَّك ألمي إلى هذا الحد؟!

رمقته مستنكرة، وبالكاد نطقت: ما الذي...

ثـم سكتت إثر شعورٍ بألـم عميق حلَّ بها، شعورٍ بالنـدم، كما لو أنَّها قد اجترحـت خطيئـة وتمَّ هتــكُ سترها، لا تدري لـمَ كان وقع السـؤال عليها مؤلمًـا إلى هذا الحد، ولمَ استدعى هذا الشعـور الغريب، ومع ذلك حاولت أن تتماسك وتتجاهل شعورها وردَّت: مؤكد، من الطبيعي أن...

أمسكـت عـن الكلام للمرة الثانيـة، لقد ألجمتها، هـذه المرة، دموعها التـي طفحـت سريعًـا دون سبب واضح وراحـت تشقُّ طريقها نحـو شفتيها المرتجفتين!

لوى فمه ساخرًا وهو يعلِّق: طبيعي! أحقًّا!

دنا منها وهو يُردف: إذن...

ثم فوجئت به يمرر أصابعه تحت عينيها، فأطرقت رأسها؛ في محاولة يائسة للهرب لكنَّه أتمَّ: لماذا إذن هذه الدموع؟! أتساءل: هل هناك ما يجعلك تشعر بالندم يا ترى؟!

اتسعت عيناها ذاهلة لكنَّها لم تستطع أن تنظر إليه، كان الشعور بالندم قد أحكم قبضته عليها، فاندفعت دموعها مثل الفيضان مصدقة له، وشعرت بساقيها تهمّ بالانحناء!

ثمة شعور قوي يدفعها لتنحني الآن وتطلب مغفرته أو أن تُعانقه وتعلن أسفها، لكن من ماذا؟! ولماذا؟!

أحست بكف الأمير وهي تسقط فجأة، فنظرت ووجدته واقعًا على جنبه، فانحنت صائحة: سيدي الأمير، فلم يجبها؛ كان قد نزف كثيرًا من الدماء وفقد وعيه، هزَّته بفوضى لتوقظه، وتلفَّتت حولها فاقدة الحيلة، قلبته على وجهه وعاينت جرحه، كان ملوثًا ومغطى بالتراب والحجارة الصغيرة، فنفضتها بيديها، ثم توقفت فجأة بعد أن لمحت ضوء مصباح بزغ من بين الأشجار، وظهر طيف لرجل بدين، فأوجست منه خيفة، وعندما اقترب منها ميَّزت ملامحه، كان أضخم ذا شعر مجعَّد، عريض المنكبين يتبين المرء من جسده أنَّه محارب قوي، وجهه الذي انقبض لرؤية الدماء جعل توجسها منه يخفُّ قليلًا، فرمقته بنظرات حائرة عاجزة لم تخفَ عليه وهو يسأل: مَن أنتما؟!

ثم أشار إلى الأمير وأردف: ما الذي أصابه؟!

قرَّب المصباح من وجهه، فعرفه على الفور وصاح مندهشًا: الأمير أريان؟!

ثم انحنى ورفعه بين يديه، وراح يهزُّه بعنف وهو يسألها: ما الذي حدث؟! من فعل به هذا؟!

وعندمــا لم يسمع لها همسًا؛ نظر إليها فوجدها تزمُّ شفتيها بألم لتكتم بكاءهــا، ثــم أفلتت منهــا أنّة ضعيفة لحقتهــا أخريات وأخريــات ثم غطت وجههــا؛ أدركت أن لا فائدة مما تفعلــه وراحت تبكي، أما هو فقد أيقن أن لا فائدة من سؤاله الآن، فحمل الأمير على ظهره، والتقط مصباحه وهو يقول: اتبعني، بيتي قريب.

لحقتــه وهي تحاول أن تتماســك وتتغلَّب على هذا الشعــور بالندم الذي نــاءت أعماقها بحمله حتى نزفت الدموع، لكن كلما وقعت عيناها على جرح ظهره عاد ليؤزَّها ويُجبر عينيها على ذرف المزيد من الدموع، وأخيرًا توقف الرجــل عند باب الكوخ، ودفع الباب بساقه ودخــل، فتبعته في صمت، ووضع الأمير على سرير مركونٍ فــي الزاوية، ثم بسرعة مزَّق قميصه وصبَّ الماء فــي وعاء عميــق وراح يُبلل منشفة ويمســح الجرح، ثم التفــت ناحيتها وهو يقول: سخِّن بعض الماء بسرعة.

كانت سارحة، ولم تنتبه له إلا للتو فأشارت إلى نفسها متسائلة: أنا؟!

عبس وهو يجيب: وهل يوجدُ غيرك؟!

انتفضت بسرعة، وراحــت تصبُّ الماء في وعاء آخر وجدته بجواره، ثم وقفــت تنظر إليه في حيرة فطن لها، فأشار إليها نحو باب الكوخ وهو يقول: أشعل الحطب بالخارج.

استجابــت علــى الفور ووجــدت نفسها واقفــة تنظر إلــى كومة الحطب بحيــرة تامــة؛ فهي لم تفعل هذا من قبــل في حياتهــا! كان زر واحد يكفيها العنــاء ويُشعل النار، ويبــدو أنَّ الرجل قد فطن لقلة نفعهــا، لذا سرعان ما لحقها وهو يحمل وعاء الماء معلِّقًا: كما توقعت!

ثــم التقط الحطــب وراح يُشعــل النــار دون أن يتحدث بكلمــة، وعندما وضــع الوعاء توضَّحها لحظات قبل أن يُشيح بعينيــه ويسأل: ما الذي حدث بالضبط؟! كيف أصيب الأمير هذه الإصابة البالغة؟!

دنت منه وهي تسأل: هل سيكون بخير؟!

شعـر بارتجـاف صوتها، فرمقها لحظـة ووجد القلق ثاويًـا في عينيها، فصرف وجهه وحرَّك الآنية لبعض الوقت ثم أجاب: لنأمل ذلك، سأستدعي طبيبًا من القرية المجاورة.

ثم دقق النظر في عينيها وأردف: هل أعتمد عليك في تنظيف جروحه؟!

أومأت موافقة، فسأل: ما اسمك؟

- هاملت.

- أكنت برفقة الأمير؟!

- نعـم؛ إننـي صديـق له، وقـد صحبتـه إلى حفلـة توقيع كتـاب السيد بتروفيتش، ثم اختُطفت عربتنا فجـأة، وحاصَرَنا رجـال أربعة، وحدث ما حدث.

تيقظت معارفه وسأل: أتعرفهم؟! أعني الرجال.

نفـت، فعلَّق وهو ينفض يديه وينهضُ: لا بأس، سنبحثُ في ذلك لاحقًا، سأذهب الآن.

وما إن استدار، حتى سألته: من أنت؟! وكيف عرفت الأمير؟!

تبسَّم بسخرية متألمة وهو يجيبها: وكيف لا أعرفه؟! لقد عشتُ بالقصر مدة طويلة، لكن الملك لير نفاني.

ازداد اتساع بسمته وهو يُردف: أتعرف لماذا نفيت؟!

اعتراه تردد ثم قال: ولماذا أخبرك أصلًا ولكن ...

استدار مغادرًا وهو يتمُّ: ثق بأن النفي مصير كل من لا يُجيد النفاق.

لكنَّها أوقفته مرة أخرى بسؤالها: أخبرني مَن تكون إذن؟!

التفـت إليها مرة أخرى وأجاب: حسنًـا، "أنا شخص أحب بعمق لكنَّه لم يكن حكيمًا بما يكفي ليحافظ على هذا الحب"*.

ثـم أسرع وأسرج حصانه وانطلق نحو القريـة، بينما ظلَّت تراقب الماء وهي تحاول أن تتذكر أين قرأت هذا الكلام من قبل، وعندما بدأ الماء يغلي

* من كلمات (عطيل) بطل من أبطال شكسبير في مسرحية (عطيل).

حملت الإناء وعادت إلى الكوخ، لمحت صدر الأمير وهو يرتفع وينخفض بوضوح تام؛ فأسرعت إليه ووضعت الإناء جانبًا، عاينته فوجدته متعرِّقًا بشدة وقد استعاد وعيه، وضعت كفها على جبينه فهالها ارتفاع حرارته، حاولت أن تلفت انتباهه فسألته: أأنتَ بخير؟ أتسمعني؟ أيمكنكُ أن تسمعني؟!

لم تسمع سوى أنين صدره، فغمَّ عليها ولفَّها اليأس، ورمت جسدها المرهق على الكرسي الذي بجواره وأسندت ذراعها إلى طرف السرير وغطت عينيها، ولم تمض لحظات حتى سمعت صوتًا خفيضًا يقول: لا تغمض عينيك، فتنبَّهت إليه ووجدته ينظر إليها مائل الرأس ثم تحدَّث بمشقة: إن أغمَضتَ عينيك فهذا لا يعني أنَّك لن ترى، وإن فتحتهما فهذا لا يعني أنَّك بالضرورة سوف ترى. عليكَ أن تفهم هذا، هاملت!

ثم تحرك جفناه بشدَّة قبل أن يميل رأسه أكثر ويفقد وعيه مجددًا، انتفضت واقفة وهزَّته دون جدوى، وظنت لوهلة أنَّه فارق الحياة لكن أنفاسه كانت منتظمة، وما إن تأكدت من ذلك حتى استعادت هدوءها وراحت تفكِّر فيما يجبُ عليها فعله، غطته ثم راحت تمسح الدماء من جروحه وهي تُفكِّر: كيف تمكَّنت من فعل ذلك وهي التي كانت تخاف من جرح شوكة؟! هل اكتسبت شجاعة فور وصولها إلى هذا العالم الغريب؟!

أية شجاعة؟! كررت في أعماقها ساخرة وهي تتذكَّر ساقيها وهما تصطكان ببعضهما قبل ساعة من شدة الخوف. انتهت من تنظيف الجروح ودثرته، ثم بدأ شعور بالوهن والخدر يضرب كل جزء من جسدها، للتوفقط أحسَّت بالألم وانتبهت إلى جروحها التي أصابتها جرَّاء القفز من العربة، لكنَّها كانت منهكة إلى الحد الذي جعلها تقذف جسدها على الكرسي دون أن تُكلف نفسها عناء النظر إلى الأماكن المصابة من جسدها، منذ متى كانت قادرة على تجاوز ألمها على هذا النحو السريع؟! حقًّا، إنَّ الألم يَضعف بجوار ألم أكبر منه.

فكـرت في ذلك ولاحت على شفتيهـا ابتسامة ساخرة، ثم غارت عيناها وهما تنظران إلى الأمير النائم أمامها، واختلطت جميع أفكارها، وسحبتها إلـى ظلمة أعماقها فلم تعد تبصـر الأمير ولا الغرفة، تلـك اللوحة والعتمة التـي تزداد كلمـا فكَّرت بدخولهـا المكتبة، الرجال الذيـن هاجموهم، ثمة شعـور يُخبرها بأنَّ دوريان، ذاك الغرّ، هو مـن قام بإرسالهم؛ فقد أخبرها بذلـك صراحة في الحفلة، ولكنّ ثمة شعورًا آخر يقول لها: لا، فتلك النظرة وتلك الدمعة التي شاهدتها كانت تشي بضعفه، إنَّه أضعف من أن يفعل ذلك وإن تظاهر بالعكس! وذاك الرجل الأصحم الذي ساعدهما من يكون؟! إن كلماته ليست جديدة عليها، هو الآخر تشعرُ بأنَّها تعرفه من قبل.

وذاك الشعور بالذنب الذي غمرها وهي تقف أمام الأمير، وتلك النظرة التي ارتسمت في عينيه كأنَّها تلومها! لكن لماذا؟! ومن ماذا؟! لقد أرهبتها، وأربكتها وأشعرتها بالذنب.

فجـأة اقتحمتها كلمات دوريان: "كلانا يملـك رغبة خفية في التخلص من الأمير".

فانتفضـت كل جوارحهـا منكرة وصرخـت روحها معارضـة: مستحيل! كذب، غروره جعله يتوهم ذلك، لماذا أعطي كلماته هذا الاهتمام؟! أنسيتُ شخصيته، إنَّه يصنع من أوهامه حقائق ويدمِّر الآخرين بها...

لكـن سؤال الأميـر الذي اقتحمها هو الآخر: أحقًّـا أهمك ألمي إلى هذا الحـد؟! جعـل عينيهـا تشخصان بذهـول حتى بـدت كتمثالٍ عبـره طوفان فحطمـه إلى قطع صغيـرة وراحت تفكِّر: أهو أيضًـا يعتقد ذلك؟! من يكون الأمير؟ بل...

من تكون هي؟!

غشيها الرعب وفرَّت من شفتيها: "مستحيل".

عندمـا سمعت همسها، أدركت أنَّها مفتَّحـة العينيْن وتنظر تجاه الأمير لكنَّهـا لا تـراه! ولا تـرى شيئًا، فـازداد رُعبها إلى حد الاختنـاق، هل فقدت بصرها يا ترى؟!

أغمضت عينيها ووارت ووجهها هلعًا خلف كفيها، وبعد طول تردد عادت لتفتـح عينيها، فشاهدت الأمير من بين أصابعها، أزاحت يديها، واستدعت حديثـه الـذي ذكره قبل قليـل: "إن أغمضتَ عينيك، فهـذا لا يعني أنَّك لن ترى، وإن فتحتهما فهذا لا يعني بالضرورة أنَّك سوف ترى".

مـا الذي كان يعنيه بذلك أيضًا؟! أعَلِـم بما أصاب عيني وكان يواسيني بحديثه؟!

أغمضـت عينيهـا ووارتهمـا مجـددًا ثم فتحتهمـا وهي تنطـق هامسة: ولكننـي أرى! أرى! وقد توهمت ما حدث قبل قليل.

التفتـت ناحية الباب فأُعتمـت رؤيتها مرة أخـرى، فأغلقت عينيها على الفور وترددت في فتحهما، وما إن فعلت حتى شاهدت الباب يهتزُّ، فأدركت أن البـاب يُقرع، فأسرعـت لفتحه، كان الرجل قد عـاد ومعه الطبيب الذي اتجـه على الفور إلـى الأمير ولحقه الرجـل، بينما ظلَّت هــي بجوار الباب، عاينه لبعض الوقت قبل أن يقول: هـذا سيئ.

سألت واجفة: ما الذي تعنيه؟!

رمقهـا الرجـل دون أن يُجيـب، وراح يساعد الطبيب فيمـا يفعله، كانت قـادرة من مكانها أن تلمح انقباض وجه الأميـر من شدة الوجع، لم تحتمل الوقـوف أكثر فخرجت ورفعت بصرهـا إلى السماء الممتـدة فوقها، كانت مظلمـة، وبـدت النجوم كأنَّهـا تحاول جاهـدة أن تبرز نفسهـا بيأس وسط ظلمتها القاتمة.

وصلهـا صوت أنَّات الأميـر المتوجعة، فاستدارت لتنظـر ناحية الباب، كانت تعلم أنَّها غير قادرة على سماع هذا الألم والوقوف دون فعل أي شيء، إنَّ أشد ما يوجعها ويُرهقها في حياتها هي مشاهدة الألم؛ لم تكن من النوع

الــذي يستطيع المواساة، فضلًا عن أنها لا تستطيــع فعل شيء لإيقافه، لذا قــررت أن تبتعــد أكثر، والحقيقة أنَّهــا كانت تخاف من الظلمــة أيضًا، ومع ذلك تحركت إلى الأمام لعلَّ صوت الألم يخبو، لكن الذي حصل أضاف لها لغزًا آخر؛ فما إن ابتعدت قليلًا عن الكوخ حتى شعرت بآلام فظيعة في كامل جسدهــا، في البداية عزت ذلك إلى كونها هــي الأخرى قد أُصيبت وتأذَّت، لكــن ما لم تفهمه هو كيــف تركَّز كل الألم فجأة في فخذهــا اليمنى وأسفل ظهرها؟! إلــى درجة جعلتها تُشمِّر بنطالها لتتأكد، لكن الموضع كان سليمًا حتى من أيّ خدش بسيط!

أجبرها صوت تَحرُّك باب الكوخ على إعادة تهذيب هندامها ثم اعتدلت ونظــرت إليهما، كان الرجل والطبيب قد خرجا، سمعت الطبيب يقول: سيد عطيل، دعه كي يرتاح. ومن الأفضل نقله إلى القصر سريعًا.

عطيل!

رددتها فــي أعماقها ونظرت إليه كمن يُريد اكتشافه مرة أخرى، راقبته وهــو يُحــدِّث الطبيب ثم يودِّعــه، وعندما غادر الطبيب التفــت عطيل إليها مستنكرًا بقاءها هنالك وحيدة، دنا منها وهو يسأل: ما الذي تفعله هناك؟!

اقتربت منه وهي تجيب: لا شيء...

انقبضــ وجههــا مــن الألم جــراء حركتها وهــي تُردف: كيــف هي حال الأمير؟!

أجابها وهو يومئ برأسه مُطَمئنًا: بخير، هو فاقد الوعي الآن فقط.

أطلقــت تنهيدة وهي تنظر ناحية الباب، ثم حركــت عينيها تجاه عطيل الــذي أشــاح وجهه سريعًا فور أن نظرت إليه وتظاهــر بالانشغال في إشعال الحطب وهو يعلِّق: أنتَ متعب أيضًا، أتودُّ شرب شيء ساخن؟!

أومــأت موافقــة، لكنَّه لم ينظر إليهــا ويبدو أنَّه لم يكــن ينتظر إجابتها أيضًا؛ على الفور دخل الكوخ ثم عاد بوعاء حليب وراح يُشعل النار لغليه دون أن يتفوّه بشيء.

دنــت منه واستراحت فوق بعض الحجارة وهي تسأل: أنت السيد عطيل؛ صحيح؟

أومــأ موافقًــا دون أن ينظر إليها وراح يُقلِّب الحليــب، ثم عبّأ لها الكوب وناولها إيــاه. وأخيرًا نظر إليها وسأل: منذ متى أنت صديق سيدي الأمير؟! لم أرك من قبل!

ابتسمــت بإحــراج؛ أحست بــأن سؤاله يبطــن توجّسًا، لــذا أجابت: هل وجودي هنا غير مريح لك؟! يحق لك ذلك؛ إنني حقًّا غريب هنا، ولم يمضِ على وجودي سوى بضعة أيام، لكن ما ذكرته بشأن مرافقتي للأمير والحفلة وما وقع بعدها...

قاطعها بقوله: لم أسألك عن كل هذا.

رمقتــه مستنكرة، فأردف: لا تُهمني كل هــذه التفاصيل، يكفي أنكَ كنتَ بجواره، وكان وجهك يفيض بالقلق عليه. لم أسألك لأجل ذلك...

قطَّبت حاجبيها مستفهمة فأتمَّ: هذا لأنك تُشبهه إلى حد ما.

لاحــظ تلــوُّن وجههــا وشحوبــه فــأردف موضِّحًــا: لا أعني أنَّــك تُشبهه بالملامح طبعًا، لمَ وجلت هكذا؟!

انتبهــت لنفسها، فأشاحــت عينيها مُحرجــة، فــأراد أن يلاطفها فقال ساخرًا: بالطبع لا تشبهه بالملامح مطلقًا، سيدي أجمل منك.

تبسَّمــت بتوتر، وعلَّقــت في أعماقها ساخرة: بالطبــع؛ إنَّ بوسع حاجبي الموناليزا أن يجعلا كل شيء قبيحًا.

وبعــد صمت قليل حاولت من خلاله ضبــط مشاعرها، وسألت: ما الذي تعنيه إذن؟

ارتشف من الحليب قليلًا ثم أجاب: لا أدري.

استنكــرت جوابه؛ فأردف مؤكدًا: حقًّــا لا أعرف، هكذا شعرت وحسب، عندما نظرتُ إليك أول مرة شعرتُ بأنني أنظر إلى الأمير أيضًا، ألم يحدث هــذا معك من قبــل؟ أن تنظر إلى شخصــ لا تعرفه، فتشعر بــأنَّ فيه شيئًا

يُذكـرك بشخص آخر، ليس بالضرورة أن تكون ملامحه؛ ربما لقربك منه، هنالك شيء غريب يحدثُ معنا نحن بني البشر، نعتقد أنَّ ملامحنا لا تتغير، وأنَّها بصمة نُعرف بها مدى الحياة، في حين أنَّها تتبدل؛ ليس وفق الظروف الطبيعيـة التي نعيشها وكبر الســن وحسب، بل حتى وفـق ظروفنا النفسية ووفـق مَن نصاحب، أتعتقـد أنَّ هذا غريبٌ؟! ألم تلاحظ مـن قبل شخصًا مميزًا بملامحه الحادة، فتُصبح ملامحه هادئة فجأة وتزول حدتها إن كان بقربه شخصٌ ذو ملامح هادئة والعكس؟! كأنَّ الملامح مرتبطة بطريقة ما بأرواحنا، وما إن تمتزج أرواحنا بأخرى فإنَّها تُعيد تركيبها وفق أقوى شعور يتغلَّب على البقية.

صمـت لحظة لاحـظ خلالها اندهاشها؛ لذا أتبع: دعـك مما قلته، ربما كنتُ مخطئًا ولكن...

شـدَّ على قبضة الكوب بيـده وأردف: لطالما اعتقـدتُ أنني كُنت أجمل بكثير حينما كانت إيميليا* بجانبي.

كان في وسعها أن تلحظ الألم الذي لاح على وجهه بمجرد أن نطق اسم إيميليـا، لذا تظاهرت بالانشغال بشرب الحليب دون أن تعلِّق بشيء، وصمت عطيل هو الآخر، كان واضحًا أنَّه غرق في ذكرى تؤرقه.

أرادت أن تُخرجـه من هذا الجو الكئيـب الذي حطَّ عليهما فجأة، لكنَّها لـم تجد ما تقوله، فشربت كل ما بقي، ثم مسحت شفتيها وردَّت إليه الكوب وهي تقول: شكرًا لك، لن أنسى طعم هذا الحليب أبدًا.

نهضـ عطيل ليطفئ ما بقـي مشتعلًا من النار وهو يقـول: حسنًا، لتنم الآن يا...

أدرك للتـو أنَّـه لم يسألـه عن اسمـه، فابتسمت له وهـي تُجيبه: اسمي هاملت.

كرر باستغراب: هاملت؟!

---

* إيميليا هي زوجة عطيل في مسرحية (عطيل) وقد قام بقتلها.

ثم صمت وهو يُحدّق إليها. خمَّنت ما يُفكر فيه؛ لذا علَّقت: أعرف، أنني لا أشبه هاملت الذي تعرفه حتمًا، ولكن أعلم أن الكثير من هاملت موجودون في هذا العالم.

ثـم سبقتـه إلى الكـوخ، وما إن دخلـت ووقعت عيناها علـى الأمير حتى أحسَّـت بشيء غريب؛ لقد اختفت كل آلام جسدها التي كانت تشعرُ بها قبل قليل!

الفصل السادس

لا معنى للحياةِ إنْ غادرها الإيمان.

كان بلاط الأرض يهتزُّ معبِّرًا عن غضبه هو الآخر كلما عبر من فوقه الأمير دوريـان وهو يتَّجه إلى غرفـة والدته، وفتح البـاب دون أن يطرقه، فنظرت والدته التي كانت تشرب الشاي صوبه، كذا فعل إيجاو الذي كان يتناول معها الفطـور، لاحظت تجهم وجهه والغضب الذي يشتعل في عينيه فسألته بنبرة جافة: ماذا؟ ما بك؟

رمـق إيجاو بحنق قبل أن يوجِّه نظراتـه إلى والدته ويقول: أريان لم يعد إلى البيت، إنَّه مفقود منذ البارحة، وقد جاءت بياتريتشا للتو تسأل عنه! ما الذي يعنيه هذا؟!

رفعت حاجبين يختزلان استخفافًا وهي تجيبه: وما أدراني أنا؟!

دنا منهما وأفرغ غضبه بضرب الطاولة وهو يَصرخ عليها: أمـــاه!

ثم وجَّه نظره لإيجاو وقال متوعدًا: إن علمت أنَّه من تدبيرك، فلن أسكت على هذا مطلقًا، أفهمت؟!

وما الذي ستفعله إن كان هو؟!

قالتها هـاري بلكنة ساخرة، فردَّ عليهـا وقد ازداد غضبـه: أماه، أعلم نوايـاكِ جيـدًا، ولكن هذا لا يُبيح لـكِ أن تفعلي هذا بأخـي! إنني أكره هذه الأساليب الملتوية.

لم تستفزها سوى كلمة "أخي" فكررت بتهكُّم: أخي؟!

ثـم وجَّهـت نظرها إلـى إيجاو وقالت: ألـم يقل عن بـازل* ذات يوم إنَّه كأخيه؟! أين هو بازل اليوم؟!

لاحت على شفتي إيجاو ابتسامة ساخرة لكن سرعان ما تبددت وانكمشت ملامحه؛ لقد كان واضحًا أن كلمتها الأخيرة أصابت دوريان في مقتل؛ فقد تلـوَّن وجهه وشرقت عيناه، وفرَّت الكلمات مـن شفتيه مرتجفة غاضبة: لن أسمح لكِ بفعل أي شيء له، أنا وحدي فقط مَن يحق له فعل ذلك.

ثم استـدار مغادرًا وصفع البـاب بيده فأحدث صريـرًا مزعجًا، وكانت الأرض فـي خروجه تهتـزُّ من تحتـه باحتجاج أكبـر مما كانـت تفعله قبل دخوله، وفجأة لم يعد يشعر بها، لم يعد يشعر بأي أرض تحمله وتثبته، كان يشعـر بأنَّه يسير على الهواء وفي أيـة لحظة سيقع، ما الذي يريده بالضبط؟! لم يعد يفهم شيئًا ولا حتى أعماقه!

لماذا هـو مستاء على هذا النحو من اختفائه؟! ألـم يتمنَّ ذلك كثيرًا؟! ألـم يُـرِد قتله؟! نعم، هـو أراد قتل شقيقـه عدة مرات، لكـن ليس من أجل العرش كما تدفعه هاري وإيجـاو، بل من أجل شيء آخـر: شيء لم يستطع أن يظهره لأي أحد، لقد كان هذا الشيء ينمو في أعماقه منذ الصغر، كلما شاهـد والده وهـو ينحني ليُقبِّل الأمير، كان يشعر دومًـا بتميزه وقبوله عند والده، حتى عندما أصيب بالعمى لم يتغير موقف والده منه، بل ازداد تمسكًا به، أما هو...

فكان يُعامل كالمنبوذ على الرغم من أنه لم يكن يعارض والده في شيء، بل كان يفعل كل ما يطلبه منه وهو راضٍ، ووحده أريان من كان يعترض ومن كان يقول: لا، ويُظهر رأيه بوضوح ودون أي تلوُّن!

* بازل: إشارة إلى الفنان الذي رسم دوريان جراي في رواية (لوحة دوريان جراي)، وقد قام دوريان بقتله.

ومـع ذلك ظلَّ هـو المنبوذ؛ فقط لأن أمه هاري، هـاري التي لم تقل ولو مرة واحدة لوالده: كلا أو لا: ليس حبًّا فيه ولكن لا مبالاة. لم تكن تبالي به، أو تحسبُ لوجوده أي حساب أصلًا . في الواقع لم تكن تهتم سوى بوجودها، فلم يرَ منها سوى التجاهل، والآن هي تسعى جاهدة لزجِّه في هذه المعركة، لطالمـا ملأت رأسه بكراهية أخيـه. وكل ما تريده هي وإيجاو أن يحكما من خلالـه ويجعلاه لعبة في مسرحية، إنَّه يدرك ذلك كما يُدرك أن كل مشاعر الكراهيـة التي غُذِّي بها تجـاه أخيه ما هي إلا محض وهم، وأنَّ تلك الرغبة فـي قتله تتلاشى كلما نظر إليه. وهذه هي الحقيقة: إننا نصنع الكره صنعًا لا كمثـل الحـب الذي يأتـي فجأة، ويتوغل فـي أرواحنا حتى ليبـدو جزءًا لا ينفصـل عنها، ولكنَّـه ملوث. عليـه أن يعترف بذلك، إنه ليسـ مثل شقيقه أريـان، وإن كان ثمـة شخص يستحـق القتل فهو دوريان وليسـ الأمير. لقد قتـل بازل بيده، ظن أنَّه إن تخلص منه فإنه سيتخلص من لعنة لوحته. لكن لـم يحدث ذلك، كان عليه أن يطعـن اللوحة في كل مرة كأنَّه محكوم بأبدية الشقاء، أو أن الشقاء هو المصير الأبدي لكل من أطلق العنان لأهوائه.

لقد أمضى حياته وهو يعتقدُ أن السعادة تكمن في نيل كل ما يريده. ولم يكن يدرك أنَّ الحرمان والرغد في حقيقتهما سواء.

أخيرًا وجـد نفسه في غرفته واقفًا أمام لوحته: لوحته التي كانت جميلة ذات يـوم ثم أصبحت لوحة لشيطان يتربص به، تناول مديته وراح يطعنها، ولكنها لم تتلف ولم يُصبها خدش، وهو بقي حيًّا لم يمت.

استيقظـت لتجد نفسها وقد نامت على الكرسي بعـد أن أسندت رأسها إلى السريـر! اعتدلت ونظـرت إلى الأمير، فوجدته مـا زال نائمًا، وضعت يدها علـى جبينه لتُعاين حرارته فوجدتها مستقـرة، أطلقت تنهيدة مطمئنة، ثم

تلفتــت حولها في الغرفــة، لم يكن عطيل موجودًا، وآخر ما تذكره رؤيته وهو يتمــدد على الأرض، خمَّنت أنّه في الخــارج، فنهضت وشعرت بلعابها يسيل بعدمــا التقط أنفها رائحة القهوة، فمسحت فمها وفتحت الباب، رمقها دون اكتــراث وعاد لتجهيز الفطور قبــل أن يقول: استيقظت أخيرًا، أأنت على ما يرام الآن؟!

دنت منه وشاهدت قطع الخبز المُعَدَّة مع الجبن وأكواب القهوة، فجلست وهي تجيبه: نعم، إنني بخير.

ناولها كوب القهوة وهو يقول: تناول فطورك ثم عد إلى القصر لإبلاغهم، أنا لا أستطيع الذهاب كما ترى.

كان جــوع بطنها كفيــلًا بجعلها لا تفكر بأي شيء ســوى إسكاته، فهزَّت رأسهــا موافقــة دون وعــي بما قاله، وراحــت تتناول الطعــام بشهية كبيرة، لاحظها عطيل، فعلَّق مبتسمًا: يبدو أنكَ لم تتناول عشاءك الليلة الماضية!

ابتلعــت اللقمــة وردَّت معترضة: بلــى، لكن ما حــدث كان كفيلًا بجعلي أهضمه على الفور.

ابتسم عطيل، ثم وقف وقال: سأُجهِّز لكَ حصاني.

ثــم اتجه إلى الكوخ وانعطــف بينما ظلَّت تتابع ابتلاع الطعام على عجل، وما إن فرغت حتى بدأت تستوعب ونطقت مستنكرة: حصان!

أبصرته عائدًا من خلف الكوخ وهو يَجُّر معه حصانًا أسود، اقترب منها وعلَّق: أرى أنكَ فرغت، هيا.

نهضــت وتنقَّلــت ببصرها بينه وبيــن الحصان بنظــرات حائرة خرقاء سرعــان مــا ضايقته، فوضع اللجام في يدها وهو يقــول: ما الذي تنتظره؟! أعلــم أن حصاني يَخطف لبَّ كل من يشاهــده، لكن هذا ليس وقته أرجوك، من أجل الأمير أسرع.

أشارت إلى الحصان وهي تردُّ موضِّحة: ولكن...

أرغمها على ركوبه وهو يحثها بقوله: بسرعة، بسرعة.

لـم تستطـع أن تقاومه أو تدفعـه أو تعترض. فثبتت قدمهـا على السرج مستسلمـة، كمـا تُشاهد في الأفلام، ثم امتطته، ومـا إن استقامت وشعرت بهـول الجلوس على ظهـر حصان حتـى دوت منها صيحة استيعـاب قائلة: لحظة، إنني لا أعرف حقًّا.

سأل مستفسرًا: ما الذي لا تعرفه؟!

صاحت موضِّحة: لا أعرف كيف أوجِّه الحصان.

أخـرج صوتًـا ينمُّ عـن السخرية وعلَّق وهـو يَضرب حصانـه دافعًا إياه للركض: ليس هذا وقت المزاح.

فاندفـع الحصـان علـى الفـور ووجـدت نفسها كمـن يَطير فـي الهواء وصرخـت مستغيثةً صرخـة لم تصله: لم أمتطِ حصانًـا من قبل ولا أعرف طريق القصر!

كانـت مائلة علـى الحصـان قابضة على اللجـام بشدة، وبعـد أن قطع الحصان مسافة قصيرة، رفعت ظهرها قليلًا ووجدت نفسها تعبر من تحت أشجار كثيرة، ازداد خوفها فانحنت عليه وتشبثت برقبته كأنَّها تعانقه عناق الموت، خـبَّ الحصان في سيره فـازداد خوفها، وكانـت النتيجة أن فقدت تماسكها تدريجيًّا وانسل اللجام من يديها ووجدت نفسها فجأة وهي مُحلِّقة في الهواء، ثم هوى جسدها بقوة على الأرض، وتدحرجت مثل الليلة السابقة ولـم تتوقف إلا بعـد أن ارتطمت بجذع شجرةٍ عملاقة، وشعرت بأنَّ جسدها شُطر إلى نصفين.

دوّت منهـا صرخة متألمـة، ثم انثنت على نفسها وتلـوَّت من شدة الألم بينما كانت قادرة على سماع ركض الحصان وهو يبتعد حتى غاب صوته.

بالـكاد استطاعت أن ترفع رأسها، لتدرك أنَّها سقطت في مكان تجهله، والحصـان قد فرَّ ولا قدرة لهـا على اللحاق به، جلست متكئة على ذراعيها، وراحـت تتلفَّت حولها تستطلع المـكان، إنَّ الشيء الوحيد الذي جعلها تشعر بالأمان ودفعها للتقدم هو الشمس، سارت في الطريق الذي سلكه الحصان،

لكـن ما إن بدأت أُذنها تلتقط أصواتًا شتى مختلطة ببعضها، حفيف أشجار وحفيف أفـاع ربما، وصوت عصافير وأزيز حيوانـات مفترسة مختبئة حتى شعـرت بثقـلٍ يَشدُّها نحو الأرض، فقصرت خطواتها حتـى توقفت تمامًا، وراحـت تدور حول نفسها مرتاعة ثم أغمضت عينيها واندفعت راكضة، وما زاد مـن خوفها أنَّ عينيها المغمضتين كانتا لا تستطيعان رسم ما تمرُّ به إلا كأشـكال هلامية مرعبة، وبعد أن قطعت مسافـة طويلة وشعرت بأنَّ نَفَسها قـد انقطع، توقفت، وفتحت عينيها أخيرًا، ودارت حولها بذعر، لفت نظرها خيط عظيم من الدخان يرتفع نحو السماء، فاتجهت نحوه مستطلعة، وكلما اقتربت سمعت حفيف النيران، فأدركت أنَّه حريق هائل، أسرعت أكثر نحوه لتستطلع الخبر، وإذا بها تشاهد أناسًا يصرخون ويركضون في فوضى تامة، وأطفـالًا قد تجمهروا مـن بعيد ليُشاهـدوا حقولهم والنيـران تضع حُكمها الجائر عليها بفنائها، ظلَّت واقفة مشدوهة عاجزة، فابتلعها الذعر وغشيها اليأس، فسقطت جاثية على ركبتيها وعيناهـا مصوبتان تجاه النار، كادت تفلت منها صرخة لولا أنَّ كفًّا أمسكت كتفها وهزَّته وهي تسأل: هاملت؟!

نظرت إليه، كان تسعة عشر (الشيخ أيمن)، لقد وجدت أخيرًا شيئًا تأوي إليه فتشبثت بكفه وهي تعلّق: الشيخ أيمن!

تعجَّـب من فعلها وتمكَّن من الشعور بارتجاف قلبها، وفجأة قُذف برميلٌ بجانبهـا فصـرف أنظارهما إليـه، صرخ مُلَقيـه عليها: لمـاذا أنت جالس هكذا؟! تحرك بسرعة.

عـادت تنظر إلـى الشيخ، فانتبهت للتـو فقط أنه يحمـل برميلًا مملوءًا بالمـاء، أومـأ إليها، ففهمـت أنَّه يطلب منهـا الحراك، فالتقطـت البرميل علـى الفور، ثم راحت لتعبئه بالماء وتُساعد في إخماد الحريق، لا تدري كم مضـى عليها مـن الوقت وهي تروح وتأتي في الطريـق نفسه، ولا كم برميلًا ملأتـه وأفرغته، لكنَّها كانت غارقـة في العرق وبدأت رؤيتهـا تضعف شيئًا فشيئًا، وبعد برهة توقفت وراحت تنظر للنيران وقد ازداد اشتعالها! صرفت

أنظارها تلقاء الناس وهم يعبرون من جوارها، حتى إن بعضهم كان يرتطم بكتفها دون وعي، وشعرت بأنَّ ما يفعلونه عبث أمام هذا العملاق، فما كان منها إلا أن قذفت البرميل وأعطت ظهرها للعملاق وسلكت الطريق نفسه الذي جاءت منه، ولم تكن تعلم أنَّ الشيخ أيمن كان قد شاهدها وهي تُلقي البرميل، تابعت طريقها وهي تسمع أجيج النيران المستعر، فوضعت يديها على أذنيها علَّها لا تسمع، وفي تلك اللحظة شعرت بدموعها وهي تنفلت، لقد استدعت النيران ذلك السؤال الذي تعاظم في صدرها وانتفخ حتى أخرج كل ما بقي في قلبها من إيمان، "لماذا يحدث كل ذلك؟!".

لماذا على البشر أن يعانوا ولماذا على الأبرياء أن يسقطوا دون أي ذنب؟! لماذا هذه الدنيا لا شيء فيها سوى الشر؟!

منذ متى لم تكن قادرة على رؤية شيء سوى الشر؟!

نعم منذ تلك المجزرة؛ وما تلاها، لقد شهدها العالم قبل أعوام بصمت تام. وهي لم تعد تؤمن بأية عدالة بشرية، منذ ذلك اليوم الذي عَلَّقت فيه على جدار مكتبها لوحة رسمها الواقع المخزي، صورة رجل يحمي ابنه الصغير وهو يُشير للجنود بإيقاف إطلاق النار عليهما، فبقيت كلوحة شاهدة ومعبرة عن بشاعة البشر وتمكُّن الشر.

لكنَّها لم تكن تدرك أنَّ عدم إيمانها بالعدالة قد طَرد كل نوع من الإيمان في قلبها، لقد أفرغها أيضًا من كل شيء، حتى باتت قلمًا عملاقًا من الخارج، يكتبُ عن العدالة، يتحدَّثُ عن عدم إمكانية العقل الإحاطة بجميع الملابسات، وعن نظرة الإنسان اللحظية وتفكيره الذري ومحدودية عمره التي تُحيل وصوله إلى الحكمة مما يجري أو رؤيته للخير فيه، وأنَّ أمورًا كهذه ليست دلالة ولا حجة لانتفاء العدالة.

لم تكن تعرف أنَّ كثرة التأكيد ليست إلا دلالة على الشك، نعم هي كذلك، كانت من الداخل مجوفة غارقة بالشك؛ أي شيء كفيل ببعثرتها إلى قطع.

كان أبسـط حدث يُجدد الألم فـي داخلها، يجعلها تصرخ تلك الصرخة التي قتلتها في أعماقها، فلمَ كل هذا الشر غير المبرر؟!

ثـم صرخـت مـن أعماقها تناجيـه: يـا الله، خلصني من هـذا الشك، خلصني من هذا الألم وهذا التيه، أنت وحدك من يقدر على ذلك، أنتَ من وهبتني هذا القلب الضعيف فامنحه قوة من قوتك.

لا تدري كـم مَشَت، وسرعان ما هبط الليل عليهـا، وأدركت أنَّها تاهت، وكان عزاؤهـا أن ضياعها هذا ليس شيئًا بجانب الضياع في أعماقها، ظلَّت تمشـي وهي تفكِّر في أنها مهما مشـت الآن فإنَّها ستتوقف في مكان ما، في حيـن أن أعماقهـا مهما تحركت فإنَّها لن تصـل إلا إلى الظلام، وبينما هي كذلك، فُوجئت بحصان عطيل وقد وقف بجوار شجرة ينتظرها!

دنت منه وربَّتت على رأسه ثم أمسكت لجامه وقادته، أبصرت الكوخ من بعيـد، رفَّت عينيها لتتأكد، ثم تابعت طريقها تجاهه، أسرع الحصان خطوه متجهًـا إلى الإسطبل، أما هي فقد تابعت طريقها وفتحت الباب، كان عطيل واقفًـا في منتصف الغرفة وقد وجَّه أنظـاره نحوها وهاله منظرها: شعرها المبعثر وثيابها الملطخة بالتراب والغبار. عاجلها بسؤاله: أين كنتَ كل هذا الوقت؟!

أمالـت رأسها لتنظر للأمير الذي كان عطيل يحجبه عنها، وهي تجيب: في الواقع، لقد...

كان الأمير في تلك اللحظة قد اعتدل وسألها دون أن يتمكَّن من رؤيتها: أأنت بخير؟ هل آذتك السقطة من ظهر الحصان كثيرًا؟

جمـدت كل جوارحهـا ولـم يتحرك فيهـا سـوى شفتيها اللتيـن اهتزتا مستنكرتين: كيفَ عرفت؟!

ثـم تقدمـت ودفعت عطيل ليفسـح لها حتى أصبحت علـى مرأى بصره أخيرًا.

تنقَّل عطيل ببصره بينهما حائرًا وقال: الحصان؟!

ثم وجَّه نظره إليها وسأل بقلق: أين حصاني؟!

لكنَّها تابعت تقدمها حتى وقفت أمام الأمير بوجه مصفر وسألته مجددًا: أخبرني كيفَ عرفت؟! كيف عرفت أنِّي وقعت من الحصان إن كنت لا ترى؟!

ثم صاحت مستنكرة وهي تشير إلى عطيل: هذا الذي شاهدني بمنظري لم يعرف!

غشيها الذعر وهي تتابع بصوت منخفض كأنَّها تُحدِّث نفسها: وعرفت أنني كنت في المكتبة!

تمكَّن بمشقة من رفع يده وجذبها إليه من ياقة قميصها، وهو يسأل مجددًا: أخبرني أولًا، أأنتَ بخير؟!

ثم ارتخت قبضته وتهاوى جسده على السرير، فانحنت لتساعده، لكنَّه كان قد فقد وعيه، نظرت إلى عطيل بقلق، اقترب منها، وأبعد يديها ودثَّر الأمير وهو يقول: لقد فقد وعيه مجددًا، ولكن أخبرني هل حقًّا سقطت من الحصان، كما قال؟!

أومأت مؤكدة، فخشي على مصير حصانه وأفصح عن ذلك بسؤاله: أتعني أنَّ حصاني...

لوت فمها منزعجة وهي تُقاطعه: لا، لقد عاد، إنَّه بالخارج الآن...

ثم أردفت تلومه: قد أخبرتُك بالفعل بأنَّني لم أمتطِ حصانًا من قبل!

أطلق تنهيدة مرتاحة لكن سرعان ما شعر حيالها بالخجل، فالناظر إليها يُدرك أنها قد تأذت بشدة، لذا قال: آسف؛ لأنني لم آخذ كلامك على محمل الجِدّ.

صرفت بصرها إلى أريان وراحت تفكر: كيف عرف؟! كيف تمكَّن من معرفة ذلك؟! حتى لو كان مبصرًا ويتظاهر بالعمى، لم يكن لحظتها قد شاهدني! لقد كان عطيل يحول بيني وبينه! وماذا عن المكتبة؟!

ابتلعت ريقها وزوت عينيها عنه، أجبرها عطيل الذي تحدَّث فجأة على النظر إليه قائلًا: عندما تأخرت بعثت صديقًا لي إلى القصر، وأتوقع وصوله قريبًا.

ما إن قال ذلك حتى التفتا معًا تجاه الباب الذي طُرق. خمَّنت أن من خلفه بياتريتشا، وبالفعل عندما فتحه عطيل أطلَّت من خلفه واتجهت سريعًا نحو السرير كأنَّها تعرف المكان جيدًا. وتبعها كينت، انحنت على الأمير تُعاينه وهي تقول: يا إلهي، أهو بخير؟ لِمَ يبدو شاحبًا هكذا؟!

نظرت إلى عطيل وأردفت: هل أحضرت له الطبيب؟

أومأ لها، فنظرت إلى كينت وقالت: من الأفضل نقله سريعًا.

لكن كينت كان ينظر إلى هاملت مستنكرًا مظهره، مما جعل بياتريتشا تنظر إليه هي الأخرى، ولاحت على ملامحها الدهشة كأنَّها قد شاهدتها للتو، فعلَّقت: آسفة، لم أنتبه لك.

ثم ألقت نظرة فاحصة عليه، وبتردد سألت: هل أنتَ بخير؟!

زمَّت شفتيها مشيرة لها بالإيجاب، ثم استندت إلى الجدار، وراحت تنظر إلى الجهة الأخرى، أمال كينت رأسه ناحية بياتريتشا كمن يهمس إليها وقال: يبدو لي أنَّه هو الآخر مصاب بشدة.

نظر إلى عطيل وسأله بصوت منخفض: أهو بخير؟!

وجَّه عطيل هو الآخر نظره إلى هاملت وهو يُجيب كينت: لم يُصب من الهجوم لكنَّه وقع من فوق ظهر الحصان، اليوم، وعاد إليَّ بهذه الهيئة.

يبدو أنَّه أؤذي بشدَّة، فهذا الهدوء ليس من عادته!

علَّقت بياتريتشا بذلك ثم أشارت إلى الأمير وقالت: لنحمله إلى العربة.

تقدَّم عطيل وساعده كينت على حمله، وخرجا من الكوخ، بينما وقفت بياتريتشا تراقبه لحظات ثم قالت: سيد هاملت.

تنبَّهت إلى سرحانها وأدركت أنَّ الجميع قد خرج، فاعتدلت وهي تسأل: أنذهب الآن؟!

أومـأت لهـا بياتريتشا موافقـة، فسبقتها وخرجت من الكـوخ، وصعدتا العربـة معًـا، ودَّع الجميع عطيل وشكـروه على صنيعه، ثـم تحرَّكت العربة عائدة إلى القصر.

وعندمـا وصلـت أُعلنت حالـة الطـوارئ، واستنفر جميع أهـل القصر، ونُقـل الأميـر إلى غرفته. وبُدِّلـت ثيابه، وجاء الطبيب ليُعاينـه، بينما ظلَّت هي واقفة بجوار باب الغرفة متكئة على الجدار، مُحدِّقة عينيها إلى الفراغ. تشعر بأطياف فقط تعبر من جوارها داخلة وخارجة. كانت النيران لا تزال مشتعلـة في عينيها تَأبى أن تنطفئ، مُوقدة فـي قلبها لهيبًا أحرقها باليأس وقتلها مرات ومرات.

ولم يُخرجها من سرحانها سوى منديل مبلل مُدَّ لها، رفعت عينيها، وإذا بياتريتشا تبتسم برقة لها وهي تُشير عليها أن تأخذ المنديل، ثم علَّقت: أنتَ لم تهتم بجروحك! هل أنتَ قلق على الأمير؟!

نطقت: قلق!

غـارت عيناها ولاحـت في خاطرهـا تلك الكلمـات كريح جـاءت لتنثر رمادهـا المتبقي مـن النيران: "كلانـا يملك رغبة خفية فـي التخلص من الأمير"، " أحقًّا أهمَّك ألمي إلى هذا الحد ؟!".

ابتلعـت ريقها وتمنَّت لـو كانت قادرة على ابتلاع هـذا الشعور الذي ألمَّ بهـا، ثم أشاحـت عينيها وهي تشعر بتلـك الدموع التي تكوَّمـت وأرادت أن تخرجَ صارخة لكنَّهـا لجمتها وراحت تطيش بها في الأعلى والأسفل ونسيت المنديـل، فأدركـت بياتريتشا مدى اضطرابها، فدنت منهـا أكثر وفاجأتها بمسـح مـا علق فـي وجهها مـن تـراب، فتغضَّن وجـه الكاتبة مـن الوجع؛ فلـم تـدرك إلا للتو فقط أنَّهـا خُدشت في نواح كثيرة مـن وجهها، أخرجت بياتريتشـا صوتًـا ينمُّ عن الاستياء ثم قالت: الأمرُ سيـئ حقًّا، إن الخدوش في كل مكان!

ثم اعتدلت وهي تتمُّ: سأبعث لكَ الممرضة لتعتني بجروحك، أرجوك، عد إلى غرفتك واسترح.

أومأت موافقة، لكن ما إن همَّت بالتحرك حتى وجَّهت أنظارها نحو الغرفة، فابتسمت بياتريتشا وقالت مُطَمئنة لها: لا تقلق، سيكون الأمير بخير.

جاهدت نفسها لتبتسم، وما إن استدارت ورأت أمامها رامبرانت الذي أشاح وجهه وتظاهر بأنَّه لم يرها حتى تلاشت ابتسامتها، عَبَر من جوارها ودخل غرفة الأمير.

ابتسمت بيأس ثم تابعت طريقها قاصدة الذهاب إلى غرفتها، وعندما وصلت وأغلقت الباب خلفها اتجهت ناحية السرير على الفور لكنَّها توقفت عندما وقعت عيناها على اللوحة المغطاة بالثوب، وجرَّتها قدماها إليها جرًّا، ترددت لحظة قبل أن تُزيح الثوب وتظهر من خلفه العتمة وقد أكلت جزءًا كبيرًا من جسدها في اللوحة.

حجبتها بالثوب وجثت على ركبتيها وهي تتمتم: لا أحتمل، إنني حقًّا لم أعد أحتمل.

في الصباح استيقظت وهي تشعر بثقل في جميع جسدها، لقد اعتنت بها الممرضة البارحة، وضمَّدت لها جراحها، وقد نال وجهها خمسة خدوش على الأقل، والبقية توزَّعت على أنحاء جسدها، نهضت بتكاسل تجرُّ نفسها جرًّا، اتجهت نحو الدولاب وبدَّلت ثيابها، ثم أسرعت قاصدة غرفة الأمير، وما إن اقتربت من الباب حتى توقفت، لقد شاهدت أمامها شيخ هيمنجواي يُطالعها مثل المرة السابقة بعينين شاخصتين كأنَّه يشاهد شيطانًا! شعرت بالحرج فغضَّت طرفها وعادت خطوات إلى الوراء، فارتطمت بأحد ما فاستدارت لتنظر إليه وتعتذر فإذا به تسعة عشر يسألها: أأنتَ بخير؟

لم تجبه، وعادت لتلتفت إلى الشيخ ولكنَّه كان قد دخل الغرفة، عادت لتنظر إلى الشيخ أيمن وتجيبه: أنا بخير.

ثــم طرأ في ذهنها ما فعلته البارحة، فهربت بعينيها إلى الجهة الأخرى في خجل وهي تؤكد: بخير.

فوجئت به يُمسك ذراعها ويدفعها للتقدم معه وهو يقول: تعال معي إذن.

أوقفت تقدمه، وهي تحاول أن تحرر نفسها منه وتسأل: إلى أين؟!

تجاهلها وأرغمها على المشي وهو يردُّ: تعال معي وحسب.

فسارت معه وكادت تتعثَّر وهي تنظر إلى غرفة الأمير، وكانت بياتريتشا في تلك اللحظة قد أقبلت وشاهدتهما وهما ينصرفان.

ظنَّته سيذهب بها إلى المكتبة لكنَّها فوجئت بخروجها من القصر، عبر مــن الحديقة ثم توقف أمام الإسطبل وترك يدهــا أخيرًا ودخل بينما كانت تلتقط أنفاسها وهي تراقبه، ثم خرج ومعه حصان وقال: هيا، امتطِ حصانًا واتبعني.

سألت مستفهمة مستنكرة: ما الذي تقوله؟! إلى أين تنوي أخذي؟!

امتطى الحصان ثم أجابها: إلى مكان أنتَ بحاجته.

فكَّــرت لحظة ثم هزَّت رأسها نافية وهي تــردُّ: لا أستطيع، لا يمكنني أن أمتطي الحصان، يكفي ما جرى لي البارحة.

حسنًا، أُرْدفك خلفي.

جــاء هذا الصــوت من خلفها فالتفتــت ووجدت كنديــدَ مبتسمًا ويقول: كيف حالك، اليوم؟ بلغني أنَّك أصبت البارحة.

ثم عبر من جوارها، وأردف: ماذا قلت؟

وجّهت نظرها إلى الشيخ أيمن وسألت: ولكن إلى أين؟! أخبراني.

ابتســم لهــا الشيخ، بينما دخــل كنديد وغاب لحظات ثــم خرج ممتطيًا الحصان، اقترب منها ثم مدَّ يده لها وهو يقول: هيا، ولا تناقش السيد تسعة عشر كثيرًا.

تـرددت قليلًا قبل أن تستجيب له وتمتطيـه، لكن شعور الرهبة والخوف ومـا حـدث لها البارحـة سيطر عليها فاهتـزَّت أصابعهـا الممسكة بخصر كنديد، شعر بذلك فمال برأسه قليلًا وعلَّق ليُطَمئنها: لا تخش شيئًا معي.

ثم ضرب على اللجام فتحرك الحصان وانثنت على نفسها خوفًا واندفع الشيخ أيمن - كما تصر على تسميته - يتبعهما.

مضـى وقت طويل قبـل أن تبرز لها مشـارف القرية مـن بعيد، فعرفت المـكان المقصـود، توقفـوا عند وصولهـم ونزلت عن الحصـان ثم لحقها كنديـد، ومـا إن اعتدل حتى قـال: "لقد أخبرتـك من قبل، علينـا أن نزرع حديقتنا".

باستغراب سألت: ما الذي تقصده؟!

أعطى الشيخ أيمن لجـام حصانه لكنديد ثم أمسك ذراعها مرة أخرى وقادها وهو يقول: تعال معي.

ثم نزل من التل ليدخل القرية، وتبعهما كنديد بعد أن ربط الحصانين.

عبـر من جوارهـا مجموعة أطفال بثياب قديمـة وبالية ولكنَّهم مع ذلك كانـوا يضحكـون ويتحدثون، حتى إنهـا أمالت رقبتهـا لتشاهدهم أكثر وقد شرعـوا بالرسم على التـراب بالأغصان، دفعها الشيخ أيمـن للمواصلة ثم أخيـرًا توقف وأشار لها لتنظر أمامهـا، فانكشف لها مشهد فهِمَتْ أنَّ عليها قراءتـه، كانـت امرأتـان جالستان تشربـان من آنيـة الماء، وعلـى مقربة منهمـا وقفت ثلاث نساء، كل واحدة منهـن تحمل كيسًا من القش ويتحدَّثن ويضحكـن، دفعها الشيخ للتَّقدم أكثر فعبرا من جوارهن ثم توقفت لتشاهد مجموعـة من الرجال مقبلين وهم يحملون الأكياس أيضًا ويضحكون، وعلى مقربـة منهم جلسـت مجموعة أخرى علـى الأرض تتنـاول طعامها، دفعها للمشـي أكثـر وأكثر وتوغَّلا في القريـة، وكان كل ما تشاهـده أناسًا يعملون ويحملـون الأكياس وهم يبتسمـون ويضحكون، حتى إنَّ كثيـرًا منهم توقف

وألقــى السلام على الشيــخ أيمن وهو يبتسم لهم، بدا الأمر لها وكأنَّ القرية لم يلتهمها ذلك العملاق المرعب، البارحة!

وأخيرًا توقف أمام الحقل، كان الرجال والنساء قد انتشروا فيه وشرعوا فــي تنظيفه، والنســاء يتحدَّثن مع بعضهن ويُعلِّقــن، والأطفال رأوها فرصة كبيــرة للعب والمرح، تركها الشيخ أيمن وابتعد قليلًا، ولم تسأله عن السبب بــل ظلَّت تراقبهم بدهشة، وما هــي إلا لحظات حتى عاد الشيخ يحمل كيسًا كبيرًا من القش أعطاها إياه وهو يقول: خذ.

نظرت إليــه بعينين متسائلتين، فوضعه في يدهــا وهو يردف: عليك أن تعمل معهم.

لم يعطها فرصة الاعتراض أو السؤال، على الرغم من علامات الرفض والاستنــكار التي أبدتها، وراح يدفعها دفعًا نحــو الحقل وهو يوضِّح: سأعود عند الغروب، أرجو أن تؤدي واجبك جيدًا.

تمكَّنــت أخيــرًا من إيقــاف دفعــه وردَّت معترضة: ولكن، أنا لــم أتناول فطوري بعد!

لــم يكترث بما قالته وتابــع دفعها ثم تركها وانصــرف، فوجدت نفسها وحيــدة بين أناس لا تعرفهم، وتشعر بأنَّها تعرفهم أيضًا! نظرت إلى الأرض تحتها: هل عليها أن تلتقط هذه الأكوام المحترقة!

بــدا لها أنَّ هذا مــا يفعله الجميــع، فوضعت الكيس علــى ظهرها مثلما رأتهم يفعلون ثم انحنت لتلتقط الأكوام المحترقة، في نصف الساعة الأولى كانــت تتلفَّت بين الحين والآخر بحثًا عن الشيخ أيمــن، وفي الساعة الثانية كانت تراقب من حولها وتستمع لأحاديثهم من بعيد دون أن تُشاركهم شيئًا، ثــم مضت عليها الساعــات الباقية وقد انهمكت بالعمل ولم تعد تفكِّر في أيّ شــيء آخر، وأخيرًا رفعت رأسها ونظرت إلى السماء، كانت الشمس قد آلت إلى الغروب فتعجَّبت كيف لم تشعر بانقضاء كل هذا الوقت؟!

في تلك اللحظة كان طفل صغير يركض وقد ارتطم بساقيها من الأمام، وما إن رفع رأسه ونظر إليها حتى كشر عن أسنانه الناقصة والمكسورة وهو يبتسم لها، كانت ابتسامته تلك كفيلة بتبديد وجومها الذي لازمها طوال اليوم وجعلها تبادله الابتسام، ثم مررت كفها فوق شعره وراحت تربِّت عليه وهي تقول: كن حذرًا يا صغيري.

أومأ لها موافقًا ثم تابع طريقه ركضًا، حَنت منها التفاتة إلى الأكياس التي عبأتها؛ لقد تمكَّنت من تعبئة أربعة أكياس ذات حجم كبير؛ وهذا جعلها تشعر بسعادة بالغة، في تلك اللحظة سمعت صوتًا معلقًا بدهشة: أحسنت، هل عبأتَ كل هذا؟!

التفتت ناحيته؛ كان الشيخ أيمن قد أطلَّ أخيرًا، اقترب أكثر من الأكياس وأردف: لقد تجاوزت كل توقعاتي بالفعل.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة متعبة، وشعرت للتو فقط كم أنَّها مرهقة جرَّاء كل هذا العمل، ومن دون تفكير، وجدت نفسها تجلس على الأرض وتسند جسدها بذراعيها وأمالت رقبتها لأعلى وهي تردُّ: لا طاقة لديّ الآن لأي شيء، إنني متعب حقًّا.

اقترب منها وجلس إلى جوارها ثم أخرج من حقيبته التي كان يحملها معه حافظة طعام وناولها إياها وهو يقول: خذ، إنه لك.

اعتدلت ونفضت التراب عن يديها وهي تشكره، ولم تستطع إخفاء الفرح الفوضوي الذي بدا على عينيها، فقد كان كل ما تُفكر فيه الآن هو إخماد لهيب جوعها، فتحت الغطاء وراحت تتناول ما فيه سريعًا.

وبعد أن شعرت بشبع نسبي وخفَّ نهمها، انتبهت إلى أنَّ الشيخ لم يكن يأكل، فشعرت بالحرج وهي تمدُّ له الحافظة وتقول: ألم تأكل؟!

أبعدها وهو يعتذر بلطف: بلى، لقد تناولت عشائي قبل قليل، أكمل عشاءك، لا عليك.

تابعت الأكل، وعندما شعر بأنَّها أوشكت على الانتهاء سأل: ما الذي رأيته مذ تركتك؟ أخبرني.

ابتلعت اللقمة بغصة فقد أدركت ما يرمي إليه، هربت بعينيها عنه ثم طاشت بهما حولها وأجابته: رأيت أناسًا يعملون دون توقف.

وماذا أيضًا؟

خفضت عينيها إلى الأسفل وأجابت: كانوا سعداء ويضحكون.

تبسَّم الشيخ أيمن ابتسامة واسعة وهو يقول: إذن أكان على الأرض أن تتوقف بعد هذه المأساة؟! أكان عليهم أن يتوقفوا عن العمل؟!

إنَّه محق، هكذا نطقت أعماقها بألم وهي تحدِّق إليه بصمت، لقد أيقنت أنَّه لم ينسَ كلامها الذي قالته في المكتبة بطريقة عابرة، وقد فهمت الآن ما الذي يرمي إليه، وفهمت لماذا جاء بها إلى هنا، وفهمت أيضًا ما الذي كان يعنيه عندما قال لها في المكتبة: "تأمل ترَ؛ فالنظر وحده ليس كافيًا".

همَّت بالرد ولكنَّها ترددت وأشاحت وجهها، فأردف: الوقوف ليس حلًّا، وتفكيرك على هذا النحو ليس إلا محض ترف.

عادت لتنظر إليه وترد مستفهمة: ترف؟!

أومأ مؤكدًا ثم قال موضِّحًا: إنَّ ما تفكر فيه هو عالم لا مكان للألم فيه، مكانٌ لا وجود للشر فيه، ولكن فكر معي: كيف سيكون وضع هذه الأرض بلا أي شر؟!

إن أرضًا بلا شر هي أرض بلا خير أيضًا، تأمَّل معي: لو لم يكن الشر موجودًا فكيف كنَّا سنعرف الخير؟!

إن لم يكن الشر موجودًا فلن يُعاني أحد ولكن لن يَسعد أحد أيضًا، لن يُرفض شخص لأنَّه سيئ ولكن لن يُمجَّد آخر لأنَّه جيد، ببساطة حتى الحكمة لا مكان لها لو لم يوجد الشر.

نظرت إليه بعينٍ ظامئة إلى المزيد والمزيد، فابتسم وأتبع: إنَّ عالمًا لا شر فيه ولا خير هو الجنة فقط، حيث لا جدوى من الخيار والامتحان.

ثم وقف معتدلًا وربَّت على رأسها وهو يُردف: احفظ هذا في رأسك جيدًا ولا تنسه.

ثم استدار ليُغادر، ولكنَّها أوقفته بقولها: مهلًا. إنني بالفعل أعلمُ كل ذلك.

عاد لينظر إليها، كانت نظراتها تكشف عن ضياع وحيرة، رمقها مستطلعًا فأوضحت: إنني بالفعل أعلم ذلك، ولكنني أنسى كل شيء عند أول ألم أشاهده حتى...

صمتت لحظة بعد أن شعرت برجفة صوتها وتأثره؛ فغضَّت طرفها في حرج، حاولت أن تتماسك، ازدردت ريقها ثم أتبعت بتردد واضح: إنني في أحيان كثيرة أقتل ذلك السؤال الذي يلحُّ على عقلي، أعلم أنَّه خاطئ ولكن إنَّ له من القوة ما يجعلني أستسلم لسلطانه وأمدُّ له كل كياني ليُقيده بأصفاده.

رفعت عينيها إليه وأتمَّت: لماذا تغيبُ العدالة ولماذا كل هذا الشر إن كان الله موجودًا حقًّا؟!

لم يبدُ متفاجئًا بل ابتسم بهدوء وهو يُجيبها: الخطأ في سؤالك، سؤالك كان ينبغي أن يكون على هذا النحو: ما معنى الخير؟ بل لماذا يوجد خير إن لم يوجد إله؟! إن هذا السؤال هو الذي يُفترض أن تبحث عن إجابته.

ثم استدار وهو يُلوِّح لها بكفه ويقول: سنلتقي، وفي المرة المقبلة أرجو أن تكون الإجابة معك.

ظلَّت جامدة في مكانها تُراقبه وهو يبتعد، ووَدَّت لو كانت قادرة على إيقافه لكنَّها لم تستطع الحراك، كان سؤاله الأخير كفيلًا بشلِّ كل حواسها وبعثرة كل أفكارها، لاح طيف ابتسامة مضطربة على شفتيها وهي تُخاطب روحها: إنَّه محق، إنَّني أفكر بطريقة خاطئة ومخجلة من الأساس! إنَّني أزنُ وأقيس الحقيقة الإلهية بالحقيقة البشرية! كيفَ أمكنني فعل ذلك؟! إنَّني أحصر اللامحدود بالمحدود، واللامسئول بالمسئول! والمتجاوز المطلق بالمتجاوز وفق إطار زمانه ومكانه فقط!

تبسَّمت ساخرة وهي تتمُّ في أعماقها: كيف كنتُ أقيس العدالة الإلهية بالعدالة البشرية! إنَّ هذا هو خطئي، كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل والأمر بهذه البساطة؟!

رقَّت عيناها فنظرت إلى الأفق وهي تتمتم: إنني حمقاء بالفعل. إن ما ينقصني ليس التفكير، بل الإيمان؛ الإيمانُ الذي فقدته بعدما سمحت لليأس بأن يتملَّكني، لقد كان أريان على حق، إنني غارقة في اليأس، ولم أكن أعلم أنَّه كان شيئًا فشيئًا يدفعني إلى الموت، الوقوف بعجز والتذمر ما هو إلا موت بطيء، وهذا ما كنتُ أفعله على الدوام.

هل تُساعدني؟

جاءها هذا الصوت من الخلف؛ فالتفتت فوجدت كنديدَ يحمل بين يديه شتلات صغيرة، أردف: أتساعدني في غرسها؟

ابتسمت موافقة، وساعدته في حمل بعضها ثم تبعته إلى المكان المقصود حيث وجدت مجموعة من الرجال يزرعون، ساعدته على الحفر ووضعت بعضها بيديها في الأرض وسوَّت التراب ثم راحت تمسح ما علق في وجهها، ولم تكن تُدرك أنَّها قد زادته سوءًا، تبسَّط كنديد لها وهو يعلِّق: لا أعلم ما الذي سيقوله الأمير إن شاهدك على هذا النحو؟!

نفضت يدها ولاحت على وجهها نظرة متفاجئة كتلك النظرة التي تظهر على وجوهنا عندما ننسى أمرًا أو ننشغل عنه ثم نذكره فجأة، وقالت: الأمير! لقد غادرت ولا أدري هل استفاق أم لا؟

نفض كنديد يده ووقف معتدلًا وهو يجيبها: لا تقلق، أنا متأكد أنَّه بخير.

ألقى نظرة حوله ثم أردف: لقد زرعنا شجرنا. لنذهب الآن.

نفضت يدها هي الأخرى ووقفت تتأمل الأشجار التي زرعتها للتو واستحضرت في ذهنها الوصية النبوية الخالدة: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"، فابتسمت مطمئنة وهي تؤكد لروحها: نعم،

إنَّ الاستمـرار هـو مـا يُعطي الحياة معناهـا، والتوقف ليس إلا من نصيب الأموات. يجبُ أن أحفظ هذا جيدًا.

ثـم تبعـت كنديـدَ، وكان عليها أن تحتمـل دقائق من الرعـب على ظهر الحصان حتى تصل إلى القصر. رافقها كنديد وهو يتحدَّث معها عن بعض أمـور المكتبة ولـم يفترق عنها إلا فـي منتصف الطريـق، فتابعته وحدها، ساقتهـا قدماها إلى غرفة الأمير. كان الممر شبه مظلم؛ فقد تأخر الوقت، ولا شك أنَّه نائم الآن، اقتربت من الباب، وترددت لحظة هل تطرقه أم لا؟! لـو أنَّها تشاهد بياتريتشا الآن على الأقل لتطمئن عليه، لكن يبدو أنَّ الجميع قد خلد للنوم.

عـادت أدراجها، وما إن انزوت إلى الممر الـذي يُؤدي إلى غرفتها حتى فُوجئـت بوجـود شخـص مـا، كان واقفًا كمن ينتظـر شخصًا مـا، تقدَّمت خطوتين وعرفت أنَّه الأمير فتوقفت، وأحسَّت بفرح طفولي يملأ عينيها، أمَّا هو فقد شعر بوجودها أو أنَّه شاهدها، لم تعد تُدرك أين الحقيقة. دنا منها وهو يسأل: هاملت، أعدتَ أخيرًا؟!

ثم توقف أمامها مباشرة وهو يسأل: أين كنت؟!

أمعنـت النظر إليـه ثم خفضت عينيهـا إلى الأسفل إلـى موضع جرحه وسألت: هل أنتَ بخير الآن؟!

أجابهـا وقد بانت على ملامحه لهفة الاشتيـاق: دعك مني؛ لقد اعتدت مثل هذه الإصابات. إنني بخير ولكن أين كنتَ كل هذا الوقت؟!

أثـار إصـراره استغرابها ومع ذلك أجابته: كنتُ مـع الشيخ أيمن، أعني تسعة عشر.

ابتسم وهو يعلّق: هذا يعني أنَّك بخير.

أومـأت موافقـة، ثـم فُوجئت به يمدُّ ذراعـه وأحاط رقبتهـا معانقًا كما يُعانـق الأصدقـاء بعضهـم، وراح يربِّت على ظهرها وهو يقـول: إنني سعيد لأنَّك بخير. لكن لا تفعلها مرة أخرى، لا تُغادر القصر دون إخباري.

ثم اعتدل وافترَّت شفتاه عن ابتسامة رقيقة وهو يُردف: حسنًا، نم هانئًا هذه الليلة وسنتحدث غدًا.

ثم استدار وهو يُلوِّح بيده ويتمُّ: تُصبح على خير.

صاحت "لحظة" لتُوقفه. ثم سرعان ما أدركت أنَّ الصيحة لم تتجاوز شفتيها وتلاشت في أعماقها المضطربة، تابع الأمير سيره حتى انزوى آخر الممر، ثم أحست بقوة عظيمة ترغمها لتجثو على ركبتيها فجثت، أزَّها ألم فظيع في فخذها اليمنى وظهرها فتكوَّمت على نفسها ، ثم ظهرت بقعة من الدماء على فخذها، وشعرت بالدماء وهي تسيل من ظهرها.

كشفت عن ساقها لكن لم يكن به أي جرح!

سكنها رعب ثبتها في مكانها وهي تُحدِّق إلى آخر الممر ثم ارتجفت شفتاها كاشفة عمَّا تفكر فيه: لقد فهمت الآن فقط، أنا والأمير واللوحة مرتبطون بعضنا ببعض بطريقة ما!

ظلَّت في مكانها دقائق وقد بردت جوارحها ثم تمكَّنت أخيرًا من النهوض ودخول غرفتها، كانت تمشي منحنية الظهر مسدلة الذراعين كأنَّها قد أصبحت فجأة (أحدب نوتردام)، وقعت عيناها على اللوحة، وعلى الرغم من تعبها فقد كانت تشعر بشيء يَشُدها إليها، في أعماقها كان صوت يهمس في أذنها أنَّ ثمة تغييرًا آخر قد حصل فيها، فاقتربت منها ونزعت الثوب، وما خمَّنته كان صحيحًا ولكن ليس كما تصورت، فلم تزدد اللوحة عتمة هذه المرة. بل انحسر جزء من العتمة وحلَّ محلّه ضوء واضح أثار استنكارها.

لكن حالة جسدها كانت تعوقها عن أي تفكير فتابعت طريقها ورمت نفسها على السرير وراحت تتنفس بصعوبة، تذكَّرت فجأة أنها عندما كانت مع عطيل ودخل الطبيب الكوخ وخرجت هي، شعرت بالألم الذي تشعر به الآن! وعندما عادت إلى الكوخ خفَّ الألم! فهل قُربها وبعدها عن الأمير هو ما يُحدث هذا؟! ولكن لم تشعر إلا بألم بسيط طوال هذا اليوم!

دون مزيد من التفكير وجدت نفسها وقد أنزلت ساقيها من السرير ونهضت ثم سحبت نفسها وخرجت من الغرفة قاصدة غرفة الأمير. كانت تشعر بخفة جسدها كلما اقتربت، وما أثار دهشتها أن كل الألم الذي كان يُثقل جسدها قبل لحظات قد اختفى تدريجيًا ما إن وقفت أمام بابه.

إن ما خمنته إذن كان صحيحًا. اتكأت على الباب، وراحت تتنفس بعمق، حاولت أن تُبقي جفنيها يقظين لأطول فترة ممكنة ولكنَّهما كانا أقوى منها، رأت نفسها في ثوب عشبي اللون، ممسكة بيدها وردة حمراء وبنفسجية، ومن علوٍّ كانت تنظر إلى بحيرة محاطة بالأعشاب من كل مكان، كانت تبدو هيئتها كهيئة أوليفيا هاملت، في لوحة (جون ميليه) وهي ترمي نفسها في البحيرة، كانت ساقاها تدفعانها لتقفز، إلا أنَّ جسدها كان يمنعها بقوة، لكن في النهاية انزلقت قدماها وسقطت.

وانتفض جسدها بعد أن لمسها الماء، نفضت وجهها وفتحت عينيها لتجد بياتريتشا فوقها ممسكة برميل الماء الذي أفرغته فوقها مثل المرة السابقة.

التقطت أنفاسها المذعورة ثم صاحت مستنكرة: ما الذي فعلتِه؟!

خفضت يديها وهي تجيبها: بل ما الذي تفعله أنت بالنوم في غرفة الأمير مرة أخرى؟! لقد جعلت الأمير ينام على الأريكة!

تلفتت حولها واستوعبت أنَّها تجلس فوق سرير الأمير، فتساءلت: كيف وصلتُ إلى هنا؟!

ثم نظرت إلى بياتريتشا التي كانت تحدجها بحدة وهي تقول: أتود أن تقنعني بأنَّ شبح كانترفيل* حملك إلى هنا مثلًا؟!

تنهدت بتذمر وشرعت تمسح الماء عن وجهها وردَّت بفتور وغيظ: شبح كانترفيل المسكين سيكون هنا بجوارك أشدَّ معاناة مما لقيه، أليس عندك أسلوب آخر للإيقاظ؟! أنت قاسية معي!

---

* إشارة إلى قصة ساخرة لأوسكار وايلد بعنوان (شبح كانترفيل). وهي تحكي معاناة شبح إنجليزي مع عائلة أمريكية لا تؤمن بالغيبيات والميتافيزيقيا، وتعتقد أن كل شيء بوسع العلم أن يحله.

في تلك اللحظة كان الأمير يهمُّ بفتح باب الحمام بعد أن أنهى استحمامه ووصله حديثهما الأخير، فتح الباب وسأل: ما الذي فعلته يا بياتريتشا؟!

وضعت البرميل على الأرض واعتدلت وهي تجيبه: لا شيء، لقد رحمته، كان غارقًا بالأتربة والغبار فحممته.

تبسَّمت مغتاظة وهي تردُّ: لستِ مضطرة لذلك.

دنا الأمير منها وهو يسأل: ما الذي كنت تفعله عند الباب؟!

تذكرت ما الذي دفعها إلى المجيء فارتبكت وهي تُجيب: في الواقع لم أستطع النوم وشعرت بالأرق فجئت إلى هنا.

سأله مستنكرًا: ولماذا لم تطرق الباب إذن؟!

هربت بعينيها لتُخفي حرجها، ثم نهضت وأجابت: لا أعلم، ولكن يبدو أنَّ النعاس غلبني قبل أن أتمكن من فعل ذلك.

لم تُقنع إجابتها الأمير ولا بياتريتشا التي رمقتها بازدراء قبل أن توجِّه حديثها إلى الأمير قائلة: لقد تذكرت، لقد جئتُ إلى هنا لأخبرك بأن الأمير دوريان جاء لزيارتك.

شعور الثقل الذي ألمَّ به جعل بريق وجهه يخفتُ وتبرد ملامحه وهو يكرر: دوريان! دوريان إذن، حسنًا.

أما الكاتبة، فقد كانت غارقة في الحرج والماء، وكان فؤادها يخفق باضطراب شديد عجزت عن تفسيره، أشارت لبياتريتشا بحركة تنمُّ عن الرغبة في الانصراف، فأومأت لها موافقة، وعلى الفور خرجت من الغرفة تاركة خلفها قطرات الماء تدل على مكان خطواتها، أغلقت الباب ثم ابتعدت قليلًا، ولكنَّها شعرت بالألم يعود إليها من جديد، فجعلها ذلك تتوقف وتعود لتنظر ناحية الباب، لقد شعرت بأنَّ قوة غامضة تدفعها إلى العودة، في تلك اللحظة كانت بياتريتشا قد فتحت الباب، فاستدارت على الفور وأكملت طريقها تُغالب هذه الآلام التي تنبش جسدها، لكن قلبها الذي كان يَخفق على هذا النحو الشديد بدا لها أشدَّ ألمًا من كل ألم!

عانت بشدة حتى وصلت إلى غرفتها منحنية الظهر، كانت أشبه بالإنسان الأوَّلي الموجود فقط في عقل داروين، بينما خرج الأمير من غرفته برفقة بياتريتشا متجهين إلى غرفة المائدة لاستقبال دوريان.

كان دوريان واقفًا أمام غرفة المائدة، وقد لاحظ في وجوه كل الخدم الذين عبروا من جواره نظرات تشي باتهام مخبوء، كأنَّ الجميع قد اتفقوا على اتهامه سلفًا، لم يحتمل هذه النظرات فوجد نفسه مضطرًّا إلى الولوج للغرفة وإغلاق الباب خلفه ثم جلس منتظرًا وصول الأمير الذي لم يغب طويلًا، وسرعان ما ولج تتبعه بياتريتشا.

ما إن شاهده دوريان حتى وقف وأمعن النظر إليه متفحصًا، ثم قال: أرى أنكَ بخير الآن.

لم ينطق الأمير بأية كلمة وظلَّ ينظر ناحيته بوجوم تام، أشاح دوريان وجهه وعبر من جواره وهو يعلّق: هذا جيد.

ثم غادر وتبعته بياتريتشا بعينيها مستنكرة موقف الأمير الغريب وصمته وعدم التفاته إليه أو محاولة إيقافه حتى أغلق الباب خلفه، فالتفتت إلى الأمير وسألت: لماذا لم توقفه؟! لماذا لم تستفسر منه؟! الجميع يظنُّ...

قاطعها بحدة مبالغة: ليس هو.

اعترضت بـ"لكن"، لكنَّه لم يمنحها فرصة للاستيضاح أكثر، وقال: أين هاملت؟! إنني أشعر بالجوع وأريد تناول الفطور حالًا.

أدركت أنَّه لا يريد الحديث عن الموضوع، فتراجعت إلى الوراء مذعنة وقالت: حسنًا، سأناديه الآن، ثم خرجت من الغرفة ومضت في طريقها نحو غرفة هاملت، ولم تكن تدري أنَّ هاملت قد خرج بالفعل من غرفته وسلك طريقًا آخر ووصل إلى غرفة المائدة، وقد تلاشت جميع آلامها أمام الباب، فأيقنت أنَّ الأمير بالداخل، أدارت مقبضه وظهر لها من طرفه الأمير

وهـو جالس في صدر المائدة، ومـا إن دفعته أكثر حتى سمعته يقول ببهجة: اقترب يا هاملت.

أغلقت الباب لكنَّها لم تتقدم وظلَّت في مكانها ممسكة مقبضه. حملقت إليه بريبـة؛ وعندما طال صمتها استثقله وسأل: ما بك واقف هناك؟ لماذا لا تقترب؟!

تركت المقبض وقالت: أنت...مكتبة سُر مَن قرأ

رفعت يدهـا وراحت تُحركها يمينًـا ويسارًا وهي تلاحـظ حركة عينيه، وعندما تحرَّكت عيناه معها، خفضتها وقالت: أنت تبصرني! لا تنكر.

انقبض وجهـه لحظة ولكـن سرعان ما انبسـط عن بسمـة هادئة وهو يسأل: لماذا اعتقدت ذلك فجأة؟!

تقدَّمـت قليـلًا وأمسكت طرف الكرسـي وقالت: ليس فجـأة وأنت تعلم ذلـك، إنَّه شيء غريب حقًّا أن أعتقد أنك مبصر بداية، وعندما علمت أنَّك لا ترى بدأت أشك في أنكَ ترى! ولكنَّك تراني الآن، أنا واثقة.

خفض عينيه وسرح مفكِّرًا قليلًا قبل أن يُجيبها: إنني أرى ولكن...

تنبَّهت معارفها فـأردف: ليس على النحو الذي تعتقده، يُمكنني أن أميز هيئتك، كما أنَّه حدث شيء غريب منذ وصولك.

تريَّث لحظة قبل أن يتمَّ: لقد أصبحت أرى بالفعل ولكن مجرد ضباب أو أشكال لا يُمكنني تمييزها جيدًا.

كانـت تستمع إليه وقد لفَّها الذعر. لقد تذكَّـرت أنَّ بصرها بدأ يضعف بعدما رسم لها رامبرانت اللوحـة. وأنَّ رؤيتها أصبحت شيئًا فشيئًا ضبابية حتـى ظنَّـت أنَّها موشكة علـى فقد بصرها فـي أية لحظة. فهـل يُؤكد هذا شكوكها في أنَّها والأمير واللوحة مرتبطون بعلاقة ما؟! وهل هذا يُفسر قوله لهـا في كوخ عطيل: "إن فتـح عينيك لا يعني أنكَ تـرى، وإغلاقهما لا يعني بالضرورة أنكَ لن ترى". أكان يعلم ويُعزِّيها بقوله هذا؟!

انهـارت متكئة على الكرسي، لم تقوَ على التحمـل أكثر، وأفصحت عمَّا ينتابهـا مـن مشاعر مرهقة وقالـت: لقد تعبت من كل هـذه الألغاز، أجبنـي أرجوك: من تكون أنت؟!

هـزَّت رأسها حائرة ثم شعرت برؤيتها تُصبـح ضبابية وهي تتمُّ: لا، بل من أنا؟! وما الذي أفعله هنا؟! أعتقد أنَّك تعرف كل ذلك.

كان الأميـرُ قادرًا على الشعور بألمها وعمق إحساسها بالحيرة والضياع مـن صوتها، لذلك نهض، وما إن همَّ بالإجابـة حتى فُتح الباب وظهرت من خلفه بياتريتشا بوجه مصفر وهي تقول: سيدي الأمير إن...

لـم تكمل كلامها، لقـد كان المعنيّ قد ولج الغرفـة بالفعل، وقعت عيناه أولًا على المتكئة علـى الكرسي. ولكنّه تجاهلها وسرعان ما نظر إلى الأمير واندفـع نحـوه، لم تُصدق ما تـراه؛ فمن أمامها الآن لم يكـن سوى صاحب اللوحة؛ الملك لير!

أمسـك كتفي الأمير وراح يتفحَّصه بعينين قلقتين وهو يسأل: أنت بخير الآن؟! من الذي يجرؤ على أن يمسَّك بسوء؟!

ثـم عانقـه لحظات وعاد يقول معبـرًا عن قلقه ولهفتـه وخوفه عليه: لم يُخبرني أحد بالأمر، اللعنة عليهم جميعًا.

أوقفـه الأمير وقال له موضِّحًا: لا بأس جلالتـك. إنَّني بخير، هو حادث بسيط.

حادث؟! كرر مستنكرًا.

فأكَّد له الأمير بقوله: نعم، لقد كانوا مجرد قُطَّاع طرق.

اعترض الملك: ولكنِّي سمعت أنَّهم جنود من القصر!

لاحـت على شفتي الأمير ابتسامة مطمئنة ومتهكِّمة في الوقت نفسه وهو يجيبه: لو كانوا من القصر لعرفتهم يا والدي، ولكنَّهم قُطّاع طرق.

ثم وجَّه أنظاره ناحيتها وقال: اسأل السيد هاملت، كان معي وشاهدهم.

التفــت الملك ناحيتها؛ فأرتج عليها الأمر قبــل أن تجيب: نعم، صحيح، لقد شاهدتهم.

ثم نظرت إلى بياتريتشا التي كان من الواضح لها تواطؤهما على الكذب، أمــا الملك فقد صــرف نظره عنها وربَّت على كتــف الأمير وقال: المهم كن بخير، وانتبه إلى سلامتك. سأعاقب كينت لتركه إياك.

احمَّــر وجه الأمير وقــال: كلا، أرجوك يا والدي، لا أحد يتحمل مسئولية ذلــك سواي، ثم إن كينت تركني مــع السيد هاملت، وهو قد أدى واجبه على أكمل وجه.

تذكرت الموقف جيدًا فشعرت بالحرج وهربت بعينيها إلى الأسفل، بينما تابــع الملك حديثــه مع الأمير ليُطمئنه ويُوصيه، ثم غــادر المائدة، وعندما أغلــق الباب خلفه شعرت برجفة باردة تضرب قلبها، رفعت عينيها فوجدت الأميــر ينظر إليهــا، عمَّ صمت بينهمــا إلا من أحاديث كانــت تتصاعد من أعماقهما ثم تتلاشى سريعًا، كانت بياتريتشا تراقبهما مستنكرة، تشعرُ بأنَّ هناك أحاديث بينهما ولكن بلا صوت؛ فلم تجرؤ على نطق كلمة أو التحرُّك من مكانها أو إحــداث أية إشارة من شأنها أن تقطع هذا الحديث الصامت بينهمــا، ثم لاحظت عينيّ هاملت وهما تذبلان شيئًا فشيئًا ثم أشاحت بهما وعبرت من جوار بياتريتشا دون أن تقول أي شيء وأغلقت الباب خلفها.

مشــت لا تــدري إلى أين بالضبط، أرادت أن تبتعــد وحسب، على الرغم مــن ذلك الثقل الذي تشعر به كسلسلة من حديد تُقيدها وتُعيدها إليه، فكل محاولــة للابتعــاد عنه لا تعني سوى مزيــدٍ من الألم والوجــع، ولكنَّها كانت بحاجة لذلك، بحاجة إلى ترتيب أفكارها بعيدًا عنه وعن صخب بياتريتشا، اتجهــت إلــى المكتبة ولــم تصلهــا إلا بعد أن غالبــت ألمًا فظيعًــا ليستقيم ظهرها، عبرت من جوار نمــوذج الكرة الأرضية، واستوحشت هدوء المكان ثم صعدت درجات السلم، وعندما وصلت وجدت المكتبة خالية من أي زوار، حتــى كنديد لم يكن موجودًا! أثار ذلك استغرابهــا، ألقت نظرة على مكتبه

فوجـدت كأس قهوة يتصاعد منه البخار فخمَّنت أنَّه قد خرج لقضاء شيء، اتجهـت ناحية الرفوف ثم توقفت بعدما لاحظت طيفًـا قد عبر أمامها تلته صـور متتالية؛ كتابٌ ساقط على الأرض، ومصبـاح، ودرج يخرج من طرفه جزء من ورقـة تمرَّدت، شعرت بأنَّ الرفوف أمامهـا تهتزُّ، فنفضت رأسها، ثـم شعرت بغاشية تُحيل بصرها إلى سواد فـدوت منها صيحة فزع، وجثت علـى الأرض تحتضن ذراعيها إثر رعشة باردة لفحتها فاهتزَّت لها العظام، كانـت ذاكرتها تستحضر ذلك المشهد بطريقـة ناقصة وشعور مختلف كل الاختلاف، فتحت عينيها فأبصرت كل شيء ثابتًا مكانه، فأدركت أنَّ ما كان يهتزُّ هو كيانها وحسب، ولاحظت أنَّها لم تعد تبصر آخر الرفوف كما كانت تبصرها قبل لحظات!

أحاطت وجهها بكفيها، وراحت تلتقط أنفاسها مثل غريق يصارع الموج ثم فرَّت منها صيحة فزع عندما أمسكت يد أحدهم كتفها فجأة، فانصرفت إليه، كان الواقف هو أريان، وكان وجهه شاحبًا بما يكفي لتُدرك أنَّه رأى كل ما حدث معها، سألها: ما بك؟ لماذا أنت مذعور هكذا؟!

زوت مـا بين عينيهـا وخرجت من فمهـا الكلمات مفصحـة عن خوفها وقلقها: إنني أفقد بصري شيئًا فشيئًا! وأنت...

أمسكت طرف قميصه وشدَّته إليها، كان واضحًا أنَّ أعماقها قد انهارت كليًّـا وهي تردف بانفعال: لمـاذا يبدو الأمر كأنَّ كل هـذا مرتبط بك؟! في حين أفقد بصري تسترده أنت؟! إنني حائرة.

زمَّت شفتيها بألم ورمقته بنظرات تستجدي منه أي جوابٍ لكنَّه لم يكن يُبـدي أية إيمـاءة، تابعت شدَّ قميصـه إلى الأسفل بقوة أكبـر لتُرغمه على الانحناء وهي تسأل: أخبرني من أنت؟!

استجـاب لهـا وانحنى جالسًا علـى إحدى ركبتيه، كان قـادرًا على رؤية شفتيهـا المرتجفتيـن وتمييز لون بشرتها، وإدراك مـدى رغبتها في معرفة الحقيقة، فأجاب: إنني أريان.

هزَّت رأسهــا رافضة وابتسمت بيأس وخيبة، ثــم انفعلت قائلة: أريد أن أفهم، من تكون بالضبط؟! ثم لماذا جئتُ إلى هنا؟! إنَّني أشاهد شخصيات روايــات قرأتها! وشخوص لوحات أحببتها أو عرفتهــا؟! أكاد أجنّ! ما الذي جاء بي إلى هنا؟ ولماذا؟ وما الذي عليّ فعله؟! وكيف أصبحتُ هاملت؟! كما أننــي أخشى من العمــى، إنَّني أسألك لأنني أعتقــد أنَّك الوحيد الذي يملك الجواب، كما أنَّك مرتبط بي بطريقة ما، هكذا يبدو لي الأمر.

تريَّــث عابسًا قبل أن يجيبها: لقد أخبرتــك بالفعل منذ أول مرة قابلتك فيها.

لاحــت على وجهها ملامح الخيبة والتساؤل وهي تردُّ: ولكنّي لم أفهم ما قلته!

أراحت كفها فوق ركبته تستجديه، وأردفت: أخبرني مجددًا، أرجوك.

تبسَّــم بألــم وهو يجيب: لقــد أخبرتكَ بأنَّنــي سعيد؛ لأننــي تمكَّنت من إحضــاركَ إلى هنا. أم هل عليّ أن أتوقف وأقــول بكل صراحة لأنني تمكَّنتُ من إحضاركِ إلى هنا؟

لاحظــت اختلاف أسلــوب مخاطبته لها، فتيقَّظت معارفهــا ثم أشاحت بعينيها هربًا، شعر بارتخاء كفها الممسك بركبته، همَّت بسحب يدها ولكنَّه حال دون ذلك وثبتها بكفه، وقال مطمئنًا: أعلمُ أنكِ تتساءلين الآن، إن كنتُ أعرفكِ بالفعل وقمتُ بإحضاركِ فلماذا تابعتُ معاملتكِ كهاملت، سأجيبك ببساطة: لقد شعرتُ بأنَّ هذه هي رغبتكِ.

صمــت لحظات قبل أن يتبع: وقد أحضرتكِ إلى هنا، لأنني شعرتُ أيضًا بــأنَّ هــذه هي رغبتك، وبأن هذا مــا يجبُ عليّ فعله؛ لذا عليــكِ ألا تسمحي لليأس بأن يُسيطر عليــكِ مجددًا؛ في كل مرة ستقعيــن فيها فريسة لليأس تأكدي أنني سأُحضركِ إلى هنا.

أرتــج عليهــا ولم تعد تفهــم شيئًا، غضَّت طرفهــا ذاهلة، وشيئًــا فشيئًا شعرت بفيضــان من الدموع يغشى عينيها، حاولت أن تدحرها لكن ألواحها

تكسرت فور أن نظرت إلى عينيْ أريان ونطقت: يائسة؟! لستُ أدري، ولم أعد أدري، في الواقع أنا أشعر بندم فظيع، أخبرني أرجوك: كيف للمرء أن يمتلئ بدموع لا يعلمُ كنهها؟! وكيف يُغرقه ندم موجع وهو يملكُ ذاكرة من بياض؟!

تبسَّم بوجع؛ فهو أكثر من يعرف السبب، ومع ذلك وجهها إلى جواب آخر عندما قال: لأنَّه في الحقيقة لا شيء ينتهي، لا شيء مما نعتقد أنَّه انتهى قد انتهى بالفعل، إنَّ كلمات كالمغفرة أو النسيان أو الزمان كفيلة بدغدغة شعورنا ودفعنا للاستمرار، بينما الحقيقة التي نغضُّ أبصارنا عنها هي: لا شيء ينتهي بالمغفرة ولا النسيان ولا الزمان؛ إنَّ ما ينتهي هو نحن فقط.

افترَّت شفتاها عن بسمة يائسة وساخرة في الوقت نفسه وهي تكرر: لا شيء ينتهي!

تغضَّن وجهه متأثِّرًا وهو يعيد طرح ما قالته له في الغابة: نعم، هذه حقيقة، لكن كما يتوجَّب علينا أن نعيش أفراحنا؛ علينا أيضًا أن نعيش أوجاعنا.

لماذا تبتسمين في حين يجبُ عليك أن تبكي؟! وتعتقدين أن عدم التفكير في الحزن كفيل بمحوه؟! لماذا تَخجلين من عواطفك النبيلة وتحمِّلينها معنى فوق معناها؟! إنَّ هذا بالضبط هو سر تعاستك. سأخبركُ بشيء وعليكِ أن تحفظيه جيدًا: إنَّ نفسك ليست ملكًا لكِ، وينبغي ألا تكون كذلك.

سقط آخر ألواح مقاومتها، وجرت دموعها على خدها فخفضت رأسها وحاولت كتم بكائها، لكنَّها لم تستطع، إذ سمعته يقول: ها أنتِ تفعلين ذلك مجددًا؟! إلى متى تعتقدين أنَّ بإمكانك كبح دموعك؟! إنَّ واحدًا من أسباب يأسنا وانهيارنا هو أننا لا نعيشُ ألمنا أيضًا كما ينبغي، لا تسمحي لأحد مرة أخرى بأن يحاكم حزنك.

لم يردف بعدها بشيء، وشعر بأن وجوده الآن بجوارها يُثقل عليها، لذلك نهض، وما إن ابتعد خطوات حتى سمع صوت شهقاتها وهي تخرج

منهـا متمردة، فعاد وانحنى وشرع يربِّت على ظهرها فازداد بكاؤها، وحنت جسدها كله على الأرض كأنَّها تهرب منه وتعانق الأرض.

فـي تلك اللحظـة سمعا صوت ركض على السلم فرفعـت ظهرها ولكن لـم تجرؤ على النظر ناحية الباب الذي ظهر مـن خلفه كينت مذعورًا، وهو يقول: سيدي، كنتُ أبحث عنك، أتعلم ما الذي حدث؟!

اقترب منــه وتابع: لقد أعدم الأمير دوريان سرًّا أربعة رجال، يُشتبه في أنَّهم هم الذين هاجموك!

نهض الأمير وسأل مذعورًا: ما الذي تقوله؟!

لاحت على وجهه حيرة قبل أن يجيبه: لا أدري يا سيدي، هذا ما وصلني.

كـزَّ علـى أسنانه ثـم علَّق: الأحمـق، لماذا فعـل ذلك؟! إنَّـه بهذا يثبت الجريمـة عليـه؛ لو كانوا هـم حقًّا فسيقـول الناس الآن: إنــه تخلَّص منهم لفشلهم.

اعترض كينت باستغراب: ولكنَّه هو من بعثهم بالفعل!

حدجه بنظرة أثارت ذُعره وأربكته فسأل بتردد: أليس هو؟!

هزَّ أريان رأسه نافيًا وقال: إنني أعرف أساليب دوريان جيدًا.

ثم صمت قليلًا قبل أن يسأل: أين الجثث؟! هل دُفنت؟!

- كلا، بلغنــي أنَّــه قتلهم قبل قليل فقــط، ولا أتوقع أنَّه تـم دفنهم بهذه السرعة.

الشهقــة التــي فرَّت منهــا جعلت كينــت ينتبه لوجودهــا، فخفض عينيه وشاهدها متكومة على نفسها خافضة رأسها لا تنظر لأحد، فقال مستنكرًا: سيد هاملت! لم أنتبه إلى وجودك؟! غريب! ما الذي تفعله هنا؟! هل يؤلمك بطنك؟!

لم تُجبــه خشية أن يفضحها صوتها، أدرك ذلــك الأمير فقال ليصرف انتباهه: حسنًا، اسبقني أنت وسألحقُ بك، يجب أن أشاهد الجثث.

بتردد: هل ستتمكن من معرفتهم؟!

أومأ موافقًا ثم أردف: كما أن السيد هاملت قد شاهدهم جيدًا.

رفعـت رأسها تنظر فلمحت كينت وهو ينظـر إليها، فعادت لحالها حتى انصـرف، ومـا إن سمع الأمير آخر خطوة له على الـدرج، حتى التفت إليها وقال: يجبُ عليكِ أن ترافقيني الآن.

مسحـت دموعها بحـرج بالغ وهي تهـمُّ بالوقوف وتقـول: لا أعتقد أنَّني شاهدتهم جيدًا، في الواقع...

قاطعهـا بقوله: ليس من الضروري أن تشاهدَ جيدًا. هناك أشياء تُعرف دون النظر إليها.

ثـم تبسَّط وجهـه لها قاصدًا بذلك التخفيف من وطـأة ما تشعر به وهو يتبع: تكون أو لا تكون! هذه هي قضيتك الآن يا سيد هاملت.

ثم استدار واتجه ناحية السلم، بينما ظلَّت تتابعه بنظراتها حتى انزوى، مسحت بقايا دموعها ثم أسرعت لتلحق به.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

إنَّ رغبتنا في التخلصِ من كل شيء حولنا ما هي إلا رغبة مقنَّعة في التخلص من أنفسنا.

كان إيجاو يركض في الممرات قاصدًا غرفة الأميرة هاري، وعندما وصل فتح الباب دون أن يطرقه؛ كانت علاقته بالسيدة تسمح له بذلك، وجدها جالسة أمام المرآة وإحدى خادماتها تهذّب لها شعرها، فانصرفت أنظارهما تجاه الباب الذي كشف عن وجه إيجاو المذعور؛ فوقفت وانساب شعرها الناعم على كتفيها وهي تسأل: لماذا وجهك مصفرٌّ هكذا؟!

حرَّك عينيه يمينًا ناحية الخادمة الواقفة بجانبها ثم إلى وسط الغرفة حيث وقفت أخرى كانت تُعد الشاي، ففهمت أنَّه أمر خاص فأمرتهما بالمغادرة، ثم دنت منه فعاجلها بالنبأ: سيدتي، إنَّ الأمير دوريان فَقَد عقله.

قطَّبت حاجبيها مستاءة؛ لم يطب لها ذكر ابنها بهذا السوء حتى لو كان على لسان عشيقها المتيَّم، فطن لذلك فاستدرك قائلًا: اغفري لي يا أميرتي، لكنَّه يُفسد كل ما نفعله، لقد قتل رجالي الأربعة.

انكمش وجهها لحظة ولكن سرعان ما عَلَتْها نظرة تشفٍّ وهي تردُّ: إنَّهم حمقى ويستحقون ذلك، لقد جرحوا أريان ووضعونا في موقف حرجٍ. لقد أحدثوا بلبلة ويستحقون.

ثــم تريَّثت قبل أن تتمَّ: المهم أنَّهم تمكَّنوا من سرقة الختم. هل أعددت الخطاب؟ سمعت أنَّ سفير (أركاديا) سيَمثل أمام الملك بعد أيام.

حــاول ابتلاع ما أبدته من حنق وتشفٍّ وانصرف إلى شأن السفير وقال: الحمقــى! أيعتقدون أن لير سيوقف الحرب من أجل معاهدات سلام؟! حتى لــو أعلنوا العصيان وتوقفــوا عن إمداده بالجنود. لير يمكنــه أن يستمر في حربه ويستمر في إذلال (أركاديا) و(شامبلا)*.

ضحكــت بتصنُّع وهي ترد: هــذا في صالحنا، الجميع يعــرف أنَّ الأمير يرفضــ سياســات والده في غزو مملكــة (إل دورادو)** وأنَّه يسعى للسلام، ولا تنسَ تصرفه الطائش سابقًــا عندما مثل أمام مبعوث (شامبلا) وطلب منهــم التوقــف عن دعمنا فــي حــرب (إل دورادو)، إن دسَسْنــا خطابًا مع السفيــر المسكين مختومًا من قِبل الأميــر، يَعِد فيه (أركاديا) بالاستقلال، وفيه تصريح أو تلميح بنيَّة إسقاط والده دون علمه...

رمقتــه بنظرة ماجنة قبل أن تستدير وتتجه إلــى المرآة وتتبع: فإن هذا من شأنه أن يقلب كيان لير ويفقده صوابه.

استجــاب لتلك النظرة التي قلبت كيانه هو وأحاط خصرها بيديه ونظر إليهــا في المرآة وقــال: ولكنِّي أخشى أن لير لن يجرؤ علــى قتل الأمير، في المــرة السابقــة كان كل ما فعله له هو فرض إقامة جبرية ثم رفعها عنه بعد شهريــن فقــط، وبعد أقــل من عام منحــه منصب ولي العهــد! إنَّ لير يتخذ قراراته عبثًا.

---

* (شامبــلا) مدينــة أسطوريــة مخفية مــن الميثولوجيــا البوذية. أطلــق عليها أسمــاء كثيرة؛ منها (الأرض المحظورة) و(بلاد المياه البيضاء) و(أرض الأرواح المشعة) و(بلاد النار الحية) و(أرض الأحياء) و(أرض العجائب).

** (إل دورادو): مدينــة أسطورية، وإل دورادو هو الاسم الذي أطلق في البداية على ملوك أو زعماء الكهنة في إحدى قبائل أمريكا الجنوبية، إذ يقال: إنه كان يغطي نفسه بغبار الذهب في احتفال ديني سنــوي يقام قرب سانتا في دي بوغوتا، كولومبيا. وقد ذكرها فولتير في روايته (كنديد)، قام كنديد بزيارتها.

أمالـت رقبتها قليلًا إليه وهي تُجيب: أحيانًـا تبدو لي أحمقَ! ألا تعلم أنَّ أشـدَّ الضربات وجعًا هي تلك التي تأتي ممـن نُحبهم، إنني أعرف لير أكثر مـن أي شخصٍ آخر، لقد تغيَّر لير، لقد كبـر وزاد حرصه وملأ الشك قلبه وأصبـح ينظـر إلى كل مـا يخص عرشه كمـا ينظر إلى عقـدة غوردية* ولا يُعالجها إلا بسيف الإسكندر.

صمتـت لحظة عبست خلالها شفتاها واتقدَّ في عينيها إصرار آثم وهي تتمُّ: بأي طريقة كانت، يجبُ إبعاد الأمير عن العرش، إذا تولَّى العرش ذات يـوم فإن أول ما سيقوم به هو إعلان استقـلال المملكتيْن وإيقاف غزو (إل دورادو) وإبعادنا عن هنا.

لاحـت على شفتـي إيجاو ابتسامـة ساخـرة، والتمعت فـي عينيه رغبة ماجنـة في تقبيلها، لمحتهـا ولكنَّها تظاهرت بالحمق تدلُّـلًا وعادت تُسرِّح شعرهـا وهي تقول: أرجـوك يا إيجاو، قـل لمبعوثك أن يخبـر السفير على الأقل أنَّه يحمل خطابًا خطيرًا قبل قتله، لا تَدَعْه يمُت دون أن يعرف السبب، إنَّـه شعور قاسٍ أن يموت الإنسـان دون سبب يا عزيزي! كيف وقد قدَّم إلينا خدمة جليلة بقدومه إلينا! إنَّه يستحق أن نزرع على قبره الخشاش.

جذبهـا إليـه مجبـرًا إياها للالتفـات نحـوه، مالت عيناه نحـو شفتيها الحمراوين وعلَّق: وأنا ألا أستحق أن أرتوي من رحيق خشاشك؟!

ثـم مال ليُقبِّلهـا ولكن في تلك اللحظـة كان الباب قد فُتـح، لقد نسيت هاري أن شخصًا آخر غير إيجاو يملك سلطة الدخول عليها دون قرع الباب، انصرفا إليه بفزع، كان دوريان واقفًا وقد لمح ما همَّ به إيجاو وفهم الوضع جيدًا، فتقدَّم إليهما، كانا قادرين على رؤية الشرر وهو يتطاير من عينيه.

توقـف على بُعد خطوات منهما، ولاحـت على وجهه علامات الاشمئزاز، لقد كره رائحة الخيانة التي فاحت منهما؛ ففضَّل الوقوف بعيدًا، أدرك ذلك

---

* عقدة غوردية: هي أسطورة تتعلق بالإسكندر الأكبر عندما قام بقطع العقدة بسيفه، وهي ترمز إلى كل مشكلة جسيمة يتم التعامل معها باتخاذ قرار حاسم وسريع.

إيجـاو فنفض يديــه التي كانت تحيــط بخصـر الأميرة وارتبــك حتى احمرَّ وجهــه، أما هــي فقد كانت أكثر تماســكًا وصفاقة منه، ســددت إلى دوريان نظــرات حانقــة لكن الإثم يبقى علــى الدوام قادرًا علــى تحطيم كل كبرياء مصطنــع، فسرعان ما انهزمــت وهربت بعينيها عنه، مدَّ يــده وقال موجِّهًا حديثه لإيجاو: أعطني الختم.

فوجئا بمعرفته بالأمر ولاحت علــى وجهيهما علامات الفزع والاستنكار وهما يرمقان بعضهما، ثم وجَّه إيجاو نظرة إليه وسأل متغابيًا: أي ختم؟!

ردَّ بانفعال: الختم الذي سرقه رجالك من الأمير.

جمــد وجه إيجاو، ومالت عيناه نحو هاري مستنجدة، لكنَّها هي الأخرى كانت عاجزة عن التفكير؛ فالتزمت الصمت.

اقترب دوريان وهو يزمّ شفتيه الغاضبتين ثم نطق: أعطني الختم فورًا.

استجاب له إيجاو علــى الفور وأدخل يده في جيبه وأخرج الختم المعلَّق بسلسلــة ثــم ناوله إياه، أدخله دوريان في جيبه ثم عــاد لينظر إليه وهو يمدُّ يده ويردف: والخطاب؟

ازدرد ريقــه ولاح الرعــب في عينيه ونظر إلى هــاري، وبات من الواضح لهما أنَّ دوريان قد تنصَّت عليهما، فأشاحت عينيها دون أن تُشير له بشيء. اقتــرب منه دوريان ووضع يــده على مقبض سيفه وهو يعلِّــق: عزيزي، إنَّني أعلم أنَّ الخطاب معك، ولَكَمْ يؤذي شعوري أن أستخدم هذا الأسلوب.

ثــم أخــرج السيــف من غمــده فنطقت هــاري أخيــرًا: ما الــذي تفعله، دوريان؟!

أخرسها بقوله: أنتِ، لا تتدخلي.

أدرك إيجــاو أنــه لا حيلــة لديه، فأخــرج الخطاب وناولــه الأمير، فتحه فوجــده مختومًا كمــا توقع، حدجه متوعــدًا ثم اتجه ناحيــة المدفأة وقذف الخطــاب لتلتهمــه النيــران، ثم التفــت ناحية إيجــاو وســأل: ألديك نسخة أخرى؟!

أجابـه بالنفي وقد لاحت على وجهه علامات الغيـظ وهو يُشاهد خطته تأكلها النيران؛ فعلم دوريان أنَّه صادق في قوله، فعلَّق: حسنًا، صدقتك.

ثم وجَّه نظره إلى والدته وهو يُتمُّ: لطالما كنتُ أؤمن بنزاهتك.

ثـم تبسَّـم فـي سخرية أدركت هـاري من خلالهـا أنـه كان يلومها بها، فأشاحت عينيها هربًا بعد أن أثقلت بشعور الذنب.

غـادر دوريان الغرفة ثم أغلق الباب خلفه بقوة، تاركًا العاشقيْن يندبان فشلهما.

لبست السواد ومضت مع الأمير بعد أن تمكنا من مغافلة بياتريتشا والتسلل مـن القصر بخفـاء، وجدا كينـت بانتظارهما، ثم ركبا العربـة التي قادها كينـت للوصـول إلى قصر دوريـان - لم يكن يبعد كثيرًا عـن قصر الأمير- وفي مكانٍ ما وسط الأشجار أوقف كينت العربة، فنزلت مع الأمير وفوجئت بوجـود شخص آخر يدنو منهم، فأمسكت ذراع الأمير على سبيل الاحتراز، واستنكرت عدم تحرُّز كينت الذي عَبَر من جوارها وقال: ها قد وصلنا.

اقترب المعنيُّ وهو يردُّ: جيد، لقد كنتُ بانتظاركم.

ثم انعكس ضوء القمر على وجهه فبانت ملامحه، لقد كان عطيل.

اطمأنت فأرخت يدها التي تشدُّ على ذراع الأمير وهي تعلِّق: سيد عطيل!

نظر تجاهها وعرفها على الفور وقال: هذا أنت!

ثـم مدَّ يده ليُصافح الأميـر وقد أظهر احترامه وقـال: تسرني خدمتك سيـدي الأميـر. هـل شُفيت جراحـك؟ لماذا أصـررْتَ على المجـيء! كان بوسعنا إعادة الختم دون وجودك، أخشى عليك، سيدي.

صافحـه وربَّت على ذراعه بكفه الآخـر وهو يقول مُطَمئنًا: لا تقلق، إنني بخير، ثم إن كينت معي. إنَّه عيني التي أرى بها كما تعلم.

تساءلت متعجبة: الختم؟! أي ختم؟!

أجابهـا الأمير: عندمـا هاجَمَنا الرجال فقدتُ القـلادة التي أُعلق فيها ختمي، أتذكرينها؟! لقد أشرت إليها مرة، لقد فقدتها أثناء النزال.

أردف كينـت: وقـد بحثت عنها في الغابة ولم أجدهـا، لا بد أنَّها بحوزة الرجال.

أخرجت صوتًا ينمُّ عن الفهم ثم قالت: هكذا إذن؛ لذلك نحن هنا.

ثـم وجَّهـت حديثهـا إلى الأميـر وأردفـت: وليس مـن أجـل التأكد من شخصياتهم كما أخبرتني!

ابتسم الأمير وهو يردُّ: آسف، خشيتُ أن تكتشف بياتريتشا الأمر وتحقق معك، لا أريد أن تعرف أنني فقدتُ الختم.

فكَّـرت لحظة قبل أن تقول معترضة: ولكن، لا أعتقد أنَّه بحوزة الرجال، لا بد أن دوريان أخذه.

علَّـق عطيـل: لا أعتقـد أنّ دوريـان يعلمُ بوجـوده أصلًا؛ فليـس هو مَن أرسلهم بكل تأكيد.

اعترضت قائلة: إن لم يكن هو فلماذا قتلهم؟!

أجابها الأمير: هذا ما نريد معرفته.

ثم أشار عليهم بالذهاب وقال: لنكن حذرين.

ساروا ناحية القصر وسلكوا طريقًا عبر أسواره وتمكَّن عطيل من إيجاد منفذ للدخول، أسرَّت في نفسها أنَّه ولا شك معتاد ذلك، أو على الأقل فعلها قبل الآن.

عندمـا عبـروا مـن المنفذ قـال كينت: لقد علمـتُ أن الجثـث موجودة بالإسطبل.

أومأ له عطيل ثم تقدَّم ليقودهم، أمسك كينت كف الأمير وأمسك الأمير كفها وهو يتمتم بصوت منخفض: ابقِي بجواري.

غمرها الخجل لحظة لكنَّها سرعان ما طردته فلا وقت للتفكير في ذلك الآن، وعلى الرغم من ذلك ظلَّ ذهنها غائبًا طوال الطريق، ولم يشغل بالها سوى سؤال واحد وحسب: كيف يملك شعور الاطمئنان هذه السطوة علينا إلى درجة تمكّنه من التغلب على حذرنا الفطري ومعاكسة ما اعتدناه!

كيف تملَّكها الاطمئنان تجاه الأمير وهي التي لم تعرفه إلا منذ فترة قصيرة؟! كيف اطمأنت لكلماته دون أن تطلب حقها في الاستيضاح أكثر وتبعته؟!

أية سطوة يملكها الاطمئنان أم أية سطوة يملكها الأمير عليها؟! ربما تكون الثانية هي الأقوى.

أخرجها الأمير من فوضى أفكارها وهو يُحكم قبضته عليها، كانوا قد وصلوا فسأل عطيل: أندخل الآن؟

وعندما ولجوا توقف كينت عند الباب، وتلفَّت حوله وقال معلقًا: أليس من الغريب خلوُّ المكان من الحراسة؟!

لم يُجِبه أحد؛ كانوا مشدوهين إلى حد الانزعاج من منظر الجثث المغطاة ودمائها التي لا تزال حارة تُلطِّخ المكان، كانت موضوعة فوق طاولة بدعائم خشبية وغطيت بغطاء تحوَّل إلى لوحة حداثية بشعة مبقعة بالأحمر. غمرها شعور بالغثيان والفزع، وعلى الفور غطَّت أنفها وفمها وراحت تُقاوم بصعوبة رغبتها في التقيؤ، بينما اندفع كينت وعطيل لتفتيش الجثث.

تحدَّث كينت: يبدو أنَّ أحدهم قد سبقنا وحصل عليها.

تساءل عطيل: ما العمل الآن؟!

لم يُجب الأمير وبان على محياه الاستغراق في التفكير قبل أن يقول: تأكدوا مرة أخرى، ربما وقعت منهم في الغرفة.

رفع عطيل غطاء الطاولة وراح يبحث تحتها، أما كينت فشرع يبحث في الزوايا، بينما ظلَّت هي واقفة في مكانها. لاحظت أنَّ الأمير قد وجَّه نظره

إليها، فاستدارت وقالت: آسف، لا يُمكنني أن أفعل مثلهم؛ أعلم أن لا فائدة مني.

في تلك اللحظة بالضبط وصل إلى أسماعهم صوت وقع الأقدام الراكضة باتجاه الإسطبل، وعلى الفور اندفع الجميع تحت الطاولة إلا هي؛ فقد انحنت لحظتها لتقاوم رغبتها العنيفة بالتقيؤ، ولم ترفع رأسها إلا لتشاهد الجنود يحملون المشاعل بأيديهم وهم ينظرون إليها نظرات لا تبطن خيرًا، تلفَّتت حولها؛ فأدركت أنَّ الجميع قد اختبأ وأنَّه قد قُبض عليها بالجرم المشهود، فرفعت يديها مستسلمة على الفور، بينما صرخ أحدهم وهو يقترب منها: ما الذي تفعله هنا؟ ومن أنت؟!

أسرعت نحوه؛ أرادت أن تمنعه من الدخول لتمنح البقية فرصة للهرب وأجابت: آسف، أنا شاب قد ضلَّ الطريق.

وجَّه المشعل نحوها بينما اعترض أحدهم: كيف تضلُّ الطريق؟! كيف دخلت أصلًا؟! إنَّ هذا قصر الأمير دوريان.

صاح آخر كان قد عرفها وقال: لقد عرفته، إنَّه اللاجئ الذي هرب من السجن، كيف تجرؤ على القدوم إلى هنا؟!

أمر قائدهم: اذهبوا به إلى الأمير.

على الفور قيدوا يديها وساقوها إلى القصر، ثم استأذنوا للدخول على الأمير، كان يقف في منتصف بهو القصر، وقعت عيناه عليها فلم يعرفها في البداية لأنها كانت خافضة رأسها للأسفل، تقدَّم أحدهم منه وأسرَّ في أذنه أنَّهم وجدوه عند الجثث وأنَّهم يشكُّون في كونه الهارب.

ما إن فرغ من حديثه حتى نظر دوريان إليها وقال آمرًا: ارفع رأسك.

رفعت رأسها ولكن دون أن تنظر إليه، تبسَّم بسخرية كمن ظفر بشيء كان ينتظره ثم أشار للجميع بالخروج، وعلى الرغم من استنكارهم ذلك فإنهم أذعنوا دون اعتراض، حتى هي فوجئت بالأمر وظلَّت عيناها تنتقلان بطيش وهي تتابع خروجهم، وعندما خلا المكان وأدركت أنَّها وحيدة في

مواجهتــه مرة أخرى، سَرَت في جسدها قشعريــرة باردة منعتها من النظر إليه.

اقتــرب منها وهــو يقول: ها قد جئتِ إلــيّ بساقيكِ ثانيــة! ألم تشاهدي الرجال في الإسطبل؟ أأنتِ زاهدة في حياتكِ إلى هذا الحد؟!

أدركت أنَّه يستمتع بإخافتها ورؤية إيماءات الذعر وهي تملأ وجهها، إنَّه من هذا النوع من الأشخاص الذين يشعرون بالأمان عند إيذاء غيرهم، فلم تَخــفْ بل شعرت بقوة مفاجئة تحثُّهــا على المقاومة والردِّ والنظر في عينيه دون تردد، إلا أنَّ أعماقها قد اضطربت واهتزَّت اهتزازًا عنيفًا جرَّاء سؤاله الأخير، لقد بدا لها مألوفًا على نحو غريب! وكانت أعماقها تؤكد ذلك، ولم تعرف أنَّ اللوحة في غرفتها قد أظلمت بشدة منذ غمرها هذا الشعور.

ازدردت ريقها وتماسكت ثم نظرت إليه وسألت: لماذا قتلتهم؟!

ارتبــك لحظة من الحدة التي أحسَّها فــي صوتها، فدنا منها أكثر ليُبدد هــذا الارتباك حتى أصبح واقفًــا أمامها فأشاحت عينيهــا، تجاهل سؤالها وسأل: هل أرسلكِ الأمير لتستعيدي الختم؟!

رمقتــه مستنكــرة؛ أصبحت واثقــة الآن أن الختم بحوزتــه، أدرك ذلك فعلَّق: نظراتك هذه تشي بأنَّكِ لم تكوني تعلمين أنَّه بحوزتي. على العموم...

أخرجه من جيبه ورفعه أمامها، وأردف: سأعطيكِ إياه.

اتسعــت عيناها دهشة؛ لقد عجــزتْ أن تُفسِّر أو تفهم موقفه؛ لذا سألت مستنكــرة: بهذه البساطة؟! لمــاذا إذن أخبرتني في الحفــل بنيَّتك السيئة تجاه الأمير؟! ثم ها أنت تساعده الآن؟!

راقبت إيماءاته لبرهة، وعندما لم يبدِ أية نية للرد أردفت: إنني عاجزة عن فهم موقفك حقًّا؟!

انحنت زاوية فمه لترسم ابتسامة ساخرة سرعان ما تبددت وهو يُجيبها: ولمــاذا تريدين معرفة كل شيء؟! إنَّ أكبر أخطائنا هي محاولتنا المستميتة لتفسيــر ومعرفة كل شــيء حولنا، ومحاولتنــا البائسة لتفسيــر تصرفاتنا،

بينمــا الحقيقــة أنَّ هنالك كثيرًا مــن الأمور لا تحتمــل أي تفسير، ومحاولة تفسيرها نوع من العبث الضائع.

دار حولهــا وأتبع وقــد ازداد الانفعال في صوته إلــى درجة شعرت معها بالتقريع: لماذا فعل هذا ولم يفعل ذلك؟! لماذا فعلتُ هذا ولم أفعل ذلك؟! لماذا نحن أصلًا نضطر لنجيب عن أسئلة كهذه؟! في حين أننا نتصرف في كثيــر من الأحيان بما يمليه الموقف علينــا، لا بما نؤمن به حقيقة، وهذا ما نحاول إنكاره على الدوام.

لوى فمه بتهكُّم وأردف: مبادئ! قيم! أعلمُ أنكِ تودين إجابتي بذلك.

أطلق صوتًــا ينمُّ عن السخرية ثم أتبع: كل ذلك يغيب ويختفي ويتلاشى حــال شعور المرء بخطر يُهــدده، في النهاية قد مات هابيــل، وخد المسيح المصفوع لم يعد له أيسر؛ هذا ما يجب أن تسير عليه الأمور دومًا؛ لذلك فإن كل من يبحث عن تفسير ردود فعل الإنسان يعرف أنَّه كاذب، وكل من يدعي معرفــة نفسه هو كاذب أيضًــا، وكل من يُظهر تمسُّكه بمبادئه سيتخلى عنها بسرعة في أولى لحظات الخطر بنفس السرعة التي نبدِّل فيها أنفاسنا.

كان واقفًــا خلــف ظهرها فأمال رقبتــه قليلًا ناحيتها وهــو يكمل: لماذا أساعد الأمير وأحبط خطة إيجاو اللعين على الرغم من أنني أكره الأمير؟! لا جواب سوى: هكذا، هكذا وحسب، أنتِ قلتِ ذلك أيضًا عندما سألتكِ عن سبب مجيئك لي المرة السابقة، أتذكرين؟!

لــوى فمه وهو يُتمُّ: ربما في المرة التالية أقتله بنفسي، وسيكون الجواب أيضًا ببساطة: هكذا.

حرَّكــت عينيها ناحيته ببطء وحذر فتحــرَّك حتى أصبح أمامها، أمعنت النظــر إليه لحظات كانت تفكر خلالهــا وتلمح شيئًا مختبئًا في أغواره، قبل أن تفاجئه بقولها: لن تفعل؛ أنتَ تحب الأمير.

بهت وجهه لحظة كلص قبض عليه فجأة في جوف الليل، حاول أن يخفي ارتباكه فانفجر ضاحكًا، ثم سكت فجأة وسدد إليها نظرات حادة وهو يقول: إنني أكره المزاح؛ ألا تعرفين ذلك وأنتِ تدَّعين أنكِ تعرفينني؟!

سدَّدت نظرات حادة إليه وردَّت بثقة: إنني لا أمزح، وأنتَ تعرف في أعماقك أنِّي صادقة، أنتَ تحبُّ الأمير ولكن...

صمتت لحظة مترددة، وجاهدت بعناء لتبتلع ترددها وتتم: أنتَ تغار منه وحسب.

ردد بتهكُّم: أغار؟! كرريها ثانية.

ثم انفعل وهو يتبع: أتعلمين أنني أكره أولئك الذين يستفزونني ويتحدَّثون بثقة مثلك؟! إنني لا أبقي عليهم، أنتِ بطيشك تؤكدين لي للمرة الثالثة أنكِ زاهدة في حياتك.

للمرة الثانية تشعر بوقع الكلمة عليها أليمًا، فهربت بعينيها بعيدًا عنه فأردف قائلًا: أغار؟! كم أنتِ حمقاء بالفعل! أتعلمين لماذا أبقيتُ عليكِ وسمحت للأمير بإخراجك؟! بسبب هذه الرغبة الكامنة في عينيك للتخلص من الأمير.

رمقته بفتور واستنكار بسيط ثم أشاحت وجهها دون رد ولكنَّه استفزها بقوله: طبعًا إنني محق، أنتِ حتى لا يُمكنك الإنكار...

وهنا لم تعد قادرة على كبح انفعالها، فقاطعته لتردَّ وكان كل جسدها يهتزُّ بانفعال وخوف في آن واحد: لا أعلم لماذا أشعر بأنِّي أضعف من أن أنفي ذلك، أنتَ محق، محق جدًّا، أيبهجكَ هذا الاعتراف؟!

صمتت لحظة استعادت خلالها هدوءها واتزانها ثم تابعت: لا أعلم لماذا؟! على الرغم من ثقتي في كوني لا أشعر تجاه الأمير بالكره أو الحقد أو الغضب حتى، ولم أفكر في حياتي بالتخلص من أي أحد، حتى لو كنتُ أكرهه، وإن كنتُ فعلت ذلك فحتمًا لن يكون...

زمَّت شفتيها المرتجفتين استجابة لارتجاف قلبها، فقد كان وقع ما تبوح به أليمًا عليها، ومع ذلك تابعت: كل شيء سيبقى كما هو، لا شيء ينتهي في الحقيقة بمجرد التخلص منه- إنَّ ما قاله الأمير كان حقيقة- إنَّ رغبتنا في التخلص من كل شيء حولنا ما هي إلا رغبة مقنَّعة في التخلص من أنفسنا، فإن كنت رغبت بالتخلص ممن حولي ومن عالمي ذات يوم، ففي الحقيقة لم يكن شعوري ذاك إلا رغبة مخجلة في التخلص من نفسي، وعلى كل حال سأختفي أنا، ويبقى كل شيء على ما هو عليه.

ومع هذا...

ابتلعت ريقها وأحدَّت النظر إليه وهي تتابع: ومع هذا أعتقد أن استماتتك في تأكيد كُرهك للأمير ما هو إلا إثبات لما تنكره من حبك له، بل تعلقك به.

ثم لاحت على شفتيها ابتسامة فاترة وهي تكمل: إنَّ هذا ما يفعله الإنسان المخادع والمكابر كما ذكرت، فإصراره على تأكيد شيء ما هو إلا تورية على إنكاره. أنت تغار منه لكنك لا تريدُ أن تعترف بذلك وتحاول أن تبطن شعورك هذا بالكره. أتَرى؛ الشياطين تفهم بعضها بعضًا كما ذكرت؟

كانت عيناه تتسعان بغضب وانفعال وهو يستمع إليها حتى إنَّه فقد أعصابه عند كلمتها الأخيرة ولبَّبها من ياقة قميصها وصاح قائلًا: مَن تعتقدين نفسكِ حتى تقولي ذلك في وجهي، ولو كان حقيقة...

ارتجفت عيناه وهو يؤكد: حتى لو كان حقيقة!

في تلك اللحظة سمعا صوت جلبة خلف الباب الذي سرعان ما فُتح وظهر من خلفه ثلاثة رجال ملثمين بلباس أسود، والجنود من حولهم يحاولون منعهم من الدخول.

نظـر دوريـان إليهـم وشاهـد الأميـر وكينت وعطيـل فعرفهـم وأرخى قبضتـه الممسكـة بهـا؛ فتمكَّنـت مـن الاستـدارة لتـدرك مـا الخبـر، وعندمـا وقعت عيناها على الأمير طرأ في عينيها الاطمئنان فتنفست بعمق وارتياح.

أشـار دوريـان لرجالـه بالتوقـف عـن منع رجـال الأمير مـن الدخول، فتوقفـوا، فاقترب الأمير وأزاح اللثام عن وجهـه ووقعت عيناه عليها أولًا ثم حوَّلهما ناحية دوريان الذي على الرغم من ملاحظته لتغير استجابة الأمير البصريـة فإنه لـم يُدهش، تبسَّم ساخـرًا وهو يقول: هـل اقتحمت المكان وأحدثـت كل هذه الجلبة مـن أجل الختم؟ أم من أجل هـذه المرأة الغريبة هنا؟!

لاح علـى وجوههم الاستنـكار وانصرفت أعينهم بحثًا فـي هذه الغرفة عـن المرأة التي قصدهـا دوريان، أما هي فقد خفضـت عينيها بحرج ولم تكن تُدرك أنها بفعلها هذا كانت تشير إلى نفسها، حملق كينت بدهشة، أما عطيل فلم تبدُ عليه دهشة كبيرة.

تحـرَّك أريان لصرف أنظارهم واقترب حتى وقف أمام دوريان ومدَّ يده وهو يقول: أعطني الختم، من فضلك.

أخرجه من جيبه ووضعه في يد أخيه، ثم مال عليه كأنَّه يُسرُّ إليه بحديث سمعته الكاتبة: احرص عليه، ففي المرة المقبلة سيكون أنا مَن يسرقه.

ثـم ابتسم ليستفـزَّه واستدار بعـد أن خصَّها بنظـرات ناقمة، فأدركت أن وَقْـع كلماتها الأخيرة كان قاسيًا عليه، وأنَّـه لم يكن ليفعل ذلك لولا أنها أصابت كبد الحقيقة.

ثم صعد السلم وهو يقول لرجاله: رافقوا الأمير ورجاله إلى البوابة.

دنـا عطيل منها وحـلَّ قيدها ثم راح ينظر للختم في يـد الأمير ويُهنئه، أمـا كينت فقد كان يتوضَّحها بنظراته غير مصدق ما سمعه، أزعجها ذلك فتظاهرت بالاستماع إلى حديث عطيل والأمير.

في طريقهم إلى العربة كان عطيل يسير بجوار الأمير في المقدمة، بينما كانت هي تتبعهم، وكينت خلفها، اقترب منها حتى صار بمحاذاتها، لاحظت وجوده ونظراته المتسائلة والمستنكرة، فضاقت بها ذرعًا والتفتت إليه وقالت: توقف عن النظر إليَّ هكذا! أنتَ تحرجني.

ارتبك وأشاح عينيه وهو يُبرر بقوله: أعني... إنني غير مصدق فقط ما قاله دوريان!

ثم تردد وهو يُتمُّ: إنَّ مظهرك! أعني كان يكذب، صحيح؟!

رمقته بنظرة اهتزَّ منها جزعًا فاستدرك قائلًا: لا أعني الإساءة إليك سيد هاملت.

تلعثم وأتبع: إنني مصرٌّ على أنكَ هاملت، كل ما قصدته هو أنني صُدمت في الحقيقة، فقد كنت تتصر... لحظة هل أنتِ امرأة... ولكن كيف؟ إنَّ...

قاطعته موضِّحة: لم يكذب دوريان ولا داعي لأن تعتذر، أتعتقد أن قولكَ هذا قد أساء إليَّ! أنتَ لا تعرف من أنا، وبما أن كل شيء قد انكشف فسأخبرك بكل سرور، إنَّ من تقف أمامك هي عبارة عن كوارث متنقلة، إنَّ لي حظًّا (بطوطيًّا) بل أسوأ منه، إنني قادرة على تحويل كل ما يقع في يدي إلى ضده، مثلًا: أشتري (جزرًا) فيصبح في البيت (باذنجانًا)، أتعلمُ أنني نويتُ ذات مرة السفر إلى بلد ما، فقام أبله بتهديده بسلاحه النووي في اليوم التالي؟! نويت فقط! تصوَّر!

وخذ هذه أيضًا: اقتنيتُ جهازًا نقالًا ولم يمكث معي إلا قليلًا ثم تعطَّل، وتطلَّب إصلاحه نقله إلى بلدة أخرى في فرع آخر، أتعرف ما الذي حدث؟! لقد احترق الفرع حال وصول هاتفي إليه! دَعْك من كل هذا لتسمع ما هو أسوأ: إنَّ أول كتاب لي طبعته المطبعة المنكوبة، غرق مع فرعها في سيلٍ اجتاح المدينة في موسم المطر. أتعتقد بعد كل هذا أنَّ حصولي على مظهر هاملت ديلاكروا بحاجبي الموناليزا ووقوعي هنا في هذا المكان العجيب

كان سيئًا بالنسبة لي؟! إنَّه شيء معتاد، فحتى لو حصلت على شارب (سلفادور دالي) مثلًا، فلن يكون هذا سيئًا بالنسبة لي.

قالت الجملة الأخيرة وهي تمرر سبابتها فوق فمها لترسم شارب دالي، حاول كتم ضحكته، ومع ذلك خرج صوتها المكتوم من أنفه فأشاح وجهه عنها، رمقته بغيظ مصطنع ولكن سرعان ما لان وجهها عن ابتسامة ضاحكة، ثم سبقته لتلحق بعطيل والأمير، عندما اقتربت قال الأمير: لماذا لم تختبئ عندما اختبأنا جميعًا؟ أنت تتصرف بغباء أحيانًا.

ردَّت عليه ضاحكة: غبائي هذا جعلنا نحصل على الختم بسرعة، كان عليك شكري لا لومي.

تعجَّب من جُرأتها عليه وهذا الجو المرح الذي نبت بينهما فجأة، فابتسم ولكنَّه أصرَّ على معارضتها وقال: كنَّا سنحصل عليه في كل الأحوال دون تدخلك.

أبدت رفضًا واعتزازًا وهي تجيبه: أنت لا تعلم كم من الجهد بذلته لأقنع الأمير دوريان. لم تتوقع أن تتلقى منه ضربة مباغتة على كتفها جعلتها تفقدُ توازنها لحظة، ثم أمسكت كتفها تنظر إليه باستغراب، فقال: أعلمُ أنك كاذب.

ثم ابتسم وهو يردف: ولكنِّي أعتقد أنكَ نجحت، يا هاملت، في مهمتك الأولى.

ثم سبقها بعدة خطوات فلحقته وأمسكت ذراعه وراحت تقوده.

قبل ذلك كان عطيل قد تراجع للخلف قليلًا منذ أن مشت مع الأمير، وسار بجوار كينت، كان يراقبهما معه، ولاحظ دهشة كينت فعلَّق: يُمكنني أن أعرف بماذا تفكر؟

التفت إليه كينت مستفهمًا، فأجابه عطيل: بطريقةٍ ما يبدوان متشابهين جدًّا. أهذا ما تفكر فيه؟!

ابتسم موافقًا وقال: بل إنَّني أفكر لو كنتُ فنانًا وكنتُ سأرسم لوحة على ضوء القمر وفي غابة كهذه، فإني سأرسمهما حتمًا ولكن كشخص واحد!

بعد ذلك ودعوا عطيل، وركب الباقون العربة عائدين إلى القصر، وفي أثناء الطريق أخرج الأمير الختم وتفحص السلسلة وهو يقول: يجبُ عليَّ أن أصلحها قبل أن تكتشف بياتريتشا ذلك.

نظرت إليها ثم إليه وقالت: إنَّني أفكر بكتاب السيد إيفان بتروفيتش، لقد فقدناه، تلك الليلة، للأسف.

لا تبتئس سأحضر لكَ نسخة أخرى منه، وسأجعلك تقرؤها لي.

فكرت لحظة ثم هزَّت رأسها رافضة وهي تقول: مستحيل، لن أفعل حتى لو رجوتني، لقد قلت: إنني أسوأ من السيد كينت.

تبسَّم الأمير برقة ثم عمَّ بينهما الصمت، كان الأمير يفكِّر بما جرى ويُعيد ترتيب الأمور في رأسه، أما هي فقد اتكأت على النافذة، وكلمة دوريان التي أربكتها تدوي في أعماقها كطنين نحل: "هل أنتِ زاهدة في حياتك إلى هذا الحد؟!".

لماذا لم أشعر باستنكار وكنتُ أضعف من أن أنكر عليه؟! هل حقًّا تملَّكني هذا الشعور من قبل حتى ألفته ولم أعد أستنكره؟! هل حقًّا أنا زاهدة في حياتي؟! وهل ذلك بسبب يأسي؟!

أشاحت عينيها عن النافذة واقتحمتها ملامح دوريان الغاضبة وهو يقول:

أتعلمين لماذا أبقيتُ عليكِ؟! بسبب هذه الرغبة المخبأة في عينيكِ للتخلص من الأمير.

رفعت عينين خجلتين نحوه وهي تحدِّث نفسها: أحقًّا هذه الرغبة في عيني، أم أنَّ دوريان شاهد رغبته وأوهم نفسه بأنَّها رغبتي أيضًا، إنَّنا كثيرًا ما نتوهم رغباتنا ونُسقطها على مَن أمامنا.

لكـن لمـاذا كلما أمعنتُ النظر في عيني الأميـر شعرتُ بندم يجثم على صدري! ممَّ يا ترى؟! هل آذيته دون أن أدرك؟! ولكنِّي لم أقابله من قبل، هل حقًّا كانت رغبتي أن آتي إلى هنا وهو استجاب لي؟! ولكن لماذا؟! ومشاعري هـذه! إنَّهـا مشاعـر لم أختبرها مـن قبل! إنَّهـا رغبة ملحَّة فـي البقاء إلى جانبـه والاتكاء عليه، ومشاهدة ضحكتـه وابتسامته، أليس هذا حبًّا؟! كلا، إنَّـه أعمق مـن ذلك بكثير، إننا حينمـا نحبُّ شخصًا فإننـا نرغبُ من هذا الشخص الوصال ومبادلتنا نفس المشاعر؛ لا وجـود لحب دون شغف، أما أنا فكل ما أرغب فيه هو رؤيته يبتسم وحسب، وكل ما أفعله هو الاتكاء عليه وحسب.

كان الأميـر فـي تلـك اللحظة قد حـرَّك عينيـه ناحيتها فعـادت لتتكئ علـى النافذة، وفي اللحظة نفسها أوقف كينـت العربة، فنزلا معًا ورافقهما إلـى القصـر، استقبلتهـم بياتريتشا بقلق وهـي تسأل: أيـن كنتما كل هذا الوقت؟!

أجابهـا الأمير معتـذرًا وهو يتابع التوجُّه إلى غرفتـه: آسف يا عزيزتي؛ خرجـتُ مستعجـلًا ولم أخبرك، ولكنِّـي ذهبت لزيارة الأميـر دوريان لأمر طارئ.

لـم يقنعها ذلـك فسددت نظرات مرتابـة إلى الواقفـة بجانبها فهربت بعينيهـا ثـم وجَّهت نظراتها إلى كينـت فابتسم لها ولكنَّه لـم يزد على قول الأمير شيئًا.

عندما اقترب الأمير من غرفته قال: إنني مرهق بالفعل، أراكم غدًا.

ثـم تابع سيره وولج إلـى غرفته واستأذن كينت ليُغـادر ولم يعلم أنَّه قد أوقـع هاملـت في ورطة عندمـا قال: أنا مغـادر الآن، تصبحيـن على خير، بياتريتشا.

ثم نظر إلى الكاتبة وأتمَّ: سيدتي، تُصبحين على خير.

عيناها الشاخصتان وعينا بياتريتشا الذاهلتان، جعلته يدرك أن بياتريتشا لا تعلم وأنَّه بفعلته هذه أوقع هاملت في ورطة فتلعثم وعدل قوله: أعني سيد هاملت، آسف؛ يبدو أن النعاس غلبني.

ثم غادر، فتحركت هي على الفور لتتمكن من الهرب، لكن بياتريتشا سارت برفقتها، كانت كلما ابتعدت عن غرفة الأمير واقتربت من غرفتها تشعر بأوجاع في جسدها ولكن لم تكن أشد وجعًا عليها من نظرات المرأة التي تتبعها، وعندما وصلت إلى الغرفة أمسكت الباب وتظاهرت بأنَّها لم تنتبه إلى وجودها إلا للتو وعلَّقت: كنتِ ترافقينني كل هذا الوقت؟! شكرًا على لطفك، تصبحين على خير.

لكن بياتريتشا لم تسمح لها بفتح الباب، وحاصرتها بذراعيها، فتظاهرت بالحمق وسألت: ما الذي تفعلينه بيا..

قاطعتها وهي تصرُّ على أسنانها: ما الذي يحدث؟!

تحامقت أكثر وهي تُجيب: لا أعلم؛ لقد طلب مني الأمير مرافقته ولم أكن حاضرة...

أخرستها الضربة التي وجهتها بياتريتشا للباب، فانكمش وجهها وأغلقت عينيها كنوع من الدفاع البائس، وسمعتها تقول بانفعال: ليس هذا ما عنيت، ما الذي قاله السيد كينت قبل قليل؟!

ازدردت ريقها ونظرت إليها وهي تُجيب: ما الذي قاله كينت؟! حقًّا لا أذكر.

أضمرت غيظها وقالت: حسنًا، سأذكركَ بما قاله السيد كينت، ثم جرَّتها من قميصها وشرعت تحاول فكَّ أزراره، قاومتها وحاولت إبعادها وهي تصرخ قائلة: مهلًا، توقفي، ما الذي تفعلينه؟!

ثـم تمكَّنت بصعوبة من النجاة منَّها بأقل الخسائر، وابتعدت عنها وهي تحاول التقاط أنفاسها ثم صاحت بانفعال: توقفي، سأخبرك بالحقيقة، ما تفكرين فيه صحيح.

ثم تنفسـت الصعداء وظنَّت أنَّها نجت بهذا الاعتـراف، لكن بياتريتشا دنـت منها وبـدأت حفلة التحقيـق: لماذا تظاهـرتِ بهـذا إذن؟! لقد كنتُ مصيبـة بشكـي فيكِ، ألهـذا نام الأميـر على الأريكـة؟! لأنكِ امـرأة! لكن جسدك يبدو!

- لم أتظاهر.

- لا تتغابي عليّ، لماذا فعلتِ هذا؟!

ضاق صدرها فردت لتسكتها: هكذا، فقط، هكذا جرى الأمر.

ثـم اتسعت عيناها ذاهلة؛ لقد شعـرت بأنَّها بكلامها هذا توافق على ما قالـه دوريان ضمنيًّا! فغمرها شعور بالكره فأوضحت قائلة: كل ما في الأمر أنَّ الجميع اعتقد ذلـك بداية؛ لباسي ومظهري وهذا الجسد؛ جسد هاملت يوحـي بذلك، إضافة إلى هـذه الملامح التي التصقت بي حال وصولي هنا، وهكذا جرى الأمر ببساطة.

كتفت بياتريتشا ذراعيهـا وزوت ما بين عينيها، فخمَّنت الكاتبة السؤال الذي تهمُّ بقوله؛ لذا عاجلتها لتنقذ نفسها: الأمير لا يعرف.

أشاحت عينيها يسارًا وأردفت: وقد عرف كينت مصادفة.

كان واضحًـا مـن النظرات القاتلة التـي صوبتها لهـا بياتريتشا أنَّها لم تصدق كلمة مما قالته، فراحت تؤكد: إنَّني صادقة فيما أقوله.

لكنَّهـا لـم تمنحها فرصـة للتبرير أكثـر وفتحت الباب ثـم دفعتها دفعًا للدخول وأغلقته خلفها، ازدردت ريقها وتراقص حاجباها؛ لم يعد بإمكانها قـراءة مـا تفكر فيه هذه المـرأة التي استعَـرَت غيرتها، فراحـت تقول في محاولة أخيرة لتهدئتها: عزيزتي...

- لستُ عزيزتك.

- حسنًا، الجميع يعتقد أنَّني رجل، إنَّ بقاءك معي في هذه الساعة سيثير الشكوك حولنا وسيسيء لنا بالتأكيد.

دنت منها وبدت غير مهتمة بما قالته، ولاحظت أنَّها أدخلت يدها في جيب فستانها، فارتجفت عيناها وظنَّت أنَّها ستخرج سكينًا وتهمُّ بقتلها، هل يصل الأمر إلى هذا الحد؟! غطت وجهها بذراعيها وصرخت، لكنَّها عادت لتنظر إلى بياتريتشا التي أمسكت ذراعها لتبعده، وبيدها الأخرى كانت تحمل قلم كحل!

أرخت ذراعيها وهي تُعلِّق مستنكرة: كحل؟! لمـ...

لم تهبها فرصة وثبتتها من ذراعها ثم راحت ترسم على وجهها بالكحل، هدأت بعد لحظات وتلاشى ذعرها وحلَّت ابتسامة فاترة وساخرة على شفتيها وهي تقول: هذا جيد، هل سترسمين لي حاجبيَّ أخيرًا، إنني حقًّا لا أحب مظهرهما.

ثم التزمت الصمت بعدما حدجتها بياتريتشا بنظرة حانقة، وتابعت ما تفعله ورسمت فوق شفتيها، وعندما فرغت تراجعت خطوات إلى الوراء، وراحت تنظر فيما فعلته بزهو، أما المسكينة فقد تبسَّمت باتساع فبدت كالبلهاء، أثار ذلك ضحك بياتريتشا فكتمته وعادت لتضع بعصبية مصطنعة نقطة على خدها كأنَّها تضع توقيعها على لوحة حداثية سيئة كان من الواجب أن تُلقى في المهملات بيد أن شخصًا وضع ألف معنى ومعنى وراء خطوطها المتعرجة وصعد بها إلى مرتبة فنية، ثم استدارت الفنانة بياتريتشا مغادرة وأغلقت الباب خلفها.

تراجعت خطوات إلى الوراء لتنظر إلى المرآة، وما إن شاهدت منظرها حتى أطلقت قهقهة عالية وصفقت بيديها، ففي النهاية لم تحصل على شاربي سلفادور دالي بل شاربي نيتشه وحاجبي كونفوشيوس، أصبحت مزيجًا مذهلًا.

تبــددت ضحكتهــا وتحولــت إلــى صمــت مهيب عندمــا لمحــت اللوحة المغطــاة، ثمة شعور فــي أعماقها يخبرها بأنَّها قــد ازدادت ظلمة لكنَّها لم تجرؤ على التأكّد.

في الصباح سمع الخدم صــوت صرخة عالية تنبعث من غرفتها عندما استيقظت ونظرت إلى المرآة ووجدت وجهها قد تلطخ بالسواد فظنَّت لحظة أنَّ شبــح كانترفيل قد أطــلَّ عليها من المرآة وأراد أن يُمارس لعبته المحببة معهــا، ثم أدركت أنّ التي في المرآة لم تكن سواها لكنَّ النوم قد غلبها قبل أن تُنظّف وجهها من انتقام بياتريتشا المروع.

الفصل الثامن

إنْ كان علينا أن نموتَ أو نتيهَ ونعبر الظلام؛ لنصل إلى الشمس،
فلا يهمُّ عدد المرات التي نفعل فيها ذلك، المهم ألا نقف،
الوقوف هو المعنى الحقيقي للفناء.

كانت الأميرة هاري تجلس في الحديقة بعدما تناولت الفطور، في اللحظة نفسها التي رأت فيها ابنها دوريان قد لبس ملابسه الرسمية ومشى عابرًا الحديقة برفقة إيجاو، ولكن الأخير كان قد انحرف عن طريقه واتجه ناحية هاري التي وقفت بدورها وسألت: ما الذي يحدث؟!

أجابها وقد بان القلق والذعر على ملامحه: لا أدري، لقد قام الملك لير بطلبنا..

ثم أردف مفصحًا عن مخاوفه: أتعتقدين أنَّه علم بشأن ما حدث؟! أو أنَّ الأمير قد أخبره بالأمر.

شحب وجهها لوهلة ثم سرعان ما استعادت ثقتها وأجابت: لا أعتقد، إنَّه أضعف من أن يفعلها.

أومأ موافقًا واستدار وهو يتبع: حسنًا، سأوافيكِ بالأخبار. ثم أسرع خطواته ليلحق دوريان.

أما الأمير أريان فقد وصله هو الآخر أمر باستدعائه على الفور، لم يتناول فطوره واكتفى بكوب من القهوة ثم أسرع ليتأهب للقاء الملك، كان

أول مـا خطـر بباله هو الآخر أنَّ الملك قد بلغـه شيء مما حدث وعن تورط دوريان وهاري في الأمر، فغمره شعور ثقيل للغاية، وعندما خرج من غرفته شاهـد ظلَّين مُقبلَيْن من نهاية الممرِّ فعرف أنَّهما هاملت و بياتريتشا. كانا يتحدثـان، أو بالأصح كانت بياتريتشا تصـبُّ لعناتها عليها دون كلل أو ملل، مـا إن لاحظتا الأمير بلباسه الرسمي حتـى أسرعتا إليه وعاجلته بياتريتشا سائلة: إلى أين؟!

أجاب سريعًا: لقد طلبني الملك.

اقتربـت منـه وعدَّلت لـه ياقة قميصـه وهي تسـأل: هـل سيأتي كينت لاصطحابك؟!

أومأ موافقًا وهو يقول: على الأرجح...

قاطعته الكاتبة بطريقة أثارت استنكارهما وهي تسأل: أيمكنني، سيدي الأمير، أن آتي معك؟!

زمَّ شفتيه مفكرًا قبل أن يُخيِّب أملها ويجيب: كلا، لا يمكنك.

ضاقت عيناها ولوت فمها بامتعاض شديد، لقد خاب أملها الوحيد الذي كان سيخلصها من تحقيقات بياتريتشا التي لم تنقطع منذ البارحة وفكَّرت أنَّهـا لـن تكون قادرة علـى الابتعاد عن الأميـر دون أن تغزوهـا تلك الآلام، امتـلأت عيناها بالذعر حال تفكيرها بذلك فقطعت حوارهما للمرة الثانية برجائهـا الذي أثار استغراب الأمير وشعر بـأنَّ ثمة ما يُقلقها، بينما لم يُثر فـي بياتريتشـا سوى شكوكهـا الواهمة نحوها، فما كان منهـا إلا أن رمقتها بنظرة قاتلـة جعلتها تتمنى الاختفاء وكان بوسعها تصـور أي يوم ستقضيه دون وجود الأمير وبرفقة بياتريتشا!

ابتسم لها الأمير مُطَمئنًا وقال: لا تقلق، لن أتأخر.

ثـم أخذ طريقه وتبعته بياتريتشا، فوجدتهـا فرصة سانحة للهرب منها والاختبـاء قبـل أن تعـود وتجدهـا، فاتخذت مـن الطريق المعاكـس مرادًا لهـا وعبرته بخطـوات واسعة، وبينما هــي تتابع هروبها راودهـا شعور أنَّها

قـد شـاهـدت هـذا المكان مـن قبل، ثم تذكـرت أن هـذا الممر يُـؤدي إلى مرسـم رامبرانت، فانتابها شعور بالثقل فأبطـأت خطواتها خشية أن ينتبه لوجودهـا، لكن ما إن أصبحـت بمحاذاة الباب حتـى أدار رامبرانت الباب وفوجـئ بوجودهـا كما فوجئت هـي، ولمحت مـن وراء البـاب لوحة جميلة لإنسـان بأجنحة، لم يكن هـذا أسلوبه المعتاد، ولكن مـن يعرف رامبرانت جيـدًا يعرف أنه يُحب أن يتلاعب بلوحاته ويُخفـي فيها ما يعجز مُشاهِدها عن فهمها أو تفسيرها.

لم يكن بوسعـه أن يتجاهلها هذه المرة، فحرَّك شفتيه بطريقة تنمُّ عن الترحيـب، شجَّعها ذلـك لتُحدِّثه فسأل: أما زلت غاضبًـا مني؟! لم يُجبها، ولمحت الانزعاج على وجهه، ومع ذلك اقتربت منه وأردفت: أودُّ أن أخبرك بأننـي آسف ونادم أشد الندم، أرجو أن تغفـر لي، لسنا جميعًا قادرين على فهـم الفن، ويبـدو أنني وللأسف كنـتُ كذلك فأسأت تقديـر لوحتك، إنني أعلم أنَّ أشدَّ ما يؤذي الفنان هو رأي غير الفنان في فنه.

رقَّ وجهه وبانت علامات الرضا عليه، فمالت بعنقها لتُشاهد اللوحة من داخل المرسم وأردفت: تلك اللوحة للأجنحة أذهلتني.

أفسح لها وأشار إلى اللوحة وهو يسأل: أتعني تلك؟!

اقتربـت أكثر فسمح لها بالدخول، وراحـت تتأملها بإمعان، وقف خلفها وسأل: ما الذي تشاهده فيها؟!

أمعنـت النظـر إليها أكثر، لم تكـن لوحة قد شاهدتها لـه من قبل قط؛ فتساءلت إن كانت لوحة له لم يكتشفها أحد، أم أنَّ عمره لم يسعفه لرسمها فلم تكن سوى....، التفتت إليه وأجابت: إنَّها حلم.

كان مـن الواضـح أنَّه فوجئ من ردهـا وأنَّه يريد استيضاحًـا أكثر؛ لذا أردفت: أعتقد أنّها حلم لم ولن يكتمل هاهنا، أن يرتفعَ الانسان عن كل أذى يضـره، وعن كل ألم يلم به، حتى لو ملك الأجنحة فإنَّ هذا لن يَحدث، لهذا فإنَّ اللوحة تُعبِّر عن حلم.

لاحـت علـى شفتيه ابتسامـة عريضة ثم عبـر من جوارهـا وراح يُطالع لوحته بإعجاب وهو يقول: تقول إنكَ لا تفهم في الفن!

رمقهـا بجديـة وسأل: أخبرنـي أرجوك، مـا الذي شاهدتـه في لوحتي السابقة؟ لماذا لم تَرُق لك؟!

تبسَّمت بوهن وبرقت في عينيها نظرة متألمة وهي تُجيبه: لقد كانت في غايـة الإبداع؛ لأنها مكَّنتني من رؤيـة أشياء لم أكن قادرة على رؤيتها؛ ربما لأن الاعتيـاد صنع بيني وبينها ألفة حتى ظننت أنَّها طبيعية، ولكن أنت تعلم أنَّ أولئك الذين يكشفون لنا عمَّا لا نراه أو نتعمَّد عدم رؤيته فإننا في العادة نقابلهم بالنكران؛ لذلك اغفر لي تسرعي وحماقتي تلك.

غادرت الغرفة دون أن تُضيف كلمة أخرى، لقد أيقظت الكلمات الأخيرة التـي نطقت بها وجعًـا في أعماقها، كانـت قادرة على تحطيـم جدران من الأوهام كانت تتشبث بها، ما أعجبَ الكلمات التي تُفسِّر أعماقنا، ننطق بها ثم نبدأ بالتعرف عليها كأنَّها شخوصٌ أيضًا!

إن كان لكل شخص لونٌ معينٌ فلن يكون لونها سوى العتمة، إنَّ العتمة التي كانـت تُحيط بالصورة ما هي إلا أعماقها الغارقة والتائهة، لقد أيقنت بهذا الآن، ليـس المهم ما تكـون عليه وجوهنا بل ما تكون عليـه أعماقنا، شعرتْ بألم يضربُ كل جسدها فأيقنت أنَّ الأمير في تلك اللحظة قد غادر القصر، فقررت أن تذهب إلى المكتبة، فلا شيء كالكتب قادر على أن يمنحنا دهشة أبدية ولذة كاملة، لا شيء قادر على فهم مشاعر أثقلتنا كالروايات.

سلكت الطريق المؤدي إليها، وفي الطريق لمحت الشيخ من نوافذ الممر الزجاجية وهو يقفُ في الخارج برفقة بياتريتشا، أراحت كفها على الزجاج وتساءلـت وقد ضاقت عيناهـا: أكان قادرًا على رؤية عتمـة أعماقي، لذلك نفر مني؟!

ثم تابعت طريقها إلى المكتبـة، وعندما دخلت الغرفة المليئة بالنماذج والتُّحف وصلها صوت حديث كنديد والشيخ أيمن فقررت الصعود.

أحقًّا هذا ما تظنه؟! ربما يفعلها الملك إلا أَنَّ لهم الحق كل الحق في إبداء رأيهم.

وإن أبادهم جميعًا فإن مطلب الحرية لا يموت، فهو يتوارثُ جيلًا بعد جيل، إن مُشْكلة الطغاة الأبدية أنَّهم لم يدركوا ولن يدركوا أنَّ العنف لا يَصنع سوى الإصرار وأنَّهم بعنفهم هذا لا يصنعون سوى الأبطال.

إنني أتفق معك، من حقهم أن يزرعوا أراضيهم ويستعملوا مياه السد.

صمتا حال رؤيتها وبدا على وجهيهما الارتباك، وكان واضحًا أن وصولها في هذا الوقت غير مرحَّب به أو أنَّها سمعت كلامًا ما كان ينبغي أن تسمعه، ألقت عليهما التحية من مكانها ثم اتجهت تبحثُ في أرفف الكتب عن رواية ما، بينما همس كنديد للشيخ: أتعتقد أنَّه سمع شيئًا؟! إنَّه مقرَّب من الأمير.

أجابه الشيخ مُظهرًا عدم اكتراثه: وإن يكن، لم نقل إلا حقًّا، ولا أعتقد أنَّ الأمير يُحدِّثه بشيء مما يجري، كما أنَّه يشاركنا الرأي.

ثم قصدها حتى وقف خلفها وسأل: كيف حالكَ، اليوم، سيد هاملت؟

فوجئت به إذ إنَّها كانت قد أخرجت رواية بالفعل وبدأت قراءة أسطرها الأولى، فبان على وجهها الارتباك لحظة، سرعان ما بددته ابتسامة مرحِّبة وهي تُجيب: إنَّني بخير الآن.

علَّق وهو ينظرُ لما في يدها: لا أعتقد ذلك.

لاحت على وجهها علامات التساؤل والاستنكار لكنّه لم يُجبها بشيء وأمسك الكتاب الذي بين يديها وقرأ عنوانه؛ فسألته: ما الذي تعنيه بقولك إنني لستُ بخير؟!

توضَّحها لحظات وتريَّث قبل أن يجيب: يُمكنني أن أراك ما زلتَ تائهًا من خلال النظر في عينيك.

وجم وجهها لحظات قبل أن تفترَّ شفتاها عن ابتسامة يائسة مضطربة وهي تجيبه: لا يمكنني أن أنكر ذلك، وأنا التي أعلمُ أنَّك روائيٌّ وأعلمُ أنَّ عين الروائي ليست كأي عين، إنَّها عين يُمكنها أن تنفذ إلى الأعماق.

ثــم لاحــت على وجهها إيمــاءات استجداء وهــي تُردف: ولكــن قبل أن تمارســ فنــك الروائي عليَّ وتعلّــق على عيني، لمــاذا لا تُخبرني كيف لي أن أتحرر من هذا التيه؟! فكما ترى إنَّ العمل وحده لم يكن كافيًا!

تبسَّم بلطف وأجابها: لقد أجبتك من قبل فعلًا.

أبــدت تساؤلًا فأوضح قائلًا: قلتُ لــك إنَّ الأمر يبدو إلى حد ما كالحياة والموت

والمــوت والحيــاة، أي منهما يَلد الآخــر؟ لا أحد يعلم. الفنــاء والبقاء، يُمكنــك أن تضــع مع الفناء كل مــا هو مظلم كالموت، ويُمكنــك أن تضع مع البقــاء كل ما هو منير كالحياة، وستجد أنَّ الظلام يخرج من النور، ويخرج من النور الظلام.

مــا أعنيــه هو: إن كان علينــا أن نموت أو نتيه ونعبر الظــلام لنصل إلى الشمــس، فــلا يَهمُّ عــدد المرات التي نفعــل فيها ذلك، المهــم أن لا نقف، الوقوف هو المعنى الحقيقي للفناء.

همَّ بالاستدارة فأوقفته قائلة: هذا ليس كافيًا.

استنكــر قولهــا، وعلى الرغم مــن ذلك أجاب: كل شيء فــي الحقيقة لا يبدو كافيًا، في بعض الأحيان يكون للظلمة والنور كلمتهما علينا أيضًا.

بتضــرُّع واضح فــي صوتها سألته: ولكن ماذا علــيَّ أن أفعل إن لم أدرك أصلًا إنْ كنتُ في نور أم ظلمة، في موت أم حياة؟!

تريَّث مبتسمًا ثم قال: إذن، سأقولها مرة أخرى...

ربَّت على كتفها مرتين وأردف: تأمل ترَ؛ فالنظر وحده ليس كافيًا، وصلِّ لا للصلاة وحدها؛ بل لتجد الله.

ثم أدبر وراح يضــربُ بعصاه الأرض بينما كانت تتابع خطواته بنظرات ذابلة.

وفجــأة أظلمــت عيناها فأطلقــت صرخة جعلــت الشيخ يعــود أدراجه، وكنديدَ يترك مكتبه ويندفع نحوها.

ولكـن ككل مرة كانت تفتـح عينيها لتجد أنَّ نظرها قـد ضعف أكثر من المرة السابقة.

في القصـر الملكي، كان الأمير أريان والأمير دوريـان قد مثلا أمام الملك لير وهما يتطلعان لما يقوله، وفي ذهن كل واحد منهما ألف تساؤل وتساؤل، كان إيجاو يقف بجوار دوريان بينما وقف كينت بجوار أريان.

وجَّـه الملك أنظاره نحو الأمير أريان وقال: لا شك أنَّـك سمعت بتمرُّد الفلاحين على الحدود التي تربطنا بـ (شامبلا).

أومـأ الأميـر موافقًا فأردف الملـك: ستذهبُ بكتيبة إلـى هناك وتُوقف التمرُّد، هذه وظيفتك كولي للعهد.

أبدت معارفه الدهشة والرفض وتبادل مع كينت نظرات استنكار ثم قال معترضًا: ولكن يا أبي إنَّ السد...

قاطعه الملك بقوله: إنَّه من حقنا، وماداموا رفضوا الانضمام لأراضينا فهـذا جزاؤهم العادل، إنَّ أمير شامبلا سيوقفهـم لكنَّه يحتاج إلى الدعم، وأنت تعلم أنَّ جزءًا كبيرًا من جيوشنا في الحرب.

ثـم وجَّه نظره إلى دوريان وأتـمَّ: وأنت ستذهب أيضًا مساعدًا له، كينت وإيجاو كذلك.

ثم نزل عن عرشه وعبر من جوار أريان الذي كان لا يزال واقفًا مصدومًا، وأردف: جهز عُدَّتك، اليوم، وارحل صباحًا لتصل خلال سبعة أيام.

فطـن أريان إلى أن هـذا الأمر لم يكن من أجل إخمـاد تمرُّد الفلاحين كمـا وصفه، بل من أجـل إخماد تمرده هو، لقد خشـي والده من وجوده هنا فـي أثناء لقائـه بسفير (أركاديا) والحديث معه عـن خطة للسلام وإيقاف الحرب، كما فعل ذات مرة مع أمير (شامبلا)، فآثر إبعاده.

ولكن...

رمــق دوريان الذي أظلم وجهه فــور تلقيه الأمر، وأتمَّ في أعماقه: وماذا عن دوريان؟! لماذا أبعده؟!

استــدار دوريان وغادر القاعة يتبعه إيجاو، ولكنَّه افترق عنه حال عودته إلــى القصر، كان دوريان قد اتجه إلى غرفته علــى الفور، بينما قابل إيجاو الأميــرة هاري لينقل إليها الخبر فأبــدت استياءها وغضبها وشتمت الملك لزجِّــه ابنها في مكان خطر كهذا، لكن إيجاو أشار إليها بأنَّها منحة عظيمة من الملك وفرصة لا تعوض، فهناك يمكنه أن يقتل الأمير أريان بكل سهولة وينســب ذلك إلــى المتمردين، ومن ثــم يرفع من شأن دوريــان ويمكّنه من القبض على زمام الأمور وتصفية خصومه.

كانــت بياتريتشا قد تمكَّنت مــن إلصاقها في زاوية وبــدأت استجوابها ببعضــ الأسئلة: قلت لكِ لن أتركِكِ حتــى تُخبريني كيف عرف السيد كينت أنكِ امرأة؟! إنني أشك في كلامك وأشعر بأنَّ الأمير يعرف أيضًا.

أبدت ضيقها واعتراضها وهي تجيب: وإن كان، ما المُشكل في الأمر؟!

أمالــت بياتريتشا رأسها حتــى أصبح ملاصقًا لوجههــا وتصاعدت من عينيها نية بضربها أو طعنها وهي ترد: ماذا؟! ما المُشكل؟!

أبعدت رأسها وهي تُجيب: نعم، لماذا تعتقدين بنا سوءًا؟!

تراجعــت بياتريتشا إلى الوراء وحاولت أن تهدأ قليلًا قبل أن تلقي عليها مــا تخشاه، قائلة: هذا لأن الأميــر يُحبك. إنَّ أي شخص هنا يُمكنه أن يقرأ هذا الشعور فيه.

لــم تبدُ ذاهلة أو مستنكــرة بل بدت كأنَّها تعرف ذلك حقًّا، عبس وجهها وراحــت تفكر كيف لاحظ الجميع ذلك بينما كانــت كل ما تفعله هو محاولة

إخفـاء ومغالطـة شعورها! على الرغـم من أنَّها كانت قـادرة على لمح هذا الشعور فيه منذ أول يوم قابلته، والشيء الآخر الذي لا يمكنها إنكاره هو...

كانت تـدرك أنَّ ما تفكر فيه وتنوي قوله سيثيـر غضب بياتريتشا أكثر، ومـع ذلك تماسكت ودققت في عينيها قبل أن تجيب: لا يمكنني أن أنكر؛ أنا أيضًا أحبه، وأعتقد أنَّه شعور طبيعي.

بـرد وجه بياتريتشا ولاحت عليه خيبة متألمة؛ فقد كانت ترجو إنكارها، فطنـت الكاتبة لذلك فأردفـت موضِّحة: لكنَّه ليس كما تتصورين؛ إنَّه كحب الأم لابنها.

هنا تلاشـت خيبتها وحطَّت السخرية محلهـا، فابتسمت بتهكُّم ونفخت فمها غيظًا ثم انفعلت وقالت ساخرة: أم لابنها؟! هل تتحامقين معي؟! وهل هو يُحبك كحب الأب لابنته يا ترى؟!

رفعـت يديها مشيرة لهـا أن تهدأ ثم قالت موضحة: مهـلًا، انظري إليّ جيدًا..

سأخبرك بحقيقة مشاعري، لقد أخطأتُ الوصف، يُمكنني أن أصفه لك بأنَّـه حب أفلاطوني، كلا ليس كذلـك أيضًا، إنَّه شيء مختلف تمامًا عن كل مشاعر عرفتها من قبل، إنَّه نوع من الحب لم أجربه سابقًا، أو...

عندمـا لاحظت بـوادر الاستنـكار على وجـه بياتريتشا، نفـت وأتبعت: أعنـي ربمـا جربته سابقًـا، إنَّه كحبنا للأشيـاء التي نعتقد أنَّهـا مقدسة أو نعاملهـا كأنَّهـا مقدسـة؛ فتمنعنـا قداستها مـن أن نقترب منهـا خشية أن تلوثهـا مطالبنـا، فنكتفي بالنظر إليهـا والسماع منها والرغبـة في بقائها، أعتقـد أنَّ هـذا النوع من الحب هو الحب الأبدي والخالـد، وهو أطهر أنواع الحب لخلوه من الرغبات والطلبات، هذا ما يمكنني أن أفسر لك به علاقتي معه.

قالت الجملة الأخيرة متقطعة ومطَّت حروفها أكثر من اللازم؛ لأنَّها لاحظت تبرُّم وجه بياتريتشا أكثر، لذا أردفت: حسنًا بدون فلسفة، إنَّه كحبنا لأبطال الروايات مثلًا.

ثم أمسكت عن الكلام وشعرت بأنَّها قد تخلصت من ثقلٍ جثم على صدرها لمدة وفوجئت كيف أمكنها أن تفسر ما تشعر به بهذه الكلمات البسيطة؛ فابتسمت، لكن الأمر كان مختلفًا مع بياتريتشا التي رمقتها باستخفاف ثم جذبتها بغتة من مقدمة شعرها وهي تعلّق: أبطال روايات! مطلب! ولكنكَ تحتمي بالأمير؟! أليس هذا مطلبًا؟! إنَّ كلمات الفنانين والشعراء لا تُقنعني، سيد هاملت، ثم لماذا لم تبقَ، سيد هاملت؟! ها؟! لماذا؟!

صرخت متوجعة، وراحت تُقاومها محاولة تخليص شعرها من قبضتها، وفي تلك الأثناء شعرت براحة في جسدها وتحرره من أوجاعه، فعلمت أنَّ الأميرَ كان قريبًا منهما، فراحت تبحث عنه وهي تدفعها بكلتا يديها، وما إن أبصرته في آخر الممر حتى صرخت مستنجدة: سيدي.

توقفت بياتريتشا على الفور، فأسرع خطواته ليقترب منهما، فشرعت بياتريتشا تُرتب لها شعرها بعد أن جعلت كل خصلة منه في اتجاه مختلف، وما إن دنا حتى سأل: ما هذه الجلبة؟ ما الذي يحدث هنا؟

همَّت أن تجيبه، لكن بياتريتشا لم تمنحها فرصة وأسرعت مجيبة: لا شيء، إننا نتسامر فقط وقد غلبتنا الحماسة.

حدجتها بغيظ وأكدت ساخرة: نعم، مثل حماستها المعتادة في سكب الماء على رأسي!

زمَّت بياتريتشا شفتيها في حركة قصدت منها إخراسها، لم ينتبه لها الأمير وقال: اتركيه يهنأ، هذه الليلة، يا عزيزتي وينم جيدًا؛ فغدًا وراءنا يوم طويل.

تساءلت بياتريتشا: يوم طويل! ما الذي تعنيه؟!

وكانــت هي أيضًا تنظر إليــه متسائلة، فأجاب: سأذهب غدًا إلى منطقة حدودنا مع (شامبلا)، لقد أمرني الملك بذلك.

عمَّ الصمت لحظات قبل أن تقول بياتريتشا: سآتي معك إذن.

هزَّ رأسه رافضًا وقال: إنَّ المكان خطير للغاية، ولن أسمح لكِ بذلك.

اعترضت: وماذا عن السيد هاملت؟

استدار وهو يُجيبها: دعي السيد هاملت ينم ليستعد.

ثم اتجه ناحية غرفته. حدجتها بياتريتشا بنظرة حانقة ثم راحت تلحق بالأمير علَّها تقنعه، أما هي فقد ظلَّت واقفة تُحاول استيعاب ما قاله، أيعني أنَّها ستغادر القصر غدًا؟!

اتجهــت إلــى غرفتها وهي تشعر بغـزو الألم لها شيئًــا فشيئًا، علَّقت في أعماقهــا: ربمــا سيكون هذا أفضل لــي، على الأقل سأبقــى إلى جواره، ولن أشعر بهذا الألم.

وعندمــا وصلت إلى الغرفة تذكــرت رامبرانت وما قالتــه صباحًا بشأن اللوحة، فاتجهت نحوها وظلَّت لحظات تنظر إلى الثوب الذي يُغطيها قبل أن تقــرر رَفْعه، ولكن لم يكن الأمر ككلِّ مرة، لم ترَ هذه المرة عتمة ازدادت أو نقصت، ولكن رأت ما جعـل عظامها ترتجف وعينيها تجحظان من الذعر، كانت عينان تطلَّان عليهــا؛ لقد بانت ملامح اللوحة أخيرًا، لم تكن العينان سوى عينيّ فولتير الساخرتين؛ لم يكن في اللوحة سوى الأمير أريان.

الفصل التاسع

ليس بإمكانِ المرء غلق أبواب الأملِ إلى الأبد؛
فإنْ أَغلق بابًا فسيُفتح له آخر.

كانت الكتيبة التي سيقودها ولي العهد، تقفُ بكامل عتادها مصطفة اصطفافًا عسكريًّا بانتظار الأمر بالتحرك. حضر الأمير أريان برفقة كينت وبياتريتشا والكاتبة إلى القصر الملكي، وكانت سحابة من الكآبة والضيق تحطُّ فوق كينت وبياتريتشا؛ كينت الذي يرفض الأمر في قرارة نفسه، وبياتريتشا التي تخشى على حياة أريان. أما الأمير فكان يبدو متماسكًا ولم يبدُ على ملامحه أي تعبير يدل على الرفض أو الانزعاج، بل كان وديعًا تمامًا والابتسامة لم تُفارق شفتيه منذ خرج من قصره وودَّع الجميع وجلس برفقة الملك الذي أمره بالمغادرة بعد برهة. أما هي فكان كل ما تفعله هو عيش اللحظة؛ لذلك كانت انفعالاتها تُناسب كل حديث وكل إشارة، ولكن عندما وصلوا إلى مكان الانطلاق فقدت اتزانها وملأها الذعر، وهي تشاهد الكتيبة على مدِّ بصرها، حركت نظرها المذعور إلى الأمير فوجدته يتحدَّث مع بياتريتشا وكينت، ومع ذلك قاطعتهم متسائلة: ما الذي سنفعله عند الحدود؟!

وجم ثلاثتهم وبدوْا متفقين على الصمت، فلم ينطق واحد منهم ليجيبها؛ ليس انتقاصًا من سؤالها ولكن كان كل واحد منهم عاجزًا عن

تفسير: لماذا حقًّا؟! ما قيل لهم: إنَّهم متوجِّهون لقمع تمرُّد الفلاحين، ولكن في قرارة أنفسهم يُدركون أنَّه ليس تمردًا وأنّه فعل مباح للتعبير عن الكرامة ورفض الظلم.

عندما أدركت أنَّ الإجابة لن تبرح شفاههم، عادت لتنظر إلى امتداد الجنود، دنا منها الأمير وأفصح عمَّا بداخله: هاملت، يبدو أنَّني كنتُ مخطئًا لأنني لم أوضِّح لكَ الأمر، إنَّ المكان الذي نتجه إليه خطير، والمهمة كذلك، يُمكنني أن أقول لكَ بكل صدق: إنَّها ليست مهمة نبيلة...

صمت قليلًا ولاحت على عينيه نظرات ذابلة وواهنة قبل أن يُردف: ولكن بطريقة ما...

أطال النظر إليها قبل أن تتسرب إلى شفتيه ابتسامة حزينة وهو يتمُّ: إن أردت البقاء هنا أو الذهاب معي، فالأمر متروك لك.

عندما نطق بالخيار الثاني كان قد برق في عينيه رجاء صامت لمحته، ومع ذلك لم تُجبه على الفور، وبقيت منعزلة لبعض الوقت تُراقب الجنود وحركاتهم، ومن بعيد تمكَّنت من معرفة دوريان وهو مُقبل مع إيجاو من هيئتهما فقط بعد أن بذلت جهدًا كبيرًا وهي ترفُّ عينيها لتلمحهما، كان الأمير أريان في تلك اللحظة يتأهبُ لامتطاء حصانه الحربي مخالفًا رأي البقية الذين طلبوا منه أن يستقل عربة، ولكنه كان يُبصر أكثر من أي وقت مضى، لقد أصبح بإمكانه الآن تمييز حدود خيالات الأشخاص الذين يقفون أمامه وإدراك كثير من معالم الطريق، لذا أراد أن يمتطي الحصان كما اعتاد دومًا، تشبثت بياتريتشا بطرف كمه، كانت لآخر لحظة ترجو في أعماقها منعه، ولكنّها لحظة الوداع، ابتسم لها ليُطمئنها ثم مال عليها وربَّت على كتفها وكان قادرًا على لمح طيف الدموع الذي حطَّ في عينيها، ثم امتطى الحصان دون أية مساعدة، فتيقَّظت شكوك كينت حيال بصره، وكاد يستفسر منه لولا أن بياتريتشا حدَّثته وأوصته بالأمير.

أمـا هي فكانـت تُراقب كل ذلك مـن مسافة قريبة، ولاحظـت فجأة أن كينـت ينظر إليها. ثـم سرعان ما التفتت بياتريتشا إليهـا فأدركت أنَّهما لا شك يتساءلان عن أمرها. دنت منهما وقد عزمت أمرها قائلة: سأذهب.

سألتها بياتريتشا: معي؟!

رفعت نظرها إلى الأمير وهي تُجيب: بل مع الأمير.

ابتسـم كينت ثم أسـرع لإحضار حصان لها، أما هـي فقد ظلَّت تراقب الأميـر وتفكِّر: في موقـف كهذا يبدو أن جواب دوريـان: "هكذا" مقنعًا وإلا فلماذا أذهب؟!

سيد هاملت.

نادتهـا بياتريتشـا فاستجابت لها وفوجئـت بمشاعر الـود التي ظهرت فـي عينيها وابتسامتهـا المشرقة، فلم تزد على فغر فمهـا وهي تنظر إليها وحسـب، دنـت منها ثم جذبتهـا إليها لتُعانقهـا بلطف ثـم اعتدلت وقالت: ابقِي بخير، في الحقيقة عليّ أن أعترف بأنَّه منذ وصولك قد ملأتِ القصر بهجـة بسبب تصرفاتك الطائشـة وطبيعتك المرحة. لـذا عليكِ أن تعودي بخيـر، إنني في انتظاركِ لنكمل معاركنا، ثم أمسكت يدها وشدَّتها للأسفل وتابعت: أوصيك بأريان.

لم تُجبها بشيء واكتفت بإيماءة من عينيها تنمُّ عن الفهم والعزم؛ كانت لا تزال مصدومة.

فـي تلـك اللحظة وصل كينت وهـو يقود الحصان من لجامـه، فأرسلت بياتريتشا يدها وألقت نظرة على الحصان وعلَّقت تلطُّفًا: ما هذا التمييز؟! أرى أنك قد اخترت فرسًا من خيرة أفراسنا!

لكن الأخرى أطلقت صوتًا ينمُّ عن الرفض، وقالت معترضة: مهلًا، إنني لا أعرف كيف أمتطي حصانًا! يكفيني ما أصابني من حصان عطيل.

ضحك كينت ثـم تحدَّث ليُطمئنها: لا عليك، سأكـون بقربكَ تمامًا، لن يجمح الحصان وسيسير مع المجموعة.

ولكن...

وجَّهت نظرها إلى باتريتشا علَّها تدعمها ولكنَّها كانت تُشجعها بنظراتها؛ فلم تجد خيارًا إلا أن تستسلم لرغبتهما وامتطت الحصان، وانقضى بعض الوقت بين صياح وتذمر وخوف من كل حركة يقوم بها الحصان، وجهد كبير بذله كينت ليُطمئنها، كان الأمير يتابع كل ذلك وهو يبتسم، لكن الجميع صمت فجأة عندما أقبل دوريان بحصانه وقال مخاطبًا شقيقه: أريان، ألن تُعطي أوامرك بالانطلاق؟! لقد تأخرنا!

مالت بجسدها رغبة في إخفاء نفسها خلف جسد كينت الذي كان يحول بينها وبين رؤية دوريان لكنَّه كان قد شاهدها بالفعل، لذا مال بجسده هو الآخر وعلَّق: أنتِ؟!

علمت أنَّه يقصدها، فاعتدلت ونظرت إليه، وإذا به يُتبع: جيد، سيكون بوسعنا أن نكمل حوارنا.

ردَّت في أعماقها ساخرة: حوار؟! أي حوار؟! كان كل ما يفعله هو محاولة إخافتي وحسب!

ثم لوت فمها ووجهها، فانصرف على الفور، وبعدها بلحظات أعطى الأمير أوامره بالانطلاق.

كانت تتوسط الأمير وكينت، ومضت الكتيبة في سيرها، وودعتهم باتريتشا وهي تلوِّح لهم بيديها، بعد مضيّ وقت طويل شعرت بالألفة تجاه حصانها، وغادرها كل شعور بالتوتر وبدأ فؤادها يطمئن شيئًا فشيئًا ويصفو فكرها، أطلقت عينيها حولها، كان الأمير أريان سارحًا يفكر، أما دوريان فأمكنها أن تُدرك أنَّ عينيه لم تكونا تنظران إلى أي شيء، وأنَّ أعماقه تتحدث معه بأحاديث موجعة صبغت على ملامحه حزنًا صامتًا حتى أصبح تمثالًا لجمال حزين!

مضت الأيام الأولى دون أي مكروه ولم تخلُ من مواقف مضحكة وأحاديث جادة، تمكَّنت الكاتبة خلالها من معرفة شخصية إيجاو أكثر؛

لقـد كان متصنعًا، وكل حركاته وردوده يمكن لأي شخص أن يلحظ تملُّقها، أمـا دوريان فكان قليل الكلام، وعلى الرغم مـن أنَّه كان يتجنب مشاركتهم الحديـث ويبدي تذمـرًا وفظاظة أثناء حديثـه مع شقيقــه، إلا أنَّ صوتًا في أعماقهـا كان يخبرهـا بأنَّــه مجرد تصنُّــع وأنَّه يُحاول أن يُخفـي من ورائه مشاعــر يرفضهــا أو لا يريد أن يقــرَّ بها، وما زالت مصــرَّة على كونه يحبه لكنَّــه يغار منه، لا يمكنها أن ترى فيه سوى ذلك؛ ذات مرة أوشك الأمير أن يقع وهو يهمُّ بامتطاء الحصان فساعده دوريان وثبَّته دون أن يتفوه بكلمة.

ومع انقضاء الأيام والليالي لاحظت أن شعورها بالنفور كلما اقتربت منه أو دنــا منها قد تبدد شيئًا فشيئًــا، ووجدت نفسها في أحيان كثيرة تردُّ عليه دون تحــرُّج أو خوف أو خجل؛ إنَّ الحديث قــادر دومًا على تحطيم الحواجز التــي يصنعهــا الصمت أو نصنعهــا بأنفسنا، بدت لهــا الآن مقولة روجين* محقــة للغاية: "أثق بك حينمــا أسمع صوتك"، إنَّنا حقًّــا بحاجة للمكاشفة والحديث لفهم بعضنا أكثر.

فــي الليلة الأخيرة كانت الكتيبة قد اقتربــت كثيرًا من الحدود ولم يتبق لها سوى مسيرة يوم واحد، كانت جالسة مع كينت والأمير أريان حول النار، صنــع كينت إبريقًا مــن الشاي لتدفئتهــم، وسرحت عيناه لحظــات قبل أن ينطق معبرًا عن شوقه: لقد اشتقت لعطيل، تمنيت أن يكون معنا.

أومأ الأمير فقط، ثم حطَّت سحابة كئيبة فوقه سرعان ما أحاطت كينت الــذي راح يحتسي مــن كوبه بصمت مطبق، وكانت هــي تراقبهما ثم أخيرًا قــررت أن تقطــع صمتهما بسؤالها: أريدُ أن أفهم، مــا نوع هذا التمرُّد الذي تتحدثون عنه؟!

نظــر كينت إلــى الأميــر ليستأذنه في الحديـث، وحينما لاحــظ صمته أجابها: حسنًــا، إنَّ فلاحي (شامبلا) الذين يعيشون في قرى الجنوب قاموا

---

* مــا بيــن القوسين عبارة قالها روجيــن - من أبطال رواية (الأبلــه) لدوستويفسكي - أثناء حوار له مع الأمير ميشكين.

بإضراب أو تمرُّد كما يصفونه، لقد توقفوا عن العمل؛ لأن المياه الجوفية لم تعد تكفيهم، وهم يُطالبون الآن بفتح السد لهم كما كان سابقًا.

قطَّبت حاجبيها وتساءلت: ولماذا لا تفتحون السد وحسب؟!

لاحت على شفتي كينت ابتسامة ساخرة ورمق الأمير الذي لم يُبد أي تجاوب كأنَّه لم يستمع إليهما، فلم يُجب وراح يُكمل ما بقي من الشاي على الرغم من معرفته أنَّها كانت تتطلع إلى إجابته بفضول تام، وبعدما فرغ، رمقها فوجدها لا تزال تنظر إليه بفضول فقال: إنَّ الأمر ليس بهذه البساطة، لقد استولى عليه الملك لير وفرض عقوبات قاسية على أهل (شامبلا)، إنَّ أكثر المتضررين هم الشعب والناس البسطاء.

علَّقت: هكذا الأمر دومًا، لا يتضَّرر سوى الشعب والبسطاء.

نطقت الكلمات الأخيرة والحرقة تخالط صوتها وما لبثت أن انتقلت إلى صدر الأمير فأخرج تنهيدة تنمُّ عن قهر مكتوم، قبل أن يقف ويعود إلى خيمته دون أن ينطق بكلمة ودون أن يُكمل ما بكأسه.

عندما توارى عن أنظارهما التفتت إلى كينت، ففهم ما التمع في عينيها؛ لذلك جاء حديثه على هذا النحو المثقل بالهمِّ: لا يُمكنني أن أفهم فيم يفكر الأمير، من الواضح عدم رضاه عمَّا يحدث، وما زلتُ أعتقد أنَّه كان عليه الإلحاح أكثر على الملك، ولكنَّه سرعان ما أذعن، وهذا ما يُحيِّرني!

لم تعقب بكلمة، هي أيضًا تحاول فهم الموقف لكنَّها لم تستطع، أكملت ما بقي في كأسها بصمت تام، ثم وقفت وأبدت حركة بعينيها تنمُّ عن الاستئذان ثم غادرت لتتجه نحو خيمتها، ولكن بدلًا من أن تدخلها وجدت نفسها تدور حولها لتقف في البراح الخلفي وتنظر إلى السماء المظلمة، خلق ذلك في قلبها شعورًا موحشًا، فقررت أن تعود أدراجها لكنَّها توقفت حينما شاهدت دوريان على بُعد مسافة منها، ولم تستوعب أن ساقيها قد حملتها

إليــه ووقفت على مقربة منه إلا بعــد أن زوى طرفه إليها ثم عاد ليحدق إلى السماء، انكمش وجهها وأرادت أن تعود لكن ساقيها لم تستجب لها.

زوى عينيــه مرة أخرى ناحيتهــا لكنَّه أطال هذه المرة قبــل أن يُفاجئها بسؤال غير متوقع: هل أنا سيئ إلى هذا الحد؟!

ثم التفت إليها بكامل جسده وركَّز في عينيها المصدومتين قبل أن يُتابع حديثــه بنبرة لا تُخفي وجعه: إنَّ كل من حولــي بلا استثناء يتملَّقني، ويُبدي حبــورًا مصطنعًــا حال رؤيتي، أما أنــتِ فقد أمكنني رؤية نفــورِكِ مني منذ البداية على نحو واضح وصريح، هل تعتقدين أنِّي سيِّئ؟!

كان واضحًا لها أنَّه لا ينتظر منها جوابًا، وكل ما أراده هو الحديث فقط؛ لــذا فإن كل ما فعلتــه هو زمُّ شفتيها والإنصات له بينمــا أردف بانفعال: ما الخطأ؟! ما المنفِّر في كون المرء يُحب نفسه؟! ما الخطأ في أن يُحب نفسه فيحقق لها سعادتها؟!

تريَّــث لحظــات ازداد خلالهــا ظــلام وجهه ثــم اندفع قائــلًا: إنني في الحقيقــة لا أعتقــد وجــود شيء اسمــه السعــادة، ولكن ما الخطــأ في حب الذات وتحقيق ملذاتها؟! ما السيئ في ذلك؟ إنَّ الجميعَ يرغب في ذلك في النهاية، والذين يُعاكسون رغباتهم الحسية لا يفعلون ذلك إلا جرَّاء عجزهم عن فعلها، لا رغبة منهم، ثم يتشبثون بأمور كالأخلاق والقيم ليَهَبوا عجزهم مجدًا مصطنعًا وقداسة وهمية.

إنَّ كل ما يفعلونه هو الالتفاف على أنفسهم.

أمسك عن الكلام فجأة بعدما أدرك اندفاعه وخطأه في الحديث معها. لــذا هــرب بعينيه وهو يســأل نفسه كيــف أمكنه أن يُحدثهــا ويبدي كل هذا الضعف أمامها!

لكــنَّ هروب عينيه لــم يَكْفِه؛ فاستدار يهمّ بالمغــادرة لكنَّه توقف بعدما سمعها تقول: أنتَ أيضًا.

التفت إليها متسائلًا، فأوضحت: أعتقدُ أن كل ما تفعله أنتَ أيضًا هو الالتفاف على نفسك.

امتقع وجهه كثيرًا فلم يكن مستعدًّا لحديث من هذا النوع، ولكنَّها لم تأبه ولم تعلم من أين أتتها الجرأة، فأردفت: إنَّ استغراق النفس في الملذات أو حرمانها التام ما هو إلا التفاف عليها، عن ذلك الصوت الذي جعلك تتردد وتقرّ في أعماقك بأنَّ ما تفعله سيئ، أنتَ لا تحتاج إلى جواب، أنتَ أردتَ فقط أن تُؤكد لنفسك ذلك. ثم إنَّك...

لا تعلم لمَ شعرت بالكلمات تشدّ قلبها بغلظة فدفعتها دفعًا لتتخلص منها: أنتَ لا تسعى لإسعاد نفسك أو تعاستها، ولا حتى الركض خلف ملذاتها أو حرمانها: لأنَّك في الحقيقة لا تُحبها، وكل ما تريده هو التخلص منها وحسب، أنتَ تشعر بثقلها عليك ولكن...

لا ذنب لها، أنتَ من أثقلتها في النهاية، وعليك دفع الثمن.

ظلا صامتين لحظات طويلة إلا من أحاديث أعين قد خشعت وراحت تقيم صلاة تُقرّ فيه بذنبها الفظيع.

ثم توارت عن أنظاره عائدة إلى خيمتها وشعرت بسواد أطبق على عينيها لينتزع منها ضوأها، ولكن لم يُصبها الذعر هذه المرة، فقد اعتادت هذا الشعور، وكان كل ما فعلته هو فتح عينيها ومحاولة النظر ومعرفة إلى أي مدى يُمكنها أن تبصر الآن، ورأت، هذه المرة، أنَّ الشجرة التي بجوارها تبدو على نحو ما مبهمة!

في الصباح تأهبت الكتيبة للانطلاق بعد أن تناول الجميع إفطارهم ثم انطلقوا في طريقهم نحو حدود شامبلا، في منتصف الطريق بدت ملامح كينت كمن تذكر شيئًا فجأة وهو ينظر إليها، انتبهت لذلك فسألته: ماذا؟!

هزَّ رأسه نافيًا ولكن فضولها ازداد فألحَّت: لماذا نظرت إليّ هكذا؟! أهنالك أمر ما؟!

ابتسم محرجًا وهو يُجيبها: لا شيء، لقد تذكرت فقط كتابك الغارق.

أطبقت شفتيها في حركة تحثّه على الصمت لئلا يسمع الأمير ولكنّه تابع: فخشيتُ أن يلحقنا سوء حظك.

تساءل الأمير وهو يبتسم بحماسة: ما القصة؟ عن أي كتاب غارق تتحدثان؟!

ضربت جبهتها وتنهّدت ثم رمقت كينت بنظرة متوعّدة لم تردعه وضحك حيالها وراح يُحدّث الأمير بما قالته له، ذلك اليوم، من أخبار سوء حظها ونكباتها، وكانت مدار الحديث طوال الطريق.

وأخيرًا وصلت الكتيبة إلى المكان المنشود، ووقفوا على تلة عالية قريبة من السد، وألقى الأمير أوامره إلى كتيبته بتجهيز المكان للمبيت، ثم خرج على رأس طليعة مع كينت ومعها ليشاهدوا السد، وما إن اقتربوا وترجلوا ودنوا من السد حتى انكشف لهم الجانب الذي تقع فيه قرى الجنوب، لم تكن الصورة التي كشفت لهم عن نفسها صورة لقرية، كانت صورة لحطام اصطبغ بالرمادي، كانت الأراضي حولهم قفرًا، لقد ملأ النظر إليها أنفسَهم بشعور بشع ومربك وفظيع كالشعور الذي يُلازمنا حال مشاهدة لوحات غويا السوداء، كان بإمكان أي شخص أن ينظر إلى هذه القفار الرمادية، أن يُدرك كم قصة وقصة مأساوية قامت برسمها على هذا النحو، تغضّن وجه الأمير، ثم حرك عينيه أسفل السد، وتمكّن من تمييز الحشود التي اجتمعت معبرة عن غضبها ومطالبة بحقها في الحياة من سواد رءوسها الذي بدا له كنقاط سوداء من هذا العلو، وجّه حديثه إلى كينت: أرسل مبعوثًا يخبرهم بوصولي واطلب منهم أن ينتدبوا أحدًا منهم ليقابلني.

لم يفهم كينت سبب دعوته تلك لكنّه وافقه على الفور، أما هي فقد دنت من الحافة بحذر لترى الحشود المجتمعة، أدركت حال وقوفها وكلال عينيها ومحاولتها المستميتة لتُبصر، أنّها لم تعد قادرة على الرؤية جيدًا، أدارت عنقها إلى الخلف قليلًا، كان الأمير يقف خلفها على بُعد خطوات فقط، وكان مطلقًا عينيه المتألمتيْن ناحية الحشود، وما إن وقعت عيناه عليها حتى

ابتسـم، فأيقنت أنَّه أصبـح يُبصر جيدًا، والغريب أن هـذا لم يزعجها؛ أن تفقـد بصرهـا في حيـن أن الأمير أريـان كان يستعيد بصـره، لم تعد هذه حقيقـة مرعبة بالنسبـة لها، كان ثمة صوت في أعماقهـا يُخبرها بأنَّها هي السبب الرئيس لفقده بصره، وأنَّ ما يحدث معها ما هو إلا عدالة إلهية، كما أنَّ حـدوث هذا الأمر بالتدريج خفَّف مـن حدة وقع الصدمة عليها، فوجئت به يدنو منها ويُمسك يدها ويجرُّها نحوه وهو يقول: احذري، أنتِ قريبة جدًّا من الحافة.

نظرت إليه بتطلع وسألته: ما الذي تُفكر فيه؟

لقد كانت تعني السد، وعلى الرغم من أنَّه فهم مقصدها فإنه سأل: أنتَ لم تعد تُبصر جيدًا، صحيح؟!

شـدَّ يدها إلى الأسفل، ولكنَّها تمكَّنت من تحريرها وأبعدتها وهي تُجيب بحرج: كلا، أنتَ مخطئ.

أمسك كفها مجددًا بإصرار أكبر، واستدار وهو يَحثُّها لتسير معه ويقول: حسنًا، ابقَ بجواري.

انضمـا بعد ذلـك إلى الطليعة وعـادا إلى الموقع، نصـب الجنود خيمة ليستقبـل فيهـا الأمير منـدوب الفلاحين، وعندمـا غربـت الشمس وصل المنـدوب، كانت سحنته تنـمُّ عن فقر شديد، كذا خـداه الضامران وعيناه الغائرتـان، وكانـت مشيته تنـمُّ عن شراسة فـي الطبع، وقف أمـام الأمير وأطلـق عينيـه فيمن حوله، كان دوريـان يقف على يمين الأميـر، وعلى بُعد خطوات منه وقف إيجاو، أما كينت فكان على يساره، وبجواره وقفت الكاتبة.

تحـدَّث الأمير معه بأسلوب لطيف لم يَرُق لدوريان الذي لوى فمه حينما سمعه يقول: أيمكنك أن تخبرني بمطالبكم؟

حتى الفلاح الثائر شعر بغرابة بأن يخاطبه بتلك الطريقة المهذبة فوجد نفسـه يخفف من حدة نظراته ويرقُّ صوته وهـو يجيبه: إنَّ كل ما نرجوه، يا سيـدي الأمير، هو فتح السد لنا وعدم إغلاقه، إنّ إغلاقه سبب لنا الدمار،

قد ذبلت محاصيلنا، ومات أطفالنا وفقدنا نساءنا جراء الجوع والعطش، إنَّنا نطلب من فخامتكم أن توصل رجاءنا إلى الملك ليُراجع قراره.

قاطعه دوريان: كيف تجرؤ على طلب ذلك وتطلب أن يراجع الملك قراره؟!

أشار إليه أريان بالسكوت، ثم نظر إلى الفلاح الثائر الذي ارتعب من كلمات دوريان وقال له: سننظر في الأمر.

دارت أعناق الجميع إليه بين مستنكر ومستبشر، ولاحت بسمتان مستبشرتان على شفتي الكاتبة وكينت، نهض الأمير وهو يوجِّه حديثه للثائر: يُمكنك أن تتصرف الآن.

لم يستطع الفلاح تفسير الموضوع جيدًا ولكنَّه علم أنه تلقى وعدًا على الأقل بتنفيذ مطالبهم.

فاستدار وسلك طريقه وهو يُسارع خطواته لينقل الخبر إلى البقية.

ما إن اختفى عن أنظارهم حتى التفت دوريان إلى الأمير معترضًا: ما الذي تعنيه بقولك: سننظر في الأمر؟! هل أفهم من هذا أنَّكَ تعدهم بذلك؟!

أمعن النظر في عينيه لحظات قبل أن يتجاهله ويوجِّه حديثه إلى كينت قائلًا: غدًا صباحًا سنفتح السد، أبلغ الجنود بذلك.

جحظت عينا إيجاو حنقًا وغيظًا وتبادل النظرات مع دوريان الذي لم يكن أقل صدمة منه، بينما أطلق أحد الجنود صرخة تُعبِّر عن الفرح ثم سرعان ما انكمش على نفسه بعد أن أخرسه دوريان بنظراته ثم وجَّه حديثه إلى الأمير: أخي، لم يأمرك أبي بذلك! لقد طلب منكَ أن تعطيهم مهلة للانسحاب، وأمرك بتأديبهم إن لم يستجيبوا.

كان الأمير محافظًا تمامًا على هدوئه ولم يبدُ على ملامحه أي انزعاج، لكنه أجابه بنبرة رادعة: أيؤدب أصحاب الحق؟!

اتسعت ابتسامة كينت وتبادل النظرات المبتهجة مع الكاتبة فتمنَّت أن تطلق هي الأخرى صرخة معبِّرة عن فرحها ثم رمقا الأمير بنظرات إكبار وإعجاب، إلا أنَّ إيجاو أراد استنفار الاعتراض والرفض فقال: إنَّ هذه مخالفة صريحة لأوامر الملك، إنَّك بذلك تعصي الملك لير، هذا تمرُّد.

كانت النظرة التي وجهها إليه دوريان هي التي أمسكته عن الاسترسال، فغضَّن جبينه وأشاح عينيه بعيدًا محاولًا كتم غيظه، اقترب دوريان من أريان حتى وقف أمامه مباشرة وقال: لا تُجبرني على أن أختلف معك وأعصيك، أرجوك فكِّر، هذه الليلة، بقرارك جيدًا، سأذكِّرك مرة أخرى: لا تُفسد ما صنعه والدي بقليل من العواطف.

لم يُجبه الأمير إلا بنظرات باردة ظلَّ يرمقه بها، فأعطاه دوريان ظهره وغادر المكان برفقة إيجاو، ولكن عندما ابتعد قليلًا التفت فجأة خلفه حيث وقف إيجاو فصفعه بقوة على خده، نظر إليه إيجاو مذعورًا ومصدومًا ومتسائلًا، فخرجت من فيه الكلمات حارة ومتوعدة: لا تنسَ من أنت، إياكَ أن تتحدَّث مرة أخرى مع الأمير بهذه الطريقة الفظَّة وغير اللبقة، أو أن تفكِّر بإثارة النفوس ضده، أفهمت؟! أم تحتاج إلى ضربة سيف لتفهم؟!

جمد لسانه وظلَّت عيناه تدوران بفزع، لقد أدرك للتو مدى استياء دوريان منه ومدى حبه لشقيقه أيضًا، وهذا يعني فشل كل ما كان يفعله هو وهاري لبث الكراهية بينهما.

بعد أن غادر دوريان كان أريان قد وقف يتحدَّث مع الجنود، في حين مال كينت ناحية الكاتبة وسألها: هل استعاد الأمير بصره؟!

أجابت: نعم، وأردفت: أعتقد ذلك، لقد بدأ يستعيد بصره شيئًا فشيئًا، واليوم شعرتُ بأنَّه يبصر جيدًا.

أومأ كينت موافقًا وقال مؤيدًا: شعرتُ بذلك منذ فترة ولكنِّي لم أسأله، في كل مرة كان يحدث شيء يُجبرني على الصمت، ولكن...

تبسَّط وجهه وهو يُتمُّ: هذا خبر مبهج، إنني أكاد أطير فرحًا لذلك.

ثـم راح يُراقبـه لحظات قبل أن يـردف: حينما أتذكر ذلـك الهم الذي شعـرت به طوال الطريق أشعر بالندم؛ لقد كان علـيَّ أن أثق في الأمير، إنَّ شخصًا مثله ما كان سيلتزم بأمر كهذا.

بعـد ذلك تفرَّق الجميع، وكانت ليلة هادئة في خيام كتيبة الأمير، نامت الكاتبة وقد ملأها شعور بالفرح لم تشعر بمثله مذ جاءت إلى هنا.

ولكـن في القرية كان الأمر مختلفًـا تمامًا، فقد اجتمع الرجال لمناقشة ما حدث.

ابتـدأ أحدهم قائلًا: ما الذي يعنيه (سننظـر)؟! هل علينا حقًّا أن نثق بالوعود؟! ما الذي نلناه من الوعود؟! لا شيء.

- أنا أقترح أن نأخذ حقنا بأيدينا.

- ما الذي تعنيه؟!

قاطعهم ذلك الذي قابل الأمير، بقوله: ولكن بدا الأمير صادقًا.

صـاح شخصـص كان يقف في آخـر الحجرة: إننا نموتُ كل يـوم، وإن كنَّا سنموت في كل الأحوال لنجد سببًا لذلك، أنا أقترح أن نأسر الأمير.

أحـدث اقتراحه اللغط وتداخلت الأصـوات الموافقة والمعترضة وعجز الفلاح الثائر عن إسكاتهم، لكنَّه صرخ بصوت مرتفع فانتبه الجميع إليه ثم صـاح عليهم محذِّرًا وقد اشرأب عنقه: ما الـذي تقولونه؟ نخطف الأمير؟! ما هذه الحماقة؟! إننا نهبهم بذلك سببًا كافيًا لذبحنا.

صــرخ أحدهم متحمسًـا: إنهـم سيقتلوننا على كل حـال وإن نجونا من كتائـب ابن لير فلن ننجو مـن كتائب أمير شامبلا؛ فهـو متواطئ معه، وهو سبب هلاكنا.

دوَّت صرخة حماسية: نعم لنأسر الأمير ونهدد به الملك، لن يجرؤ على لمسنا ما دام الأمير معنا.

صـاح الرجل لكن يبدو أنَّهم قد أجمعوا أمرهم ونبذوا الذي انتدبوه وقد أصروا على تنفيذ خطتهم والتسلل إلى مكان الخيام وخطف الأمير في هذه

الليلة المظلمة، وهذا ما حدث فعلاً في الثالثة فجرًا، كانت ثلاثة أشباح تحوم حول الخيام مُتخفية تسير على أصابعها، وعندما ظنَّت أنَّها وصلت إلى الخيمة المقصودة دخلتها على الفور واتجهت نحو ذلك الجسد النائم في سلام، انقضوا عليه فجأة ومنعوه من الصراخ بكتم أنفاسه، ثم لفُّوه ببطانيات ثقيلة وحمله أقواهم على ظهره وأسرعوا هاربين بنفس الخفة التي وصلوا بها، لكن أيًّا منهم لم يكن يعلم أنَّهم لم يدخلوا خيمة الأمير وأن الذي يحملونه الآن لم يكن أريان وإنَّما هاملت.

استيقظت الخيام على خبر اختطافها، فزع الأمير وألقى أوامره بالتحرك فورًا نحو القرية، وخرج معهم.

حينما استفاقت وجدت نفسها مربوطة على جذع شجرة ومحاطة بوجوه بائسة تلوح عليها خيبة الأمل.

سألت: ما الذي يحدث؟!

لكن الصفعة التي تلقتها أخرستها وجعلتها تنظر ناحية صافعها بذعر تام، انهال عليها بواحدة أخرى وهو يصرخُ منفعلًا: من أنتَ يا هذا؟! أتعرفُ أنكَ أفسدت خطتنا؟!

ثم جذبها من ياقة قميصها بوحشية وهو يُتابع صياحه: لماذا كنتَ نائمًا في خيمة الأمير؟!

هزَّت رأسها نافية ثم تلقَّت ضربة من خلفها بخشبة غليظة على كتفها فظنَّت لوهلة أنَّه قد خُلع، ثم توالت الضربات عليها، حتى إنَّ أحدهم ضربها على بطنها بخشبة فشعرت بجلدها يُخدش، تألمت بشدة وسالت دماؤها، ثم انتقل هذا الشعور بالألم إلى كل جسدها.

كان الجميع يصرخون واختلطت أصواتهم لكنَّ الشيء الوحيد الذي تمكَّنت من تمييزه وهي تتلقى كل هذه الضربات، هي تلك الصرخة التي كانت تسأل: "من أنت؟!".

شعرت بالوهن يتسلل إلى جسدها في أماكن جروحها، وأصبحت رؤيتها ضبابيـة إلا أنَّها كانت قادرة على رؤية الخيـط الأحمر الذي خرج من فمها واندفـع ناحية عنقها، وكانـت "من أنت؟" تطنّ في أذنيهـا تستفزٌّ ذاكرتها المتعبة...

حقًّـا مـن أنا؟! من أكون بالضبـط؟! كنتُ قد نسيتُ ذلـك مذ جئت إلى هنا، فكان أي اسم يقال لي أرضى به.

ولكـن منذ متى يا تـرى نسيت؟! هل فـي تلك اللحظة التـي دخلتُ فيها المكتبة للمرة الأخيرة؟! أم كان قبلها بكثير؟!

على الأرجح...

حرَّكت رأسها قليلًا فتلقى ضربة جعلته يلتوي ويسقط على كتفها...

نعم، منذ ذلك الوقت الذي لم أعد أؤمن فيه بأي أمل.

شعرت بسواد يغشـى عينيها، كان مبعوث الأمير قد وصل، وكان آخر ما سمعته قبل أن تفقد وعيها: توقفوا، إنَّها امرأة!

هاملت..

هاملت..

هامـلت...

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان هذا الصوت يبـدو خارجًا من أعماق كهف عميق، ومع ذلك شعرت بأنَّهـا تستجيب له، رويدًا رويدًا فتحت عينيهـا لتجد نفسها بين يدي الأمير وهو يهزٌّ كتفيها ويسألها بوجه مذعور: هاملت؟ أأنت بخير؟!

تحرَّكت شفتاها ناطقة بصوت خفيض: هاملت!

ثـم أغمضت عينيهـا، فأظلم وجه الأمير وارتجفـت شفتاه صارخة وهو يهزُّها بعنف أكبر: لماذا لا تجيب؟!

أوقفـه كينت وانحنى نحوها، ثم قال لـه مُطَمئنًا: إنَّها بخير، لقد فقدت وعيها وحسب.

ثـم حملها واعتـدل واقفًا وهو يقـول: سآخذها إلى الطبيـب؛ لقد تلقت ضربًا مبرحًا.

اقتـرب دوريان منه وصاح بانفعال: ما الذي فعلتـه يا أريان، تفتح السد من أجلها فقط؟!

لـم يكن الأمير في وضع يسمح له بالمجادلة؛ لقد كان قلبه يلومه بشدة، كيـف لم يشعر بابتعادهـا عنه وظلَّ نائمًا إلى الفجـر بينما كانت هي تتلقى كل هذه الضربات، وحينما لاحظ دوريان تجاهله ازدادت حدته وهو يصرخ معاتبًا: كيف فتحت السد من أجلها فقط؟!

سدد إليه نظرات غاضبة وأجابه بحدة: كنتُ سأفتحه على كل حال، لقد قلتُ ذلك البارحة! ألم تسمع؟!

كزَّ دوريان على أسنانه قبل أن يرد بانفعال: أنتَ تُفسد كل شيء، لقد بدا موقفك الآن وكأننا قد استسلمنا إلى هؤلاء الوضعاء؟!

أشـاح وجهه محـاولًا استعادة هدوئه، ثم ارتسمت علـى شفتيه ابتسامة مضطربة ويائسة وهو يقول: وضعاء؟!

ثـم وجَّه نظره إلى عينيْ دوريان فلمح فيهمـا دموعًا ملتهبة وهو يردف: الوضيع هـو الذي يفكّر في وجاهته بينما يُقتل أمامه إنسان! عليك أن تفهم ذلك.

ثـم أعطاه ظهره وغادر المكان بعد أن أيقظ في أعماقه رغبة عنيفة في النيل منه.

أما إيجاو الذي كان يُراقب الموقف فقد أبهجه ما رأى، خاصة تلك النية الحاقدة التي بزغت من عينيْ دوريان، فابتسم.

عنـد منتصف الليـل كان الأمير أريـان في خيمته، لـم يغمض له جفن وهـو يُراقب تنفسها وحرارتها، ومع اقتراب الفجـر شعر بجسدها يتحرَّك.

فاقتــرب منها وعاينهــا، كان جفناها يطرفان بشدَّة ثم توقفـا فجأة، أقلقه ذلــك، فوضع يده فـوق عينيها وسمعها تتحــدَّث أخيرًا: الســد! أهذا صوت اندفاع الماء؟!

تغضَّــن وجهــه متأثرًا ورفع يده، فوجدها لا تــزال مغلقة عينيها وسألت: هل فتحتَ السد؟ أم أنني واهمة؟!

أخرج صوتًا خافتًا يُجيبها بـ "نعم"، ثم قام على الفور وأحضر لها كأس ماء لكنَّه وجدها أيضًا لا تزال مغلقة عينيها!

أسندها وقرَّب الكأس مــن شفتيها ليحثها على شربه فشربت منه بنهم حتى أغرقت غطاءها وثيابها، أربكه ذلك قليلًا وظلَّ ممسكًا الكأس لها حتى شربته كله.

التقط المنديل الذي بجواره وراح يمسح لها بقايا الماء على وجهها لكنَّه توقف بعد أن لاحظ الجروح على عنقها ووجهها واضحة، بالإضافة إلى زرقة حول إحدى عينيها، غمره إحساس بالندم واللوم: فغارت عيناه وهو يتحدَّث بصوت متألم: آسف، إنَّ ما حدثَ لكِ كان بسببي، إنَّها غلطتي.

ابتلــع ريقــه ثم تابع: ما كان علــيّ تركك وحيدة في الخيمــة. هذه المرة الثانية التي أتركك فيها تعانين هكذا.

أدارت وجههــا المتسائــل بدهشة ناحيته وسألته: مــا الذي تعنيه بالمرة الثانية؟! متى كانت الأولى أصلًا؟!ثم...

شعــرت بصوتها يرتجف وهي تتمّ: إنَّ هذا ليس ذنبك، سأموت في وقتٍ مــا على كل حال، فلمَ الخــوف؟! الحقيقة لقد تمنَّيت لــو أن كل شيء انتهى وقتـ...

أمسكــت عن الكلام بعــد أن قاطعها بقوله: أرجوكِ، توقفي عن قول مثل هــذه الكلمات اليائسة. ثم صــوَّب النظر إلى عينيها لحظــات قبل أن يسأل بمرارة: ثم لماذا لا تفتحين عينيك؟!

أشاحت وجهها ببطء وهي تُجيبه: إنَّها تؤلمني فقط.

لم تخبره أنَّ صوتًا في أعماقها يُخبرها أنَّها لم تعد ترى شيئًا، فلم تجرؤ على فتحها لتتأكد هذه المرة.

نهض معتدلًا وانحنى ليغطيها وهو يقول: سأذهب وأحضر لك بعض الطعام، فأوقفته قائلة: لم تجبني ما الذي تعنيه بالثانية؟! وشيء آخر...

رفعت رأسها إليه وسألت: لماذا تُصرُّ على مناداتي بـ "هاملت"؟! على الرغم من قولك لي سابقًا إنكَ تعرف من أنا بالفعل؟!

تأثَّر وجهه وشعر بضباب من الدموع يغشي عينيه، أطبق شفتيه يُكابد ألم قلبه، ثم أمال رأسه وفوجئت به يريح جبهته فوق جبهتها وقد لفَّ رأسها بيده الأخرى، أغمض عينيه ليمنع دموعه من السقوط ثم بعد لحظات نطق أخيرًا: آسف، أنا حقًّا آسف، إنني لا أعلم حقًّا من منَّا ترك الآخر أولًا، لكن ما يجبُ علينا الآن فعله هو أن نغفر لبعضنا.

كان صوته وهو ينطق بهذه الكلمات يفيضُ بالحزن والألم، دفعها ذلك لتفتح عينيها فإذا بها ترى؛ ترى الخطين المائيين اللذين ينحدران من عينيه، وثمة شعور أراح قلبها واستنكرته، كما لو أنَّها هي من كانت تبكي وطرحت ألمها وخوفها وحيرتها بالدموع!

رفع رأسه معتدلًا وتنحنح صوته، مسح دموعه وخرج صوته مرتجفًا وهو يقول: سأحضر لكِ الطعام.

وعندما خرج من الخيمة وجد دوريان بانتظاره، ووجهه يُضمر شرًّا، فعبس حال رؤيته، دنا منه وسأل: أنتَ ترى؟!

لم يُجِبه، وتقدم ليُكمل طريقه، لكن دوريان أوقفه بقوله: لننهِ كل شيء بالمبارزة، إن ربحت فإنِّي سأطيعك ولن أعصيك في شيء، وإن ربحت أنا فيجب عليك أن تتنازل عن مهمتك هنا وسأغلق السد.

ببرود علق: ما هذه الحماقة؟!

ثم استدار وهو يُتبع: يمكنك أن تأخذ منصبي إن أردت.

أثــار ذلــك استفزاز دوريان وأفقــده أعصابه فاندفع نحــوه وجذبه إليه وقــال منفعلًا: لماذا تُظهــر نفسك بمظهر الزاهد دومًــا بينما تحصل على كل شيء؟!

أمســك معصمه وضغط عليه بقــوة أثارت ذعر دوريــان لوهلة، ثم ثبَّت نظــره في عينيه لحظات قبل أن يقــول له: إنَّ هذا ما تعتقده أنتَ فقط، هذه الصورة التي رسمتها أنتَ عني ليست الحقيقة، إنني أعاني أيضًا ولكنك في الحقيقة أعمى.

وإن رُمتَ الحقيقة فسأعينك على ذلك، ولا مانع من النزال.

ثم اتجها إلى مكان يبعد مسافة طويلة عن المخيم.

أقلقها طول غيبته، فرفعت الغطاء، وبالكاد تمكَّنت من إسناد قدمها إلى الأرض ثم بدأت تمشي خطوة خطوة ببطء، وعندما اقتربت من باب الخيمة ورفعتــه، رأت انبلاج الفجــر ضبابيًّا، كان المكان هادئًــا، ويبدو أن الجميع كانــوا غارقين في النوم، مشت عدة خطوات، ثم هُيِّئ لها أنَّها سمعت صوت الأميــر، فسارت ناحيــة الصوت، ولم تشعر بأنَّها قــد قطعت مسافة طويلة، ولــم تكن تعلــم أنَّ أحدهم خــرج في تلــك اللحظة من خيمة كينــت بعد أن حقنه بمخــدر ليُجبره على النوم طويلًا، ابتعدت عــن الخيام، وشيئًا فشيئًا أمكنهــا تمييز صــوت صليل سيوف مختلطًــا بصوت اندفاع المــاء، اتسعت عيناها ذاهلــة وغشيها الذعر، وبدلًا من الهرب وجــدت نفسها تندفع تجاه الصــوت الذي كان يرتفع حينًا وينخفض، توقفــت ناظرة إلى الأسفل فرأت خيــال الأمير أريان وهو يتبارز مع دوريان قرب جرف خطير! ويبدو من قوة ضرباتهما أنَّ كلًّا منهما يُقاتل بأقصى قوته، فأسرعت ونزلت من فوق التل وهي تصرخ: توقفا.

لكن أيًّا منهما لم يعبأ بوجودها، فعادت لتصرخ مجددًا: أرجوكما توقفا، لماذا تتقاتلان؟!

ثم أرادت أن تقترب خطوة لكن الصرخة التي خرجت من فم أريان آمرة إياها بالوقوف وعدم التدخل ثبتتها في مكانها، فراحت تُراقب سيفيهما بذعر وهما يصطدمان ببعضهما، وفي كل لحظة تظن أنَّ سيف أحدهما سيخترق جسد الآخر أو أنَّ أحدهما سيسقط من أعلى الجرف.

وكلمة (توقفا) تموت في فمها قبل أن تخرج، لكن جسدها كان يتقدم دون إدراك منها.

كان الرجل الذي خرج من خيمة كينت يقف أعلى التلة مختبئًا خلف إحدى الأشجار، ولم يكن هذا الرجل سوى إيجاو، أخرج السهم وشدَّ قوسه، ووجَّهه صوب الأمير أريان، ولكن لم يطلقه، كان تحركهما السريع واقتراب دوريان منه يشتت انتباهه فخشي أن يُخطئ ويصيبه، مسح العرق عن جبهته ثم أخذ نفسًا وعاد ليُصوب من جديد.

كان سيفاهما في تلك اللحظة قد التصقا، وطاشت عينا دوريان إلى الأعلى فلمح ذلك الظل الذي يُصوِّب سهمه نحوهما، وعلى الفور ومن دون شعور قام بدفع شقيقه ليبعده، لكنَّه عجز أن ينحني في تلك اللحظة فاستقرَّ السهمُ الذي كاد يصيب رقبة أريان فوق صدر دوريان، مال جسده إلى الوراء وفَقَد توازنه ولكن يده..

يده التي أرادت أن تتخلص من روحه بكل ما ارتكبته من خطايا، امتدَّت لتُمسك أي شيء أمامها لئلا تسقط، وكان ذلك الشيء هو يد الكاتبة التي اندفعت سريعًا على الرغم من كل أوجاعها لتلتقطه قبل أن يسقط، يبدو أن رغبتنا الفطرية في إنقاذ من يتعرض للخطر قادرة على إيقاظ كل حواسنا ومنحنا القوة اللازمة لذلك، لكن ثقل جسده كان أقوى منها فسحب جسدها معه وأحسَّت بقدميها ترتفعان عن الأرض، وبجسدها يميل بكل ثقله ناحية الجرف.

أغمضت عينيها وأدركت أنَّهما هالكان لا محالة، فمدَّت يدها العمياء بيأس لعلَّها تُمسك أي شيء، فأمسكت طرف الجرف ثم فتحت عينيها

لتُـدرك أنَّها معلقـة، نظرت إلى يد دوريان الممسكة بهـا بقوة فشدَّت عليها وهي تشعر بمفصل يدها يوشك أن ينخلع.

شخصـتْ عينا دوريان؛ لقد استوعب للتو أنَّها ممسكة به وأنَّه لم يسقط بعد وأنَّه ساعد أريان فخـرج صوته مرتجفًا ومتأثرًا: أرسلي يدي، على هذا النحو ستقعين معي.

تغضَّـن وجهها وجعًا؛ كانت تجدُ صعوبـة بالغة في الإمساك به والتشبث بالجـرف، وكان ارتجافـه وكلامه يُثقل عليها أكثـر، فأطلقت صرخة ضجر وتألم ثم أتبعتها بقولها: لا تتحرك، إنني أحاول جاهدة أن أثبت جيدًا.

فـي تلك اللحظـة كان الأمير أريان قـد استعاد توازنه مـن أثر الضربة القويـة التي تلقاهـا من دوريان وأدرك الموقف، فقفـز ناحيتهما على الفور وأمســك ذراعها ليرفعها إليه، فشعـرت بالثقل يَخف عليها فتشبثت بذراعه بكل ما بقي من قوتها، ارتجفت عيناه خوفًا من فقدهما وهو يحدِّثها راجيًا: أمسكي به جيدًا، لا تتركيه.

وهنـت ملامحها، ومـع ذلك لاح طيف ابتسامة علـى شفتيها وهي تشير لـه بعينيها أنَّهـا ستفعل، كان دوريـان يستمع إلى كلامه وينظـر إلى قبضة يدها الممسكة به بقوة ويشعرُ بألم أعماقه أكبر من ألم السهم الذي اخترق صـدره وأسال دمـاءه، ففرَّت من شفتيـه "لماذا؟" بصـوت خفيض ولكنَّها سمعتها، فأجابته وهي تُحاول جاهدة رفعه قليلًا: هكذا فقط...

ابتلعـت ريقها، وتسارعت أنفاسها المجهـدة وهي تتمُّ: هذه هي الإجابة الوحيدة التي أملكها. شيء آخر...

خفضـت رأسها لتنظر إليه وأردفت: إنكَ لست سيئًا ما دُمتَ عَلمتَ أنكَ سيئ... يُمكنك...

شدَّت على قبضتها وخرجت ابتسامتها مرتجفة ومضطربة وهي تردف: يُمكنك أن تكون جيدًا.

وهنا شخصت عيناه ثم شعر برؤيته وقد أصبحت ضبابية من الدموع فخفض رأسه في يأس واستسلام، أما هي فقد شعرت فجأة بيد الأمير أريان وقد ارتخت، وسرعان ما عاد ليقبض عليها أكثر، لكن الدماء التي سقطت على وجهها جعلتها تدرك مصدر هذا الارتخاء في يده قبل لحظة؛ لقد أُصيب بسهم، إن كينت لا يزال خلفه. وهذه الدماء التي تمتد بخيط رفيع في يده ثم تسقط على وجهها ما هي إلا دماؤه، فارتجفت شفتاها وهي تنطق بذعر: إيجاو خلفك! اتركني، يُمكنني أن أحتمل...

تمسَّك بها أكثر وصاح: تمسَّكي جيدًا، سأرفعكما الآن.

لكنَّها شعرت بارتخاء يده مرة أخرى فقد كان السهم الثاني قد استقر في ظهره، لكنَّه عاد ليتشبث بها أكثر فأغمضت عينيها مستسلمة وصرخت من أعماقها: كفى...

هذا يكفي، لستُ قادرة على رؤية ذلك.

هزَّت يدها بعنف وبقوة ثم...

لم تعد تشعر بيد أريان، ولا حتى بيد دوريان، إنَّ لليأس قوة جاذبة تسحبنا نحوه، والأمل يَملك القوة نفسها، ولكنَّه بخلاف اليأس لا يتركنا إلا إن تركناه برغبتنا!

الفصل الأخير

"عندما يتصل المرء بالروح يصبح بسيطًا كالطفل".
- أوسكار وايلد

كان الظلام دامسًا، وكل شيء معتمًا. لا ضوء، لا شعاع، لا قاع، لا أرض.

كانت تهوي فقط، تهوي سرمديًّا في محيط من سكون وصمت، تحتضن ذراعيها، عيناها مفتوحتان على اتساعهما ولكن لا شيء، كل ما حولها عتمة، كل نداءات الذعر التي تخرج من قلبها تتلاشى قبل أن تخرج من فمها المرتجف.

ما الذي يحدث؟!

هل مت؟! هل توقف النبض في قلبي؟!

أهذا هو طعم الظلمة؟!

لقد اختفت ملامحي، وجودي، وكل شيء حولي تلاشى، أصبحت كل الأشياء متساوية!

لكن لماذا أشعرُ بالذعر؟! لماذا كل هذا الخوف؟!

أشعر بأنَّ قلبي سيخرج من صدري، أهذا هو طعم الظلمة؟ إنَّ طعمها مخيف، مخيف إلى حد الوجع!

الأرض تبدو كأنَّها الموج، وهي سفينة بلا قبطان أو حتى أشرعة، تقذفها الأمواج من ظلمة إلى ظلمة.

مدَّت يدًا عمياء في ظلمة عمياء بحثًا عن ظلال عمياء، لكن لا شيء!

تلفتت حولها بيأس، أهذه هي الظلمة؟! أهذا هو الموت؟! أم إنَّها أعماقها؟! أم إنَّ اللوحة ابتلعتها؟!

لا يُمكنها فهم شيء، كيف حدث كل ذلك بداية. لقد كانت في مكتبتها، وسقط كتاب على الأرض فالتقطته.

ولكن فجأة شعرت بالأرض ثابتة تحتها، فمدَّت يدها لتلمسها؛ وإذا بها أرض ملساء، راحت تفتش فيها، وفرَّت من شفتيها: دوريان؟ هل أنت هنا؟ هل سقطت معي؟!

دوريان؟

مدَّت يديها إلى أقصى ما تستطيع الوصول إليه وهي تنادي بصوت واهن: أريان؟! الأمير؟ أريان؟

ثم صرخت بارتجاف يائس: بياتريتشا؟! كينت، كنديد، الشيخ أيمن، أين أنتم؟! لماذا لا يُجيبني أحد؟!

رفعت كفها وقرَّبته من وجهها، لكنها لم تكن قادرة على رؤيتها، هذه الكف كانت ممسكة بيد أريان، وكفها الأخرى كانت ممسكة بدوريان؟! كانت ممسكة بالأمل واليأس في آنٍ واحد.

هل عليها أن تعترف الآن بأن ما قالته لدوريان كان يَخصها هي وحدها، وما هذه الظلمة سوى الثمن الذي عليها أن تدفعه!

لقد أثقلت روحها، أثقلتها بيأس مميت حتى ناءت بها وضجَّت منها إلى حد السأم، وتمنَّت كثيرًا أن تتخلص منها!

إنَّ ما عجزت أن تتذكره طوال مُكوثها في قصر الأمير هو سبب دخولها المكتبة!

لقد أرادت أن تتوقف عن الكتابة وتتخلص من نفسها وتُنهي كل شيء، كل شيء..

غرقـت عيناها بطوفان مـن الدموع، دمـوع كوّنها جبل من نـدم فانهدّ وتبعثـرت أجـزاؤه إلى قطـع لامعة، خرجت مـن عينيها مندفعـة فأضاءت الظـلام مـن حولها، لكـن نواحها المؤلم حـال دون رؤيتها الضـوء في تلك اللحظـة، وبعـد أن هـدأت وفتحت عينيهـا ، شاهدت قطـرات دموعها وهي تضـيء الأرض، مسحـت دموعها بيدهـا فشاهدتها وقـد أصبحت خطوطًا ضوئية مبعثـرة، بسطت يديها ورفعتها للأعلى فأضـاء المكان قليلًا وبانت كثيرًا من الظلال حولها!

لاح طيـف ابتسامة على شفتيها ثم نهضت، وراحت تمشي مهتدية بضوء دموعهـا ، وظلَّت تمشي وتمشي ثم أسرعـت خطواتها. وركضت حتى لم تعد تشعـر بساقيها، من شـدة التعب، توقفـت لحظات تلتقـط أنفاسها، تلفتت حولها، كانت الظلال كثيرة تُشبه النقطة التي انطلقت منها..

حدَّثت أعماقها: يمكنني أن أرى، نعم هذه الظلال هي حياتي.

حياتـي التي تخللهـا الموت عدة مرات. لقد كان الشيـخ أيمن محقًّا: إن كان علينـا أن نمـوت أو نتيه ونعبر الظلام لنصل إلى الشمس؛ فلا يهم عدد المرات التي نفعل فيها ذلك، المهم ألا نتوقف، التوقف هو المعنى الحقيقي للفناء.

عليَّ ألا أتوقف، فالتوقف يعني استمرار الظلمة، يجب أن أستمر وأستمر، إنَّ هذا ما يعنيه أن تكون على قيد الأمل، على قيد الحياة.

إننـي نادمة، نادمة على تلـك الأيام التي اعتقدت فيهـا بسخافة الأمل، وظننـتُ كما ظـنَّ (نيتشـه) أنّ كل ما يَفعله الأمـل هو إطالة أمـدِ مأساتنا وحسـب، وأنَّه كما يظنُّ (لوبـون) مدد لكل الأوهام، لقـد أدركتُ الآن فقط أنه لا ذنب للأمل، الذنب ذنب الإنسان الذي استغل حاجته الفطرية للأمل، يُمكنني أن أقول الآن: إنَّ العيش بلا أمل سخف: بل هو إثم مبين.

اندفعت راكضة، وبعد أن قطعت مسافة بدأت تشعر بأنّ الظلمة من حولها تتجلي كأنَّ شعاعًا من الشمس قد عانقها وبدد شيئًا من عتمتها، فازداد وضوح ظلال الأشياء من حولها.

فدفعها ذلك لتستمر وتستمر دون أن تنظر إلى الوراء، لا تعلمُ كم انقضى عليها من الزمن، لكن ذلك الوقت الذي قضته ركضًا نحو الأمام كان كفيلًا بتعليمها ألا تلتفت إلى الوراء مجددًا.

الريشة الزرقاء التي سقطت فجأة على كفها المضاء بخطوط الدموع، أجبرتها على الوقوف لترفع رأسها إلى الأعلى حيث شاهدت طائرًا عملاقًا بأجنحة ملونة وذيل ذهبي براق، قبض جناحه ونشره؛ فتناثرت بقع من الضوء حولها.

لم تستطع عيناها أمام هذه اللوحة البديعة لطير (الهوما) *، إلا أن تتبعه مُستدلَّة ببقع الضوء التي كان ينثرها ليُضيء لها المكان.

غمرتها نشوة صوفية وشعرت بأنَّ روحها قد اتحدت مع طائر الهوما وحلَّقت معه، فابتسم قلبها وراحت تركض وتركض لئلا تقف، كانت تُشاهد طوال ركضها شريطًا من ذكرياتها، وهي طفلة تركب الدراجة وتركل الكرة وتصطاد السمك، ثم وهي شابة بين صديقاتها، ثم وهي على المسرح تُمثل وتُقدِّم لإحدى الحفلات، ثم وهي تكتبُ روايتها الأولى وتقرأ وتخوض امتحانات الجامعة، فشلها ونجاحها، فرحها وانكساراتها، سعادتها وحزنها، لقد كانت تركض وهي تشاهد كل ذلك، لم تكن حياتها تخلو من السعادة لكن كان عليها أن تقبل الألم أيضًا، وأن ترضى بتبعات الطريق الذي اختارته، فلكل شيء في هذه الحياة ضريبته، وعليها أن تكون كطائر الهوما لا تتوقف أبدًا...

---

* الهوما: طائر أسطوري من الميثولوجيا الفارسية. وهو شبيه بالعنقاء، لا يتوقف عن الطيران ولا يحط على الأرض أبدًا.

لكنَّهـا توقفت عندما وصل إلى أذنها صوت عزف ظنَّت أنَّها سمعته من قبل، كان خافتًا ولكنَّها قررت أن تتبعه، تحركت تجاه الصوت، وكانت كلما اقتربت يعلو الصـوت ويتضح، توقفت وأنصتت، إنَّه الصوت نفسه الذي انبعث من شرفة قصر الفنون في حفل التوقيع، لحن (الراعي الوحيد)، لقد تذكرته الآن وميزته، لقد ارتبط هذا اللحن بطفولتها؛ لقد سمعته أول مرة في برنامج تليفزيوني، فاندفعت راكضة بأقصى سرعتها، تبدَّى لها ظل رجل يمسك نايًا ويُتابع عزفه، دنت منه، وكلما اقتربت كانت الظلمة من حوله تتبدد فتظهر ملامحه.

كان طائر الهوما قد نثر ضوأه عليه فتمكَّنت من إبصاره جيدًا، كان رجلًا يلبس ثوبًا أبيض فضفاضًا ونطاقًا من جلد وعباءة سوداء من فوقه.

شعرت باطمئنان لم يكن مبعثه أنَّه أول شخص قابلته هنا، بل كان نابعًا من شعورها بأنّها تعرفه جيدًا، بل أكثر من ذلك؛ تشعر بأنَّه جزء منها- الشعور نفسه الذي شعرت به حينما رأت الأمير أريان- لذا وجدت نفسها تقتربُ منه حتى أصبحت ماثلة أمامه تمامًا، فتح عينيه البنيتين ورمقها لحظة ثم عاد ليُغمضهما ويكمل مقطوعته، فسالت دموعها الباقية استجابة لمشاعر (الراعي)، وأحسَّت بروحها تنتشي كأنَّها تُقيم (صلاة) صوفية؛ فأغمضت عينيها وظلَّت تسمعه فقط، لا تدري كم مكثا وهما على هذا النحو، هو يعزف وهي تستمع فقط، حتى توقف أخيرًا، فتنبَّهت إليه، أبعد الناي عن فمه وراح ينظر إليها لوقت طويل قبل أن يتحدث أخيرًا: " على المآسي ألا تتوقف؛ وإلا فلن يجد الرسام ما يرسمه، وسيتوقف الفنان عن العزف، وسيجف مداد قلم الكاتب، لولا المآسي ما توقفنا ننظر إلى اللوحة بانبهار وما بكينا لمقطوعة، لولا المآسي ما تطلَّعنا إلى السماء بأمل، لولا المآسي لفقدتْ كثير من الأشياء بريقها".

كانـت تستمع إليـه باندهاش وغرابة وبعينين مأخوذتيـن، وما إن سكت حتى سألته: أأنت طاهر*؟!

أومأ بحركة تنمُّ عن الإيجاب ثم أمسك كفها وقادها، فتبعته دون أن تعلم إلـى أين، وظلَّت تتبعه في صمت وسكون ودود حتى توقف أمام مكان بدا لها فيـه بوابة بلا باب، قدَّمها فعبرت من فوق عتبـة، واستنكرت وقوفه خلفها، فأشـار إليهـا بالتقدُّم، ففهمـت وتابعت طريقها، وما هـي إلا بضع خطوات حتـى أبصرت امرأة تلـفُّ شعرها الأسود بشال أحمـر، عيناها الرماديتان كان فيهمـا غموضٌ يَجذبك نحوها كغموض أضرحة الدولمن على مرتفعات إديجـي، أقبلت نحوها، فأحسَّت بالشعور نفسه الـذي غمرها عندما التقت عـازف الناي، وعندمـا وقفت المرأة أمامهـا والتقت عيناهمـا تمكَّنت من تخميـن ما الـذي ستقوله لها، وبالفعل كان ما نطقت بـه: "كل شيء سيكون على ما يرام".

أبـدت التأثر وأومأت لها موافقة، ثم قاومت دموعها بالفرار إلى عناقها وقد نطقت اسم "صوفيا"**.

ربَّتت صوفيا على ظهرها وطمأنتها، ثم أمسكت يدها، ومثلما فعل طاهر قادتهـا في هذه العتمة والطير يلحقهمـا ليُضيء لهما الطريق، وبعد مسافة وجدت أمامها العتبة نفسها فعبرتها وتوقفت لحظات لتنظر إلى عينيْ صوفيا قبل أن تودعها وتمضي في طريقها، تابعت مشيها ثم توقفت بعد أن أبصرت امـرأة أربعينية تلبـس البياض، عيناها زرقاوان، ووجههـا يفيض بالدفـء، أقبلت إليها وقالت وهـي تقترب: "كل من سيعيشون للنهار سيعلمون أن ثمة سحابة مرت من هنا".

---

* من أبطال العالق في الزمن، وما بين القوسين: "على المآسي أن لا تتوقف..." من كلمات البطل طاهر.

** مـن أبطال روايـة (المنفيُّون)، ومـا بين القوسين: "كل شـيء سيكون..." كلمـات كانت ترددها البطلة صوفيا.

تغضَّن وجهها، وما إن وقفت أمامها حتى غمرتها مشاعر دافئة، فقالت: " أنتِ ماريا إذن "*، فابتسمت لها ثم عانقتها بلطف، وقالت وهي تُغالب دموعها: إنَّ هذا ما يعنيه أن تكون على قيد الحياة.

ربَّتت ماريا على ظهرها لتؤكِّد لها ذلك، وكما فعل من قبلها أمسكت يدها وقادتها إلى عتبة أخرى، مشيا طويلًا، وعندما وصلا إلى العتبة أشارت إليها بالمتابعة، فتبادلا ابتسامات مشرقة وتابعت طريقها، ثم توقفت عندما رأت رجلًا يلبس معطفًا أبيض يدير لها ظهره ثم استدار فجأة كأنَّه قد انتبه إلى وجودها للتو، اقترب منها، فأبصرت ملامحه جيدًا، كانت شامة صغيرة تُزين خده الأيسر، أبيض البشرة، وعيناه واسعتان، ما إن توقف أمامها حتى قال: "ربما لا يُمكننا أن نرى شعاع الشمس ولكن حتمًا يُمكننا أن نشعر بدفئه".

ما إن أنهى جملته حتى أحست بدفء غمر فؤادها، فأومأت إليه موافقة وعرفت أنَّه (عادل) ** فحيَّته، ومثل سابقيه أمسك يدها وقادها إلى عتبة أخرى، وهناك تابعت المشي لمدة طويلة قبل أن تُبصر شخصًا يقفُ بانتظارها، دنت منه وشاهدته، كان غامضًا كلوحة الموناليزا، كأهرامات مصر، كأحجار ستونهج، كتماثيل جزر الفصح العملاقة، ساحرًا كمعزوفة بيتهوفن، كلوحة جوخ الليلية، كهاملت شكسبير، كشيطان فاوست، كجنة روسو، وكجحيم دانتي.

---

* ماريا من أبطال رواية (سقوط المِحلاق)، وما بين القوسين: " كل من سيعيشون..." من كلماتها أيضًا.

** من رواية (لا شيء يبقى في الخفاء)، وما بين القوسين" ربما لا يمكننا..." من كلمات بطلها.

فتحركت شفتاها ناطقة اسمه(لوكاس)*! فسمعها واقترب مبتسمًا ابتسامة ودودة، توقف أمامها وقال: "إنَّنا لا نستطيع أن نعيش بلا حب أو انتماء، لن يكون للحياة أي معنى".

وهنا شعرت بأن معركتها مع دموعها خاسرة، فانهار رأسها بين كتفيها كما فعلت دموعها، وراحت تقول بصوت أثقله الألم: كيف، كيف نسيت كل ذلك؟!

أمسك يدها فنظرت إليه، كان يبتسم لها وقد أشرق وجهه فشعرت بأن قلبها قد فاض بالأمل، فانتقلت البسمة إلى شفتيها؛ ومسحت دموعها، ثم قادها وتبعته، ولكن لم تكن عتبة بانتظارهما هذه المرة، لقد امتدَّت عيناها لساحة كبيرة وأدركت للتو أنَّ الظلمة تبددت، وأنَّ النور قد عمَّ المكان، وشاهدت الطير وهو يُحلِّق بعيدًا، ورأت في منتصف الساحة طاولة (طعام) طويلة وقد جلس حولها خَلْق عظيم، وآخرون كانوا يقفون على مقربة منها، رأت أحدهم وقد أقبل إليها، فعرفته على الفور، إنَّه الشيخ؛ شيخ هيمنجواي.

لم ينفر منها هذه المرة بل رأته وقد اقترب منها وحيَّاها بابتسامة جميلة ثم أمسك يدها الأخرى، فتركت لوكاس وهي تنظر إليه فأشار إليها بالذهاب معه، فتبعته وعندما اقتربت من المائدة شاهدت كنديدَ وهو جالس بجوار دون كيخوته، ومن احمرار وجهه بدا واضحًا أنَّه يتشاجر مع كيخوته، كعادته، أما الشيخ أيمن فقد كان يُتابع حوارهما صامتًا، أطلقت بصرها فرأت راسكولينكوف يكتبُ مقالته بجوار إيفان بتروفيتش، أما رامبرانت فكان واقفًا على مسافة من الطاولة يرسم لوحة، وأمامه وقفت آنا كارنينا ليرسمها، وكلما أطلقت بصرها وأمعنت تمكَّنت من تمييز جميع من عرفتهم، رأت هاكلبيري فين وتوم سوير يلعبان فوق الطاولة، وزوربا يوبخهما، و(جودي أبوت) تضحك عليهما، ثم أمعنت النظر مرة أخرى ورأت دوريان جراي فاتسعت عيناها ذاهلتين واقتربت منه، لم يكن مصابًا

---

* بطل رواية (المسخ) والكلمات بين القوسين هي كلمات قالته لها بطلتها إيما: "لا نستطيع أن نعيش...".

بسهم كما رأته آخر مرة، بل كان جالسًا يستمع بإنصات تام إلى تمثال (الأمير السعيد)، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة ومطمئنة جعلتها تبتسم هي الأخرى، ثم زوت عينيها ورأت كينت جالسًا بجوار بياتريتشا وهما يضحكان ببشاشة، أدركت أنَّها لم ترَ الأمير أريان حتى هذه اللحظة، فأطلقت بصرها بحثًا عنه يمينًا ويسارًا، وعبرت كل الوجوه حولها بكل تعبيراتهم المتباينة ولكنَّها لم تبصره، أثار ذلك استنكارها وقلقها أيضًا وهمَّت أن تتَّجه إلى بياتريتشا وكينت لسؤالهما لكنَّها فوجئت بالشيخ يُمسك يدها مرة أخرى ويقودها إلى مكان ما، فتبعته دون أن تعترض، ثم توقف فجأة ورفع رأسه إلى الأعلى ففعلت مثلما فعل؛ وإذا بها تشاهد فتحة في السقف، أدهشها ذلك؛ وزادت دهشتها حينما رأت أريان وقد أطلَّ من فوقها ودنا من الفتحة، نظر كل منهما إلى الآخر كأنَّ الواحد فيهما يشاهد الآخر للمرة الأولى، ثم رقَّ وجهاهما واستدامت النجوى الصامتة بينهما، وظنَّ كلاهما أنهما في حلم جميل، حتى تحدَّث الأمير قائلًا: إذن هذا ما تبدو عليه ملامحك.

أدركت أنَّها قد عادت إلى طبيعتها وأن ملامح هاملت غادرتها إلى الأبد؛ فأمسكت وجهها لتتأكد ثم خفضت رأسها ببطء، وافترَّت شفتاها عن ابتسامة متألمة ساخرة وهي تنطق: كيف؟!

ابتلعت كلماتها لم تكن قادرة على الحديث وتغضَّن وجهها بوجع جميل؛ وجع الإدراك.

شاهدت وجعها وقد انتقل إلى وجه الأمير أيضًا، فغضَّت طرفها وأخذت نفسًا عميقًا لتُهدئ روحها وتستكين قبل أن تعود لتنظر إليه وقد لاح طيف بسمة سرعان ما تبددت وهي تقول: الآن فقط عرفت من تكون، وعرفت لماذا كانت لوحتي بلا ملامح، ثم لماذا رأيت فيها ملامحك أنت، وعرفت لماذا كنتَ تناديني بهاملت؛ هاملت خبَّأ ضعفه بقناع الجنون، أما أنا... فخبَّأت يأسي العميق بقناع من الفرح البائس، وسرعان ما تهتَّك وانكشف، وأنتَ من سمحت لي برؤيته بعد أن أصابني العمى.

شعـرت بارتجاف صوتها عندما نطقت الجملة الأخيرة فتريثت لحظات لتهدأ ثم تابعت: لقد كنتَ جزءًا من روحي، لا، بل روحي، روحي الثائرة على روحي، كيفَ لم أعرفك؟! إنني حقًّا جاهلة...

تغضَّن وجههـا وأفصحت عن شعورها العميق بالندم قائلة: إنني آسفة، آسفة لأنني حاولت أن أتخلص منكَ ذات مرة...

ثم انحدرت دموعها وفرَّت منها شهقة حاولت أن تكتمها ثم تابعت: كيف أمكنني التفكير في ذلك؟! إنَّ مجرد التفكير في ذلك جريمة لا تُغتفر... كيف فكرتُ أن أتوقف عن الكتابة؟! أأتخلَّص من روحي كيف؟!

أمسكت عن الكلام بعدما شاهدته يمدُّ يده إليها من الفتحة، كانت عيناه باكيتيْن، وشفتاه باسمتين، ظلَّت لحظات تتأمله فقط بينما كان يحثُّها على الإمساك به وهو يقول: لا تَخْشي؛ لن أَدَعك تسقطين مثل المرة السابقة.

تبسّمت واستجابت له، ومدَّت يدها وحاولت أن ترفع جسدها بأصابع قدميها فتمكَّنت من إمساك طرف أصابعه، ولكنَّها سرعان ما أفلتته، فمدَّها لها مرة أخرى، وفي عينيه إصرار أكبر، فمدَّت يدها إليه ثم شعرت بجسدها وهو يُرفع فجأة، نظرت إلى الأسفل؛ كان الشيخ يسندها لتصعد، فأمسك الأمير يدها أخيرًا وأحكم قبضته ثم حاول أن يرفعها، وحاولت هي أن تستند بكتف الشيخ وتتابع الصعود، فوجئت بصوت جلبة واندفاع حولها، فنظرت إلى الأسفل باندهاش؛ كان الجميع يساندون الشيخ ويحاولون رفعها (بحبّ)، ميَّزت كنديدَ وبياتريتشا والبقية، وكذا لوكاس وصوفيا، كان الجميعُ يبتسمون لها مشجعين، فتمسَّكت بيد أريان كما لم تمسك به من قبل، ثم حاول جاهدًا رفعها حتى تمكَّن أخيرًا.

جلست على الحافة بجواره تلتقط أنفاسها المجهدة، ثم نظرا معًا إلى الجميع في الأسفل بينما كانوا يُطلقون صفارات مبتهجة ويلوِّحون لهما بأيديهم.

فلوَّحت لهم بحماسة وابتهاج ثم سرعان ما اتسعت ابتسامتها معبرة عن فرحٍ مَلَك قلبها حتى فاضت دموعها فحرَّكت عينيها تجاه أريان الذي كان

ينظـر إليها، وقال: إنني مدين لـكِ باعتذار أيضًا، لقد قطعتُ الخيط* بيني وبينك ذات مرة فكان ما كان...

خفض عينيه المحرجتين المشرقتين بالدموع وهو يتمّ: ولكنّي لن أسمع بذلك مرة أخرى.

أمعنا النظر إلى عينيْ كل منهما الآخر وقتًا طويلًا، أدركا خلاله أنَّه الوداع، ففاضـت دموعهما ثم ابتسما في الوقـت نفسه، أمسك الأمير كفها وقال: لا مقاطعة بعد اليوم، لنتعاهد أن يُحب أحدنا الآخر مهما يكن.

أومــأت موافقة فأردف: عِدِيني أيضًا أنـكِ ستكتبين دومًا، وفي كل مرة ستجدينني موجودًا لدعمك.

زمّـت شفتيها مؤكـدة، ثم اندفع كل منهما يعانـق الآخر ويبكي بصمت، فكان عناقًا مقدسًا بين الروح والجسد، بين الحرف والكاتب.

شعـرت بـه وهو يـذوب ويتلاشى ليتّحد معهـا، فأغمضـت عينيها بتأثر وشدّتـه إليها أكثـر لكنّه كان قد اختفى، شعـرت بانتفاضة جسدها ففتحت عينيهـا ذاهلة ووجدت نفسها في المكتبة، نظـرت إلى الكتاب على الأرض، الكتاب الذي ابتلعها، همّت أن تمسّه لكنّه تلاشى أمامها حتى اختفى، ظلّت جالسـة في مكانهـا لحظات تنظرُ إلـى مكانه الفارغ بدهشـة حتى صاحت أعماقها قائلة: سأكتب، نعم، سأكتب مرة أخرى وأخرى، سأكتب وأكتب إلى أن أموت؛ ولن أكتب ما كان، بل سأكتب ما يجبُ أن يكون، لقد اكتفى العالم من واقعيته حتى اتسخ، لذا يجبُ علينا أن نلوّنه بألواننا نحن الفنانين.

---

* أريـان في الأصل من الميثولوجيا الإغريقيـة، كان وحش المينوتور يعيش في متاهة بجزيرة كريت. وكان ابـن ملـك أثينا قد تطوع لقتله ولأن ابنة الملك كريـت أحبته؛ فقد أعطته خيطًا ليكون له هداية فـي هذه المتاهـة. أصبح خيط أريان رمـزًا للخيط الذي يخرج من الظلام إلـى النور، ومن السجن إلى الحرية.

سأكتب؛ لقد ولدتُ لأكون كاتبة، ثم نهضتْ بسرعة متجهة نحو مكتبها ووقعت عيناها على علبة الأقراص، فتلاشت كما تلاشى الكتاب، لم يُدهشها ذلك كثيرًا فجلست على الكرسي ثم فتحتْ جهازها المحمول.

فكَّرت قليلًا ماذا تكتب، لقد شعرتْ بأنَّ عليها أن تكتب قصة الأمير أريان وتُكملها، لقد كان بطلها الذي أنقذها، وعليها أن تُخرجه مرة أخرى.

تساءلت: ما عنوانها؟ فكَّرت لحظة ثم أضاء وجهها بفرح أرخميدسي وصاحت: يوريكا، ولاحت على عينيها الفولتيرية نظرة ساخرة فانحنت وكتبت: لا تنتحر داخل مكتبة.

تمت

2020_2_11م

مكتبة
t.me/soramnqraa

مسابقة
جرير
للسرد
القصصي

الرواية الحائزة على جائزة
مسابقة جرير للسرد القصصي عام ٢٠٢٠م

رواية لا تنتحر داخل مكتبة

ولاء عوده أبو غندر

أن تنامَ داخل مكتبة يعني أن تكونَ أحلامك روائية، وأكبر كوابيسك عندما يُلاحقك مسخ فرانكشتاين ولا يبلغك، وأقسى خوف يُهددك بالوقوع في جحيم المعرّي. وأسوأ حظ قد يُصيبك هو حظ زديج فولتير، وما عدا ذلك ستنام مطمئنا هانئا وتُصبح ليلتك بألف ليلة وليلة، تشدو مع الأصفهاني، وتجاور حيَّ بن يقظان، وتحيط بمنطق الطير، وتأنس بالعقد الفريد في روضة من رياض الصالحين. لذا لا تخشَ النوم داخل مكتبة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إحدى مبادرات جرير لإثراء المحتوى العربي

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

مسابقة
جرير
للسرد
القصصي